وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ

المقدمة ـ بَقين اللِّقاء

رموز الغلاف (•)

- يرمز أعلى الغلاف إلى سقف الحياة الذي تعيش تحته جميع الخلائق وتموت.
- تمثّلت، على الغلاف، حياةُ الإنسان بحبلٍ شديد، وبخروج الروح من الجسد ينقطع الحبل. وعند خروجها وقبله وبعده، يظنّ الإنسان، غير المؤمن، أنّه الفراقُ الأبديّ، بينما يظن المؤمن أنه فراق للقاء أبدي.
- (**ظنَّ أنه الفراق**)، هي الآية المعوَّل عليها في إيضاح النهاية المحتومة.
- الميت، تبعاً لحياته الدنيوية، يلج إحدى السبل الثلاث:

ــ فإما أن يكون **سعيداً مقبولاً** عند الله سبحانه **فيَنْعَم** في قبره ويرى الجنة ومقعدَه فيها، ثم يعيشها، بعد البعث والحساب، مع من أحب، .حقيقةً كاملة وواقعاً ملموساً.

ــ وإما أن يكون قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، **فطريقه ضبابي**، قد يُعذَّب، ثم تدركه رحمة الله فيدخل الجنة الأبدية.

ــ أو يكون من الذين حَقَّت عليهم كلمةُ العذاب فيسلُك **طريقَ جهنم**.

- و(**يقين اللقاء**)، اسم هذا الكتاب، عنوان يؤكد أنَّ الحياة تواصلٌ لا انقطاعَ فيها، لا في القبر ولا في يوم النشر ولا فيما بعدهما.
- و(**المقدمة**) إشارة إلى أنها مقدمة لكتابي "الثاني"، (**حروف الوفاء في فقد الأبناء**)، وهو ذكرى ولدي الشاب د.مؤمن رحمه الله، وقد اختاره الله إلى جواره في ربيع العمر، كما هو ذكرى لكل أم أو أب ــ أو كليهما معاً ــ فقدا فلذة كبدهما....!!.

(•) أخرج الغلاف الأخ الإعلامي محمد السنكري أكرمه الله.

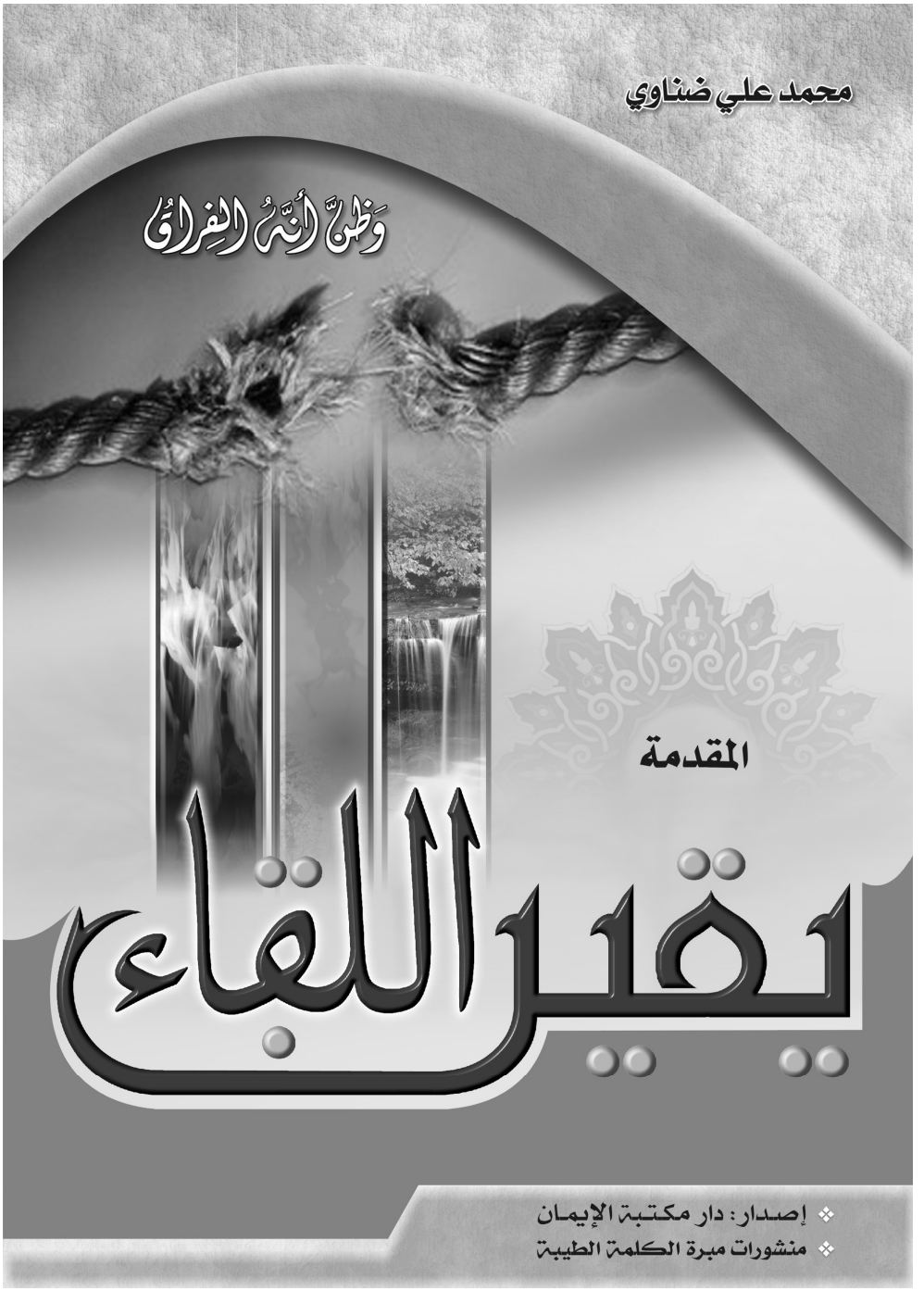
محمد علي ضناوي
وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ
المقدمة
يقين اللقاء
إصدار: دار مكتبة الإيمان
منشورات مبرة الكلمة الطيبة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه

ومن سار على هديه إلى يوم الدين

جميع حقوق تأليف هذا الكتاب
المقدمة (وظن أنه الفراق) ـ يقين اللقاء
محفوظة لوقف مبرة الكلمة الطيبة

أوقف مبرة الكلمة الطيبة د. محمد علي ضناوي
هاتف) الكلمة الطيبة ٩٦١ ٦ ٦٢٩٢٨٨
الموقع: www.kalimatayiba.org

الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م)
إصدار دار ومكتبة الإيمان

طرابلس ـ لبنان) ٠٦ ٤٤٠٢٩٠ فاكس: ٠٦٦٢٨٦٢١
خليوي : ٠٣ ٢٢٨٨٦٤
e mail: aliman@lib.live.com

الإهداء

- إلى كل من كان مصيرُه في الدنيا الموت، فأدركَ أنّ عليه العيش فيها بحياةٍ طيبةٍ أساسُها الإيمان، وسبيلُها العمل الصالح.
- إلى كل من أيقن أنّ الموت فراقٌ مؤقت، للقاء دائم في دارَيْ الآخرة.
- إلى كل من آمن أنّ الدنيا ممرٌّ عابر لمقرٍ خالد، فنهى النفس عن الهوى والتزم الصراطَ المستقيم.
- إلى من تطلع إلى دخولٍ رضيّ في القبر، وإلى خروجٍ رضيّ يومَ البعث.. ثم إلى دخول رضيّ في الفردوس.
- إلى كل من كان دعاؤه :
- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ عِيشَةً تَقِيَّة وَمِيتةً سَوِيّة وَمَرَدّاً غَيْرَ مُخْزٍ ولا فاضح.
- اللهُمَّ ارحمني فوْقَ الأرض، وارحمني تحتَ الأرْض، وارحَمْني يومَ العرض، وأدخلني مُدْخَل صدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدْق، عسى أن أفوز بـ ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ القمر.

إليكم جميعاً أهدي هذا الكتاب.

٢٠ جمادى الثانية ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢/٠٥/١١م

أبو مؤمن

بسم الله

العليّ الأعلى الحيّ الذي لا يموت

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبْلُوَ العباد أيُّهم أحسن عملا.

ثم **الحمد لله** الذي لا يُحمد على مكروه سواه، فله الأمر وإليه المآب. وهو الذي أعطى.وهو الذي يأخذ، ولكل حيٍّ أجل، وكل شيء عنده بمقدار.

والصلاة والسلام على رسول الله مُعَلِّم الناس الخير والرحمة المهداة، وهو القدوة المثلى والأسوة الحسنة، وقد ابتُلي **r** بموت زوجه خديجة رضي الله عنها أم أولاده، والتي وقفت بجانبه وشدّت أزره في أول سنين دعوته. كما ابتلي **r** بفَقْد الولد، وبموتِ الأحفاد والأحباب، وحَزِنَ وبكى، ولم يقلْ إلا ما يُرضي الرَّب تبارك وتعالى...

وهو **r** من علّم الناس وأدبهم **وأعطاهم من كنوز الغيب من ما مكّنه الله فيه**، وقرّب إلى أذهانهم معانيَ الموت والحياة، ومنحهم من معالمهما ما يُسددهم في حياة آمنة مطمئنة، لمختلف أدوار الحياة. كما ذاق رسول الله **r** الموت كأي بشر: غُسِّل وكُفِّنَ وصُلِّيَ عليه ودُفن.

ولئن أكد موتُه **r** بشريتَه المطلقة، إلا أنه أكد أيضاً القاعدة المضطردة في الخلق، أنّ كل حي يموت، وليس الخلودُ صفةَ أيٍ كان، وإنْ كان خاتم الأنبياء والرسل. **فالخلود ليس إلا لله وحده** ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ **الرحمن**.

وقال **تعالى**: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ **الأنبياء**.

وقال **U** لنبيه **r**: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿١١٠﴾﴾ **الكهف**.

وقال **سبحانه**: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ **آل عمران**.

❖ ❖ ❖

وصيةُ راقدٍ تحت التراب

فـإذا نفـضتَ غبـارَ قـبري عـن يـدكْ ومـضيتَ تلـتمسُ الطريـقَ إلى غـدِكْ
فـاذكُرْ وصـيةَ (راقـدٍ) تحـتَ الـترابْ[1] (ومـدادُها زاد) الكُهُولـةِ والـشبابْ

❖ ❖ ❖

الوصية

أُخَيَّ... فجأةً جاءني،
وافدٌ كريم لا يُهاب,
دخل عليّ دون استئذانْ....
وبلا مقدماتْ، نزع مني روحَ الحياةْ
فتهاوى الجسدُ بلا حِراكْ!!
وعلى عجلٍ حُملتُ إلى مشفى
وهناكَ قال الطبّ.. بلا وجلْ
عجزتُ، وربِّ السماء، لقد وافاه الأجل!!
انتشر الخبر...
وبين مكذب ومصدقٍ ومرتابْ
أسرع الأهلُ والرفاقْ
وفاض الدمعُ من المُقَلْ...

---

(١) قرأت للشاعر الكويتي يوسف الرفاعي قصيدة كان منها البيتان الأولان، أردتهما استهلالية هذه (الوصية)، لكن أبدلت كلمة [لاجئ] في البيت الثاني إلى (راقد) كما أبدلت [سلبوه آمال] فصار عجز البيت (ومدادها زاد) الكهولة والشباب. ثم أمسكت بالقلم لأسطر بعض الشعر المنثور، **ولست بصاحبه**، إذ تخيلت ولدي مؤمن رحمه الله وهو تحت التراب، وقد مات ولما يبلغ أربعين ربيعاً، يهتف بما سطرته، نصيحة طيبة منه لكل حي، مما لاحظه في تجربة حياةٍ قصيرة الأمد، لكنّها غنيةُ المعاني والتجارب.

وبأصواتٍ منخنقةٍ صرخوا :
هل مِنْ راقْ؟!!!
أو حلّ الفراقْ؟!!
أجبتُكم، لكنّ قوليَ لا يطرقُ المسامعْ
فبيني وبينكم اختلافُ الدارِ والمواضع
لا تأسفوا عليّ، بربّكم، بل افرحوا
فقد تحررتْ روحي من "الصدفْ"[1]
أما أنتم فلا زلتم أسرى الجسد!!!
أحبتي قد أُنهِيَ عملي من فورْ
فرأيتُ، في صحيفتي،
كلّ صغير وكبيرٍ مستطرْ
لا أكتمكم... فَحُزْني الوحيدْ
أني لم أجمع في دنياي كل الدُّرَرْ
قد جاءكم، أحبتي، موتي وفيه مُزدجر
حكمةٌ بالغة لمن أراد العِبَرْ
فهاكمُ أنتمُ في دنياكُم فابذروا
يا زارعَ الخيرِ أبشرْ بالثمر
ويا باذرَ الشَّرِ ما لك إلا سَقَرْ
اِحملوني، أحبّتي بربّكم،
إلى أمّيَ الأرض وانصرفُوا
واتركوني في قبري واستريحوا
فقد أودعتموني رباً رحيماً.

---

(١) قال الليث في لسان العرب: الصَّدَف غشاء خلق في البحر تضمه صدفتان مفروجتان عن لحم فيه روح يسمى المحارة. وقال الجوهري: وفي مثله يكون اللؤلؤ. وصدف الدرة غشاؤها، الواحدة صدفة ،وهنا هي عبارة عن جسد الإنسان، وقد استخدم هذا التعبير الإمام الغزالي في قصيدته عن الموت، تجدها في فصل الشعر والموت من هذا الكتاب.

لا تخافوا

فعنده... لا تضيع الودائع

❖ ❖ ❖

أُخَيّ، تنبَّهْ...!!

عن قريبٍ، تضحى مثلي

والثرى يطويك طيّ!!

عشتُ مثلَكَ وقبلكْ

قد عَبَرْتُ الحياةَ قبلكْ

فأدركت أنّ الدنيا (وهْمٌ على وهْم)[1]

وإذا ما أصررتَ، أُخيّ، عليها،

تعاظمت في نفسك أوهامها

وغدوتَ أسيرَ الهموم، سجينَ الأحلامْ

وبتَّ لا ترى في الحياةْ

إلا لهواً وذريّةً وأموالْ

تلك هي، وربِّي...، حقيقةُ الأحلامْ!!

تتراءى لك من بعيدْ...

ثم هي تدنو منك... من قريبْ

وأنت !... تهشُّ لها و"تبشْ"

عندها... فتغمرُكَ بلا ارتيابْ

وتحضنُك... بعناق وقبلات

فَتَطْرَب لها.. وتغرق في لذيذ المنام

ثم، فجأة ...تراها

تتهرب منك وتتملص

---

(١) عبارة لولدي مؤمن رحمه الله يصف بها الدنيا، وجدتها في مفكرته.

وعبثاً تحاول، عبثاً تجهد...
وبها تستمسكْ
تتعلق بتلابيبها ... وتتألمْ
وبتذلل وتعطفٍ... ترجوها البقاء!!
لكنّها بعناد... منك تتفلت!!
باستحياء ... تُسارِقُها النظرْ
فتراكَ ... مفتوناً بها... مبهورْ
تستعلي عليك... وتجفوكْ
وبازدراء... بعيداً عنك تروحْ
لتتلاشى... في الغمامِ ولا تعودْ
وتبقيك صريع الأوهام السودْ

❖ ❖ ❖

أُخَيّ، في كل لحظة، قد يأتيكَ زائري
ومصيرُكَ، وإنْ طال، يمسي مصيري!
فكنْ ما استطعت، قائداً هُمامْ
وانزعْ عن الحقيقة القناعْ...
تَرَ الدنيا بلا أستارٍ ولا أزياءْ
فما أجملَ الزمنَ والحياة ..
لكن بغير دثارٍ ولا رياءْ

❖ ❖ ❖

أُخيّ هلاَّ أصغيتَ لما أقولْ:
ملَكُ الموتِ تخطى غيري إليّْ
وسوف يتخطى غيرَك إليكْ
فخذْ من موتي العِبَرْ
وأنعمْ، إنْ شئت النظرْ

يَعُد إليك، واعياً، ذاك البصرْ
ويأتيكَ النداء بعد النداء:
أنْ فِرَّ من باطل الحياة
فِرارَكَ من الأسد والجذام[1]
إنْ فعلتَ، وربِّي، فأنتَ سعيدْ
وروحُكَ تسمو بالحق الأكيدْ
وتحيا... في لآلئ الموقف الوضيء

❖ ❖ ❖

أُخَيَّ ارفعْ قلبكَ ويديكَ ...إلى ربِّ السماءْ
أُتْلُ، بخشوع، آيات الكتابْ
واسجدْ، طويلاً في ساح الرحمنْ
ناجِه، بأدب وحنانْ،
أن يفتحَ لكَ الموصودَ من الأبوابْ.
هناك اُدْعُه، بتضرعٍ وإصرارْ
أنْ يَقْبَلكَ في الأتقياء الأبرارْ.
ثم عُدْ إليه واسألْه بحبٍ ورجاء
أنْ يخُصَّك والأهلَ والإخوانْ
برحمةٍ ورضا ورضوانْ
ومنْ ربك الحنّان المنّانْ
وبإلحاح وامتنانْ
اُطلب الفردوسَ الأعلى من الجنانْ
فإنْ فعلتَ، أُخيَّ، وربّيْ
فأنتَ في فوزٍ... وأمنٍ... وأمانْ.

---

(١) (هو داء يقطع الأصابع واليد، يقال: جَذِمَت يدُه إذا انقطعت فذهبت) **لسان العرب.**

٥

توطئة

ماذا (وظنَّ أنه الفراق) اسم للكتاب؟

الحمد لله بدءاً ونهاية، والصلاة والسلام على مُحَمَّد رسولِ الحياة والهداية، ومعلِّمِ الناس في دنياهم وأخراهم، وبعد.

(وظنَّ أنّه الفراق) آية من آيات القرآن الكريم، ذكرها الله جل ثناؤه بين حنايا سورة القيامة، لكنّ اختيارها اسماً لهذا الكتاب قد يثير تساؤلات البعض.

كان هذا الكتاب، ولا يزال "مقدمة" لكتابي الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء). وعندما تقرأ، قارئي الكريم، الكتاب "**المقدمة**" الذي بين يديك، تجد الترابط قوياً محكماً بين الاسم والكتاب. وكأنّ كتابيَ هذا عن الموت، وهو مقدمة لكتابي الآخر، تجد أنه لا يصلح له عنواناً إلا قولُه تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ **القيامة.**

محور الكتابين واحد، هو الموت الذي اختطف ولدي البكر الدكتور مؤمن، رحمه الله، وقد خاض غمارَ العلم والمعرفة، وكاد يكمل الأربعين ربيعاً قمرياً. ولا يزال الموت يختطف، أيضاً، كثيراً من الشباب في مقتبل العمر، سواء كانوا على الفراش أو في ساحات الحروب والجهاد، أو دهساً بسيارة، أو في تحطم طائرة أو في غرق باخرة أو.. كما يختطف الموت الأحباب، مِن أم وأب وأهل، وأقرباء وأصدقاء، وأيضاً، رؤساء وملوكاً وأثرياء، وبشراً آخرين يدبّون على الأرض، علماء أو عوامّ، متوسّطي الحال أو فقراء، أصحّاء أو مرضى ... فالموت كتبه الله على جميع

المخلوقات، وهو "منيّتهم" الكامنة في ثنايا التكوين. ولا غرو أن تكون (المنية) تلك ختاماً لحياة الفرد، وقد كان مِنْ مَنيّ بدءاً[1]، وكأنّ كلاً منهما قد اشتُقّ من الآخر. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ القيامة.

وقد حكم الله تعالى، أن تكون للمخلوق نهاية بالموت الذي هو المنيّة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿٥٧﴾﴾ العنكبوت. و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ الرحمن. وقد يحسب البعض الموت حلاً طبيعياً لإنسان عجوز بات لا يستطيع حراكاً، أو لمريض عجز الطب عن مداواته، أو لسبب آخر علمه إلى الله وحده، وله تعالى الحكمةُ أيضاً في موت الشباب والأطفال. فهو الذي أخذ وهو الذي أعطى. وهكذا يصبح الموت مخلوقاً مكروهاً أو زائراً مرغوباً، وفي كلا الحالين، لا بد من التوقف عنده والتأمل في أسراره، وهو الذي ضم النقيضين من وجهة نظر الناس إليه.

فإنْ سعى الإنسان لمعرفة أسرار حياته، وهو موقف واجب ومطلوب، فسعيُه لمعرفة أسرار موته واجب أكبر ومرغوب أكثر. فالموت في حقيقته انتقال الإنسان خاصةً إلى حياة أخرى، حيث يعيش في ألوان وطبائع عالم البرزخ العجيب، لينتقل بعدها إلى حياة أبدية دائمة، ينالُ فيها نتائجَ عمله في الحياة الدنيا، وهي التي خصها الله بالسعي والعمل، جوائزَ مفرحةً لأمر مطلوب ومشكور، أو عواقبَ مؤلمةً شديدة على من فرّط وأجرم وعاند وكفر. وإذ هو في العالم الفاصل بين الدنيا والآخرة، يتكيف في حال الانتظار تلك، فتُفتح له نوافذ يرى منها ما أعدّ له في الآخرة الأبدية، من نتائج كتبها بعمله وسعيه في دنياه، فوجدها في عاليْه الآخريْن كما خطّها، وقد استحق جزاءها هناك: أعباءً وهموماً أو بهجة وأفراحاً، وحلّ به الحبور والسرور أو المتاعب والمعاطب.

❖ ❖

(١) المنية الموت لأنه مقدر علينا، ويقال مَنَى اللهُ له الموت أي قدَّره، لسان العرب لابن منظور، مادة مني ج ١٣ ص ٢ طبعة ثالثة، إصدار دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٩ – ١٩٩٩، ويطلق المني على ماء الرجل وأيضاً على ماء المرأة. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ الطارق. وهذا بلا ريب توافق لافت بين (المني) البداية و(المنية) النهاية، فتأمل.

تترتب على زيارة هذا الزائر المميز (الموت)، مجموعة حقوق له ولمن أماته، إذ تستحق مجموعة إجراءات، يصعب على أهل الميت وأقربائه أو أصدقائه أو مجتمعه أن يُخِلّوا بها، فقد استقرت أحكاماً ثابتة في الأديان والمعتقدات والفلسفات والقوانين والعادات المختلفة. إلا أن الإسلام، الدين الخاتم، لم يهمل شيئاً من غير بيان وتوضيح، وفصّل الأمور جميعاً، وأجاب عن مختلف الأسئلة التي قد تطرأ على العقل الإنساني إزاء هذا المخلوق العجيب: الموت.

وأيّاً يكن أمر الموت، إلا أنّه يبقى - عند الأعمّ الأغلب من الناس - زائراً مكروهاً، ويتمنى المحتضَر لو ينجو من حالة الاحتضار تلك، فيعود إلى الدنيا من جديد. فهناك وقائعُ وحالاتٌ مشاهَدَة، أنّ فلاناً اعتُبر ميتاً وجُهّز للدفن، ثم انتبه عند تغسيله أو تكفينه لدفنه أو.. أو.. فيتمنى لو أنَّ مرضه المميت واحتضارَه حالة عابرة، تنتهي بتجدّد حياته، وعودته إلى أهله وزوجه وأولاده وعمله وماله ومجتمعه، فيؤدي ما عليه من واجبات، ويلتزم منهج الصواب، ويوصي بما شاء، ويحسن وداع من وما أحب.. لكن هيهات هيهات، فعندما ينتهي الأجل يلبي صاحبُه الدعوةَ بارتياح أو غضب، وهو يذكر الله الذي لا إله إلا هو، أو يلجّ في كفر أو فسق، أو يأمر بارتكاب الحرام، كأنْ يوصي فيجور في تركته، حارماً بعض أولاده أو زوجه من إرثهم أو مما ترك!!.

وسواء كان هذا أو ذاك، فإنّ الله سبحانه بيّن أن عديداً من الناس الذين ضلوا الطريق، حال حياتهم، ما إن يحضرهُم الموتُ حتى يتمنوا الحياة من جديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾ المؤمنون.. ذلك أنّ من طبائع البشر تمنّي البقاء والإنساء في الأجل. حتى المؤمنين الصادقين منهم، يتمنون لو يبقون في الحياة أطول زمن ممكن، بظنٍ أنهم يستمرون في حياة الإيمان وتربية الأولاد وفق المنهج الرباني، ودعوة المجتمع إلى الله، حتى إنّ المجاهد في سبيل الله حين يسقط شهيداً، يتمنى أيضاً لو يعود إلى الدنيا فيقاتِل ليُقتل ثانيةً في سبيل الله، لِمَا يراه من نعيم، لم يكن ليقدر على تصوّره قبل مماته، كما وجده وشاهده عياناً.

في سورة القيامة التي ضمّت (وظنّ أنّه الفراق) صور فائقة الدقة، مع سبر عميق لأغوار النفس الإنسانية، خاصة في مرحلة الاحتضار والنزع، إذ كشفت السورة الوضعَ النفسي للمحتضر، وهو "يظن" أنه يودِّع الدنيا وما فيها من مال وأولاد وجاه وأهل ونِعَم ورغبات... وقد بات في المرحلة الأخيرة من الحياة. فهو كاد أن يُسْلم الروح، وكاد يرى ما لا يراه المحيطون به، فيتأكد إذ ذاك أنه (الفراق) الصعب، وأنه قد بات في غمرة السكرات، وأنه سيجوز عتبة الموت المحتوم في دقائق أو ساعات أو أيام ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ القيامة. ولكي نعيش في رحاب هذه الآيات وإيحاءاتها، لا بد أن نستشعر ظلالها، وندرك معانيها ومراميها.

❖ ❖

بداءة لا بد من تحديد الآتي:

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع ترقوة، وهي عظْمَةٌ في أعلى الصدر وتحت الرأس، عن يمين وشمال الحلقوم، ولكل واحد من البشر ترقوتان. ومرحلة بلوغ الروح التراقيَ كناية عن أنها دخلت مرحلة الحشرجة، وهي آخر مرحلة في انفصال الروح عن الجسد، بعد أن خرجت من سائر أجزاء البدن وأطرافه، وهو ما يعرف بالإشفاء. وقد أحسن حاتم الطائي إذ قال لزوجته ماويّة:

أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَىإِذَا حَشْرَجتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

﴿رَاقٍ﴾: من الرُقى، ويرقى بمعنيين: أولهما من الرُقية، أي الطبيب يداوي بالدواء، أو بالرقية الشرعية.أما من هو القائل في قوله ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧﴾ فقد يكون أهله أو المحيطون به، أما ثانيهما فهو الارتقاء أي الارتفاع، وفي هذه الحال يكون المتكلم الملائكة الذين يحضرونه، يقول بعضهم لبعض: منْ يرقى بروحه إذا خرجت فيصعد بها: ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .!!؟

﴿وَظَنَّ﴾: الظنّ كما جاء في لسان العرب، شك ويقين، إلا أنّه في الآية ليس بيقينِ عِيانٍ، إنما هو يقينُ تدبُّر. فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا العلم. قال المفسرون على ما ذكره الخازن في تفسيره: (المراد أنه يقين الدنيا، وإنما

سُمّي اليقين هنا بالظن، لأنّ الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فإنّه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه فيها، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة).

إن استخدام فعل (الظن) هنا أبلغ تعبيراً وأصدق توصيفاً لحال الاحتضار من فعل (اليقين)، لأن المحتضر لا يعلم متى تخرج روحه، وقد يستمر في الحشرجة أياماً، وقد تنتهي في لحظة واحدة، فيبقى الظن أقرب معنى للحقيقة.

﴿ٱلْفِرَاقُ﴾: من فرقَ، والفرق خلاف الجمع، وهو تفريق بين الشيئين أو الفصل بينهما. وفارق الشيء مفارقةً بايَنَهُ. والاسم الفُرقة، وتفارق القوم فارق بعضهم بعضاً. والفراق هنا الموت، وهو انسلاخ الروح عن الجسد.

﴿ٱلسَّاقُ﴾: هي الساق المعروفة، فإذا التفَّتِ الساقان إحداهما على الأخرى صارتا واحدة، ويعني ذلك أن ساقيْهِ يبستا فكأنهما واحدة، وهذا يعني حتمية تحقق الموت. أما في حال الحياة فكلٌ تتحرك بمفردها، .وقد ورد في تفسير الخازن، أن ابن عباس قال عن الالتفاف: إنّه جمْعُ (أمر الدنيا بأمر الآخرة، فكان [أي الميت] في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة).وقيل في الساق: التفت (الشدة بالشدة، يعني شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكُرْهه)، وقيل: (الناس يجهِّزون جسدَه والملائكة يجهِّزون روحَه). وفي الخبر (إن العبد ليعالجُ كُرَبَ الموت وسكراتِه، وإنّ مفاصله لتُسَلِّم بعضُها على بعض تقول: (السَّلام عليكِ فارقْتِنِي وأفارقُكِ إلى يوم القيامة) ذكره البقاعي في نظم الدر.

﴿ٱلْمَسَاقُ﴾: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يُساقون إليه بعد الدنيا إلى البرزخ، فيكونون فيه ما شاء الله، ثم يساقون إلى يوم الحساب. وهكذا فإن السّوق إلى الله يوجب أن يكون الميت، في برزخه، حياً بمعنى من معاني الحياة، وأيضاً عند بعثه وخروجه من البرزخ ليعيش الحياة الأخيرة، في درجات من النعيم أو العذاب، رسم هو مفرداتها بريشة أعماله إذ كان في الدنيا.

وما أشبه آيات "القيامة" بآيات "ق"، فقد قال الله تعالى في الثانية:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ .

قال الرازي في تفسيره: (أي شدته التي تُذهب العقول وتُذهل الفطن، فكأنّ شدة الموت تحضر الميت، وما مِنْ أحد إلا وهو في تلك الحالة يُظهر الإيمان، لكنه لا يُقبل إلا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب. و[ذلك] (إشارة إلى الموت، ويُحتمل أن يكون إشارة إلى الحق، وحاد عن الطريق أي مال عنه، وهو خطاب عام مع [كل] سامع). وتُعتبر سكرةُ الموت النفخة الأولى، أما النفخة الثانية فهي الإعادة والإحياء، ويكون ذلك في يوم الوعيد، وزمانه عند الحشر والمجازاة).

ويتابع الرازي: (والسائق هو الذي يسوقه إلى الموقف [أي موقف الحساب] ومنه إلى مقعده [في الجنة أو النار]، والشهيد هو الكاتب، والسائق لازمٌ للبرّ والفاجر، أما البَرُّ فيُساق إلى الجنة، وأما الفاجر فإلى النار. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۝٧١﴾ وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۝٧٣﴾ **الزمر.**

وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ ق، قال الرازي: (الخطاب عام. أما الكافر فمعلومٌ دخوله في هذا الحكم، وأما المؤمن فإنه يزداد علماً، ويظهر له ما كان مخفياً عنه، ويرى علمه يقيناً رأْيَ المعتبَر يقيناً، والغفلة شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه، لأن الشاكّ يلتبس الأمر عليه، والغافل يكون الأمر بالكلية محجوباً قلبُه عنه وهو الغلف. وقد كشف الله سبحانه عنه غطاءه. أي أزلنا عنك غفلتك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ وكان مِنْ قبلُ كليلاً) .

❖ ❖

ولا ريب أنّ الإحاطة بقول الله تعالى، من كل جانب، مستحيلة، فالقرآن كلام الخالق، لا تحيط به المخلوقات إلا ما شاء وأذن به، وهو كتاب لا تنفد عجائبه كما قال النبي r ، وكلما أنعم الإنسانُ النظرَ بعقله وروحه مزوداً بالتقوى والبيان، وجد حلاوة التسليم لأمر الله، كما وجد كنوزاً لم تظهر له من قبل.

ولعلَّ حرْفي (ظنّ) يدوران بين الشك واليقين، والمحتضَر متردد بينهما معاً. فهو إذ يتيقن أنّ الموت إذا ما أدركه يعني أنه فارق الدنيا وما فيها، فيعزّ عليه الأمر، فيلوذُ بالشك، ويُمنّي نفسه أنّه قد ينجو ويبتعد عن تجرع كأس الفراق المرّ. ثم إذا ما تذكر أن فراق الأهل والأحباب فراق مؤقت، وهو مهما طال فسينتهي إلى لقاء كريم في كنف الله سبحانه، في حياتيْه القادمتيْن: البرزخ والآخرة، حيث لا فراق في الآخرة، وهي الآخرة الكائنة لا محالة، وأن موته ليس إلا نوماً ينتقل فيه إلى وسط جديد، يلتقي فيه بأمه وأبيه وأبنائه إن سبقوه، وأجداده وآبائهم، وعلماء الأمة والأنبياء، وسيد الخلق محمد r والصحابة والمجاهدين... فيترجح عنده اليقين، بأن الفراق اليوم مؤقت محدود. فعمره في الدنيا مهما بلغ فليس إلا بضع دقائق في ميزان الله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ الحج.، وبعد دقائقه هذه، والتي لن تستمر طويلاً تنتهي أيضاً دقائق غيره، ممن يكنّ لهم الاحترام والحب، فيُلَمُّ الشمل من جديد، وقد يكون هو في استقبالهم هناك في العالم البرزخي العجيب.

وعلى ما تقدم، فإنّ المؤمن يحرص أن يكون أهله وأصدقاؤه ومجتمعه على منهج الإيمان والعمل الصالح، ثم إن الله سبحانه يُلحق الذرية بأصولها وفروعها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ الطور.

إنّ المكوث في الدنيا مهما طال زمنه فهو يسيرٌ بالنسبة لما في البرزخ من إقامة. وكلا الحياتين الدنيوية والبرزخية لا تُعدُّ شيئاً كبيراً بالنسبة للأبدية الكاملة ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ المؤمنون.

وهكذا، فإنّ الاحتضار يُخْرِجُ ـ في نهايته ـ صاحبَه إلى أحضان البرزخ العجيب، وهناك يعيش في فرحٍ وحبورٍ ما كان في دنياه طيباً. والعكس أيضاً صحيح، مع الإشارة إلى أنَّ العالَمَيْن الدنيا والبرزخ متجاوران، ولكن لا اتصال مباشراً بين الأموات والأحياء، إلا عن طريق الدعاء والصدقات. بينما التواصل في كل من العالمين ممكن ومقدور.

❖ ❖ ❖

بكلمة واحدة، الكافر أو غير المؤمن عند الموت، **ظنه يقين** بأنّ فراق الدنيا نهائي وأخير، وهو إن رحل لن يعود إلى حياة، وعلى ذلك يأسف ويحزن، فهو من القائلين: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ ﴿٢٤﴾﴾ **الجاثية.**

بينما المؤمن الواثق بربه، متيقن أن الموت فراق مؤقت، أنه سينتقل إلى عالم يحيا فيه حياة الانتظار، مع رؤية معالم العالم الآخر الأبدي، ترقباً للقيامة والبعث والحساب، وإعلان النتائج الحاسمة لحياة أبدية ولقاء دائم لا ينقطع.

إذاً، فالظن عند الكافر يقين الفراق، وعند المؤمن يقين اللقاء، وظن الأول يقين العدم، وظن الثاني يقين الحياة. وهكذا اختلفا. وبين الفراق واللقاء بون شاسع كما بين العدم والشك. والمؤمن يجد نفسه مرتاحاً مطمئناً وإنْ غادر الدنيا، لأنّ المساق إلى الله، فمرجعه ومآله إلى العفوّ الغفار، يزين ظنَّه اليقينيَّ قولُ الملائكة الكرام ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ **الأعراف.** والكافر، بظنه الكاذب، عاش في الدنيا ومات مكذباً بالعالَميْن، ثم انتقل إلى أحدهما بموته، فوجد نفسه في عالمٍ صعب رهيب يلقى فيه الأهوال، ولا مهرب منه، ويرى فيه ما ينتظره في عالم الآخرة الأبدي، ولا مناص أيضاً ولا مفر. فالله سبحانه لم يخلق الناس عبثاً، ولن يتركهم سُدى، وإنما خلقهم لغرض سامٍ ولمصير محتوم، فكان، والأمر كذلك، واجباً تصنيفُ البشر تبعاً للإيمان والأعمال المقبولة.

إنّ دراسة هذا المخلوق العجيب (الموت)، وإنْ كانت النظرات فيه وإليه تتباين بين معتقد ومتيقّن، وبين شاكٍّ ورافض، إلا أنه يبقى أصلاً ثابتاً مصاحباً للبشرية ما بقيت، يراه كلٌ منّا ويلمسه بفقد عزيز، سواء آمن بحياةٍ بعد الموت أم لم يؤمن.

❖ ❖

من أجل ذلك كان هذا الكتاب (المقدمة) يحمل الآية ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ عنواناً له واسماً.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وأنت خير الراحمين. والحمد لله رب العالمين.

محمد علي صناوي

من معاني الموت

وللموت معانٍ منها:

- الموتُ خَلْقٌ من خَلْقِ اللّه، و"هو" ضد الحياة.
- ويطلقُ أيضاً على **السكون**، يقال ماتتِ الريح أي سكنتْ. وسمي **النوم** موتاً لأنه يزول معه الفعل والحركة تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً . وقد قيل: المنام الموت الخفيف، والموت النوم الثقيل .
- والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة :

ـ منها ما هو بإزاء **القوة النامية** في الحيوان والنبات، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴿٥٠﴾﴾ **الروم** .

ـ ومنها زوال **القوة الحسية** ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴿٢٣﴾﴾ **مريم**

ـ ومنها زوال **القوة العاملة** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴿١٢٢﴾﴾ **الأنعام** .

ـ ومنها **الحزن والخوف** المكدر للحياة كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴿١٧﴾﴾ **إبراهيم**.

ـ ومنها **المنام** كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴿٤٢﴾﴾ **الزمر**.

وقد يستعار الموت **للأحوال الشاقة كالفقر** والذل والسؤال والهرم والمعصية وغير ذلك.

- **ورجلٌ ميْت أي الذي مات، والميِّت والمائت الذي لم يمت بعد.**
- واستمات الرجل ذهب في طلب الشيء كل مذْهَب. ومنه **المستميت الشجاع** الطالب للموت، المستقتل الذي لا يبالي في الحرب.

وفي **الاصطلاح**: **الموت مفارقة الروح للجسد**[1]، وتترتب عليه آثار خاصة وأحكام.

---

(١) الموسوعة الفقهية ص ٣٥٣ جزء ٣٦ صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / الكويت.

الفصل الأول

الموت
مخلوق مكروه أو وافد مرغوب!!؟

من يُخْلَق يمتْ

الموت نهاية رحلة كل فرد خُلق، فمن يُخْلق يمت، الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات وما فوقها، والإنسان والحيوان والأسماك والطيور والأشجار والأعشاب والجن والملائكة حتى الماء والحجر، والذّرة وما هو أدنى منها، كل ذلك إلى زوال وانحلال، بعد حياةٍ تبلغ عند بعض المخلوقات والمكونات بضعَ ساعات أو أياماً، أو سنواتٍ أو دهوراً طويلة. فكُرَيّات الدم في جسم الإنسان البشري أو الكائن الحيواني، مثلاً، تعيش لعمر محدود ثم تموت، ويستمر الجسم - الذي هي فيه - بالحياة، حيث تتخلّق كريات جديدة مماثلة، بينما تعيش بعض المخلوقات الأخرى كالسموات وما فيها من نجوم، مليارات السنين والأيام، ثم مآلها بعد ذلك إلى النهاية المحتومة. فالسماء تتشقق، والكواكب والشموس والنجوم تتبعثر، والبحار تتفجر، والإنس والجنّ والملائكة وسائر الخلق يموتون، ثم لا يبقى إلا الواحد الأحد الذي خلق الموت والحياة، ووضع أنظمتهما وسننهما في كل الميادين، وعلى كل الصعد. وسبب ذلك، أنّ في كل كائن سبباً قدّره الله فيه ليصل به إلى نهايته. فالإنسان الحي، مثلا، يمتلك في جسده جرثومة فنائه، وما إن يمُت المخلوق الحي، حتى تتنادى إنزيمات وموادُّ سامة موجودة فيه، إلى العمل

السريع لتفكيك الجسد وتحليله إلى ترابٍ وهواء[1].أما المجرّات فتسير، بتبرُّدها، نحو الاندثار الكامل. وهكذا، فإنّنا نسمع اليوم، من علماء الكون، أنّ كوكباً انطفأت شعلته فراح يسبح في جو مجرَّته متفتتاً، وأن الشمس الساطعة والمجرات الهائلة في حركة مستمرة نحو البرودة والتفكك والزوال[2]. وقد ارتبط هذا الكون العجيب بالإنسان خاصة، فلا معنى له من دونه، وقد سخره الله تبارك وتعالى لهذا العبد المخلوق العاقل، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ الجاثية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾ النحل . فإن انتهى دور الإنسان انتهى معه دور الكون، فوجب عندئذ الانهيار الشامل لكل موجود إلا الله ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾ الرحمن. وتلك سنن أوجدها الله منذ أن خلق كافة المخلوقات ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢ ﴾ الأحزاب. لكن، أليس بعد الموت الشامل

---

(١) كتب ولدي د. مؤمن . رحمه الله . في مقال له بعنوان "وهب الأعضاء" ـ أثبتناه في باب مقالاته في كتابي الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء) ـ : (ولستُ أول من قال إن الموت يلاقي كل الأحياء، وأنّ هذا الجسد الإنساني البديع في صنعه سيتحول إلى كومة من تراب وهواء، وسوف تتراكض عليه الدِّيدان في أعماق الأرض أو الأسماك في أعماق البحر، فتنهشه نهشاً. ولن أكشفَ جديداً إذا قلتُ إننا نحمل في أجسادنا انزيمات ومواد سامة تفكك الجسد، ينادي بعضها بعضاً للعمل السريع بمجرد أن تأتيها إشارة من هذا الجسد بأنه انتهى). راجع أيضاً فقرة مليارات اليرقات يأكلن الجسد في ص ١٦٩ من هذا الكتاب.

(٢) كشف العلم حديثاً أنّ لكل نجم دورة حياتية وأطواراً يمر بها: ولادة، نمواً ونضوجاً، واحتضاراً وفناء. فالنجوم وإنْ بقيت ملايين السنين تشع وترسل إلينا ضوءها، إلا أنها تُطمَس في نهاية دورتها، ويندرس أثرها وتموت عندما تبلغ أجلها المحدد لها، وتلك حقيقة (لم تعرف إلا في القرن العشرين) في حين أنّ القرآن الكريم أخبر بسقوط وموت النجوم فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ﴾ النجم. وقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ ﴾ المرسلات. و ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ ﴾ و﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ ﴾ التكوير. ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ٢٩ ﴾ لقمان. وجاء في لسان العرب عن فعل (هوى: سقط ومات. واللافت في القسم أن الله سبحانه يُقْسم بموت النجوم وانكدارها. وموتها هذا إنما يدل على حقيقة كونية كانت مجهولة في وقت التنزيل. وإلى كون المرسل إليه محمد الإنسان صادقاً فيما ينقل عن ربه. راجع كتاب (من علم الفلك القرآني) للدكتور عدنان الشريف الطبعة الثانية ١٩٩٣، دار العلم للملايين، بيروت.

من حياة؟ والجواب: بلى هناك الحياة الأبدية الدائمة، لا موت فيها ولا نهاية، وفيها من الأنظمة والصفات والطبائع والقدرات، ما يجعل تلك الحياة مختلفة في الشكل والمضمون عن كل ما رأى الإنسان أو شاهد أو عَلِم.

❖ ❖ ❖

الموت قبل الحياة!!!

سأل سائل عن سبب ذكره تعالى الموت قبل الحياة في سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ وفي سور أخرى، في حين أنّ الحياة تسبق الموت كما هو مشاهد.

قلت: إنّ الله سبحانه هو المحيي المميت، وهو الخالق المبدع، أوجد بعد الحياة موتاً وبعد الموت حياة... فجاءت الآية بذكر الموت أولاً متقدِّماً على ذكر الحياة. ذلك أنّ الموت لا يكون إلا بعد حياة، وبمجرد ذكر الموت، يعني، حكماً، وجود حياة لمن مات قبل موته، أي إنّ الله، سبحانه، خلق الموت والحياة، وخلق حياةً لا موت بعدها، بل ثمة خلود سرمدي أبدي. ولا يكون هذا إلا بعد البعث من القبور والنشور إلى يوم الحساب، ثم جنات النعيم أبداً أو عذاب الجحيم أبداً، وهكذا، فقول الله U: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ يعني أنّ الله سبحانه أشار إلى الحياة الدنيا بالموت؛ فهي حياة وموت، وكنّى عنهما بأحدهما وهو الموت، بسبب أن الحياة للمخلوق مؤقتة تختم بالموت، بينما الحياة الآخرة هي الحياة الدائمة التي لا موت ينهيها، فكان لفظ الحياة وصفاً منفرداً لذلك الخَلْق الآخر الأبدي.

ولعل ما ورد في الآية من سورة الروم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ سرٌّ لكلمة الموت بخلاف آية تبارك، إذ أظهرت آية الروم ارتباط فريق من الناس ارتباطاً وثيقاً بالحياة الدنيا، وكشفت غفلتهم عن حياة الآخرة وعن الموت ضمناً، وأسمت ذاك الارتباط "بالظاهر"، الذي من آثاره الغفلة التي تُنسي الناس حقائق الوجود، وتحجب عنهم حقيقة كلٍ من الحياتين، وأنّ

الموت بالتالي هو السر الغامض الذي يعطي الدنيا صفتها المؤقتة، ويكشف معنى العبور لآخرةٍ دائمة. ولعل فيما نقله الأصمعي عن الخنساء، المرأة العربية الشهيرة ببكائها على أخيها سنوات طوالاً، عبرَةً وأيّة عبرةٍ لمن أراد أن يدرك كُنهَ الظاهر وحقيقة الباطن!! يقول **الأصمعي**[1]: "نظر عُمر إلى الخنساء وبها ندوب في وجهها فقال لها: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على صخر، فقال لها: أخوك في النار، قالت ذلك أطْوَلُ لحزني، إني كنت أبكي عليه من الثأر وأنا اليوم أبكي عليه من النار"[2].

❖ ❖ ❖

(١) هو **أبو سعيد عبد الملك**، ولد في حي بني أصمع بالبصرة عام ١٢٣ هـ، وفيها نشأ، ثم قدم بغداد في خلافة هارون الرشيد، وكان الرشيد يسميه "شيطان الشعر" مداعبة له. قال الأخفش: (ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي) وقال الشافعي عنه: (ما عبّر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي)، مات في خلافة المأمون في البصرة عام ٢١٦ هـ .

(٢) **سلوة الحزين في فقد البنين**، ص ١٠٥ لمؤلفه ابن أبي حجلة التلمساني (٧٢٥ هـ . ٧٧٦ هـ) أي إنّ عمره لم يتجاوز ٥١ عاماً، حقق كتاب سلوة الحزين وقدم له الدكتور مخيمر صالح من جامعة اليرموك في الأردن . دار الفيحاء. وابن حجلة صاحب الكتاب حنفي المذهب والمعتقد كما ذُكِر في شذرات الذهب، توفي إثر مرض بالطاعون نزل به، وكان . رحمه الله . قد ترك مؤلفات تمتاز بالطرافة والجاذبية. وقد سلمني نسخته المصورة ابن أختي الأستاذ الشيخ صلاح الدين ميقاتي رعاه الله، وقد كان بجانبي أيام الحزن الأولى، ووقف على قبر مؤمن . رحمه الله . ساعة دفنه، وبعده، وهو يتلو عليه ما ورد في السنة ودعا له بدعاء عريض جزاه الله كل خير.

الفصل الثاني:

لولا الموت

كيف تكون الحياة؟ وإبليس تمناها لنفسه بلا موت...!!

نعجز أن نتصور، ولو للحظة واحدة، كيف تكون أرضنا هذه، لو لم يكنِ الموتُ نهايةً لحياة كائناتها الحية؟ هل لنا أن نتخيل حجم تلك الكائنات وأعدادها، وهل يكون تناسلٌ ما مع بقاء الأصل والفرع وفرع الفرع، إلى ما شاء الله؟ ثم كيف يعيش هؤلاء على بَرِّ الأرض وجبالها، في سمائها وبحرها؟.كيف يستقرون عليها، لا بل كيف نومهم وسكناهم؟ وقد غدا عددهم أكبر أو أكثر من عدد رملها وحصاها... ؟! وهل تبقى البحار مَسْبحاً لكائناتٍ حية وقد فاقت ذرات مائها؟ وكيف يصير جو السماء فوق الأرض، هل سيبقى جواً مكشوفاً أو مغطىً بأنواع الطيور الأليفة والنافعة والضارة؟ وكيف ستكون الحيوانات على الأرض، الداجنة منها والمتوحشة، والزواحف والقوارض إلخ... وكيف حال الشجر والنبات والغابات والحشائش؟ هل ستغطي مساحات الأرض برُمّتها، أو أنها لن تجد مكاناً تنبت فيه؟!، فالأرض كلها بيابستها وأمكنة بحارها وأنهارها لن تكفيها، فكيف بسائر الكائنات..؟

ثم، وعلى افتراض ذلك، هل تأكل تلك الكائنات ؟ ومِمَّ؟ ومِمَّ تشرب؟ والموتُ الذي يُنهي حياة الحيوان سواء بالذبح أو الصيد أو بانتهاء الأجل، وهو الذي يقضي على حياة الزروع بقطع الشجر والنبات والحشائش وسوى ذلك، هذا الموت لن يكون أبداً، فكل شيء، بموجب الافتراض، باقٍ بمجرد أنه خُلِق..؟؟!!

وعلى افتراض، أنّ هذه المخاليق لا تأكل ولا تشرب،وما كان الماء والطعام إلا لأجهزة جسد قادرةٍ وحدها على التعامل معهما، فإن لم تكن أجهزة الجسد المعروفة موجودة، فما معنى وجود الماء والطعام؟ الجهاز الهضمي مثلاً وحده

القادر، وبدقة متناهية، على التعامل مع الماء والطعام، فيأخذ ما فيهما من منافع ويقوم بضخها إلى الدم، الذي يضخه القلب بدوره ، بعد تعامله مع أوكسجين الرئتين، إلى الدماغ والخلايا والعظام والعضلات والأعصاب والجلد، بينما تقوم الأمعاء الغليظة والجهاز البولي بتصريف الفضلات وما يضر بقاؤه في الجسد. وهكذا يحتاج الكائن إلى المخلوقيْن: الماء والغذاء، ومن دونهما لا حياة. فقد قال الله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴿٣٠﴾﴾ الأنبياء. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ الأنبياء، وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ عبس .

فلو لم يكن الماء والطعام موجودين أو واجبَي الوجود، لما كان للجسد حاجة لأجهزة التعامل معهما، وبالتالي، لكان المخلوق مختلفاً عن كائناتنا الحية المعروفة، فهذه تحتاج إلى الماء والطعام، وبالتالي، إلى أجهزة خاصة في الجسد للتعامل معهما، والإفادة منهما، ولطرد فضلاتهما. ولن يحصل كائن على صفة "حي" حتى يملك الأجهزة الخاصة في جسده للتعامل مع هذين النوعين بامتياز.

لكن، وعلى افتراض أنّ مثلَ ذلك يمكن أن يكون، أيُتصوّر أن لا تكون لهذه "الكائنات المحتملة" نهاية؟ فالكون وما فيه من نجوم وكواكب ومخلوقات، له نهاية محتومة، والمخلوقات الحية، بالتالي، لها نهاية، وقد قدّر الله سبحانه في مخلوقاته الموت. فمن المؤكد إذاً، أنّ نهايةً ما ستكون لتلك الحياة (المفترضة)، وهي، وإنْ كانت لا تَعرف الموت المتدرج لمخلوقاتها، (وهو جدل افتراضي) إلا أنّ موتاً جماعياً، ولمرة واحدة، سيكون طبيعياً لها ولا غير ذلك!!! **وهنا يأتي السؤال**: هل هذا أمر حسن يقبله العقل، أو هل يُسلك في وظائف المخلوقات وفي ممارستها العملية المعروفة أيضاً؟ ثم هل يُعطي ذلك كله معنى ما لتلك "الحياة العجيبة"؟.

لا شك أنّ الحياة الدنيا لن تستقيم مع التصورات السابق ذكرها. فلا يصح للإنسان والحيوان والنبات أن يعيشوا على هذه الأرض، إلا مع الموت المتدرج، كما

هو قائم، حيث تموت أفواج وتأتي أفواج، ثم تموت ثم يأتي سواها إلى أن تنتهي تلك "العاجلة" التي اسمها الدنيا، ولن يبقى في الوجود إلا الخالق البارئ سبحانه.

والدنيا، كما نعرفها بكل ما فيها وبقوانينها المختلفة وسننها التي وجدت فيها، كانت كذلك لا لتبقى وتدوم، أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له، وهو الإنسان، بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان، فتصل بالإنسان إلى الآخرة التي هي دار الخلود. فهي معْبر مؤقت إلى مقر دائم، وهي الجسر الموصول بالضفة الأخرى، حيث يكون الخلود، الذي هو الأصل للوجود الإنساني، والملائكي كما سنبين، وما كان المؤقت إلا ليدل على الديمومة الكبرى في الخلود الأبدي.

وقد قدر بعض الناس أنّ محمداً r لن يموت لأنه خاتم الرسل، بينما وعدَ أعداؤه أنفسهم أنّ محمداً سيموت فيشمتون به؛ فهو بشر وليس بملاك، والبشر يموتون، وعندئذٍ ينتهون منه ومن نبوته "المُدّعاة" بظنهم، فأنزل الله سبحانه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء. والآية وإنْ كانت تقرر السُّنَّة الأزلية في الدنيا "الموت"، إلا أنها أيضاً تَرُدُّ على كل من ظن أنّ النبي محمداً r لا يموت، ومَنْ منّى نفسه بالشماتة إذا مات، فجاء الرد أبلغ ما يكون ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

وعطفاً على معنى عدم الخلود في الدنيا لأي مخلوق، جاءت الآية الأخرى التابعة للأولى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء. لتقرر أنّ النفس تذوق الموت مرة واحدة، فإنْ حضرها ماتت. وسيحضر كل نفس مهما عاشت وأينما كانت. وجميلٌ قول النبي r : "عشْ ما شئتَ فإنَّك ميت" الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد t .وقد قال أيضاً: "مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ الْيَوْمَ [أي تعيش] تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ" رواه مسلم عن جابر بن عبد الله t . يعني أن كل إنسان كان يعيش في اليوم الذي حدّث به النبي r إلا مات بعد زمن مقدَّر له خلال مائة السنة القادمة.

والمقصود من هذا كله، أنّ الموت محتوم لا محالة، وأن الخلود منفيٌّ بالكامل عن الدنيا وعن أيٍّ من مخلوقاتها.

إن الموت يكشف محدودية المخلوق، وأنّه خُلِقَ من ضعف؛ ولذلك فلن يستمر هذا "الضعيف" إلا لفترةٍ ما، وضمن بيئة متوازنة، تتناسب طرداً وعكساً مع طبيعته التي خُلق منها، وضمن جيناته وخلاياه ورموزهما المنتظمة في حلقات مدهشة[1]، كما يكشف إحدى ظواهر تباين الخالق وتميّزه عن مخلوقاته. فلو كان الإنسان خالداً في الدنيا لشابَهَ خالقَه في خلوده، أمّا وقد أماته في الدنيا فإذاً هو ضعيف فانٍ، وإذ يُخلَّد في الآخرة فبأمر الله تعالى، ولا يستطيع أن يدَّعي خلوداً لنفسه لأنه أُميتَ من قبل. فالمخلوقات لن تتمتع بالخلود في الدنيا ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٣٤﴾ الأنبياء.

من جهة أخرى، لا يقال في عيسى u إنه هو أيضاً حيٌّ عند ربه، إذ رفعه الله بعد محاولة اليهود إعدامه صلبا. فهو وإن كان حياً، عند من يعتبره حياً، إلا أنه أيضاً سيموت في لحظة أرادها الله له مغيبة عنا. ومصداق ذلك ما أخبرنا الله به عن عيسى u : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ مريم .فضلاً عن أن عيسى u لم يتمنَّ حياة دائمة لعلمه بالموت المحتوم، فلا خلود أبدا لأي مخلوق، فالموت هو جواز المرور إلى الخلود الأبدي، سواء في الجنة أو في الجحيم. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ العنكبوت. وبعد الموت والحساب ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ الشورى. فلا يحلُمَنَّ أحد بخلود خارجهما.

ومن جهة ثالثة يمكن القول، إنّه لمّا كان ردُّ الأمانات إلى أهلها واجباً لا ينازع به عاقل، وكان الإنسان ـ بتكوينه من تراب الأرض ـ أمانةً مستردة،

---

(١) راجع هامش ص ٣٨ عن الخلية وشيفرتها وموتها. وما أثبتناه في ص ١٦٩ . ١٧٠ بعنوان (مليارات اليرقات يأكلن الجسد) واستثناء أجساد الأنبياء والشهداء من التحلل.

حكم الله تعالى أن يعيد للأرض أمانتها. ثم تكون مرحلةٌ آتية تنتهي فيها مهمة الأرض، فيحرّرها تعالى من أمواتها قبل تفجُّرها وتبدُّدها، فيبعث الخلائق للحساب، ثم ينقلهم إلى حيث الأبدية نعيماً كانت أو عذاباً. فالموت، إذاً، واجب في كونه وسيلة وحيدة لإعادة الأمانة إلى أهلها، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ !!

❖ ❖ ❖

إبليس رغب بحياة دون موت !!!

الرغبة بعدم الموت أمنية تمنَّاها مخلوق واحد في هذا الكون، هو إبليس الذي أبى أن يُذْعن لأمر الله بالسجود، تكريماً لآدم المخلوق من طين، بينما هو قد خُلق من مارج من نار!!

ظنّ إبليس أنّ النار أشرف من التراب، فأعلن العصيان والامتناع عن تنفيذ أمر الله. وبذلك يكون إبليس أول من استخدم القياس في مواجهة النص، وهو ما لا يصح، فكانت العقوبة بالخروج من الجنة مع اللعن المستمر، لكنّها لم تكن للتنفيذ الفوري[1] لحكمة اقتضتها المشيئة الإلهية، إزاء تعهده بإغواء آدم وزوجه، ومن خلْفِهما ذرّيتهما، وهذا التعهد يستلزم إنظاره وإبقاءه في الحياة طالما ثمة إنسان حيّ، لذلك قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الحجر، قاصداً بذلك تجنب الموت، لأن البعث لا موت بعده؛ فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم

(١) صدر الأمر الإلهي لإبليس بالخروج من الجنة بعد رفض تنفيذ أمر ربه بالسجود لآدم، ومقتضى ذلك إخراجه منها فوراً، لكننا نجد إبليس في الجنة يقوم بإغواء آدم وحواء والوسوسة لهما بالأكل من الشجرة، ضمن أكذوبة اخترعها أنهما ما نهاهما الله سبحانه عنها إلا لمنعهما من الخلود، فهي شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى، ويعني ذلك أن إبليس لم يخرج ولم يُخرج بعد العصيان مباشرة، وإنما استمر بالبقاء حيث كان آدم وزوجه، ومن وحي الآية ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ الحجر. يُفهم إرجاء التنفيذ، ليكون إبليس بالقرب من آدم وزوجه فتتيسر له فتنتهما إن لم يحذرا، وكان الحريّ بآدم التيقظ والوعي لأمر ربه، إلا أنّه نسي ولم يملك العزم الواجب، فتمكن منه إبليس فغوى، فتأمل، والله أعلم.

الوقت المعلوم، وهو يوم موت الخلائق جميعاً، فيموت إبليس ثم يبعث كغيره من الخلق. قال الإمام الرازي: (وغرضه ألا يموت، لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة [فلا يموت بعدها] فبعد القيامة لا يموت أحد، [فيعني هذا] أن لا يموت [إبليس] البتة) ا.هـ.

وفي الحقيقة أيضاً، كان امتناع إبليس عن السجود يخفي مسألة أخرى، هي أن السجود لآدم اعتراف بفضله وبخصوصيته بالخير دون الشر. وكلاهما ـ الخير والشر ـ مما يحوزه إبليس والجنُّ عامة، باعتبارهم مكلَّفين. فالسجود إذاً تسليم لرفعة آدم وقبول بدوره، وخضوع له، ولمنحه أسباب الخير والفوز، ومنعه عن دواعي الشر والفشل. وذلك كله مما عزَّ على إبليس التسليم به، ولو أدى إلى عصيان ربه ودخوله في مجازفة الحوار واختلاق الأعذار، فادَّعى بأفضليته على آدم بزعمه أن النار أفضل من التراب، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الحجر.

جاء هذا الحدث الصعب، وما فيه من حوار دقيق، مع بدء خلق الإنسان الأول، مما يشير إلى قِدم الصراع الخطر بين إبليس والبشر. ذلك أنه أدرك، عندما أمره ربه بالسجود لآدم، أنّ لهذا المخلوق الجديد، الذي لا يشبه الملائكة، ولا الجن، ولا أيّاً من مخلوقات الله في تكوينه، منزلةً عظيمة، وأنّ سلالةً من نوع جديد سيناط بها محور الحياة في الكون، وسيُنْتَزع هذا المحور من الجن المخلوقين قبلاً، فدفعه هذا كله إلى عصيان ربه فرفض السجود وأبى.

وإذ تلقّى إبليس عقوبة عصيانه، بإسقاط الرحمة عنه وإنزال اللعنة الدائمة عليه إلى يوم الدين، طلب من ربه أن يبقيه حياً إلى يوم البعث والنشور، وظن إبليس أنّه، بذلك، سوف ينتقم من هذا الذي كُرِّم عليه، وبسببه أذلّ وأوقع نفسه بالمعصية. وظن أيضاً أنّه بطلبه أن يبقى حياً سوف يفرُّ من العذاب الأخير،وهو العذاب الآتي بعد الموت، وبعد بعث الموتى وقيامهم للحساب. وهو ما لا يسري عليه، باعتباره ـ في ظنه ـ أنه يبقى حياً ولا يموت. وهو أمر مستحيل تحقيقه لكونه قد عصى الله، ولأن ذلك يجعله مشابهاً لربه بالحياة دون الموت، خلافاً للقواعد الإلهية القاضية بأن لا يشبهه أحد؛ فليس كمثله شيء، وكل من خُلِق مات، وكل من مات بعث، وكل من عصى حوسب، وكل من أطاع أُكرم. وتلك قواعد لا استثناءات فيها.

غير أنّ الله تعالى، وهو عالم السر وأخفى، علم ما يجول في نفس إبليس، فمنحه ما يُعتبَر، في حقيقته، عذاباً لا تكريماً؛ فكان أن ربط الله سبحانه حياة إبليس بنهاية حياة البشر على الأرض، ومنَعه عن مطلوبه الأخير المرغوب فيه، وقال له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝﴾. و(المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى حين تموت كل الخلائق،وإنما سمي بذلك لأن من المعلوم أن تموت كل الخلائق فيه)[1].أي من كان حياً منهم قبل النفخة الأولى، ثم تموت الملائكة جميعاً ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ الرحمن.

إذاً، نال إبليس من ربه وعداً بحياة مديدة تسير مع حياة البشر، فهو حيّ ما بقوا، فإن انتهوا انتهى، ومات قبل البعث والنشور. وبذلك يتضح أنّ وعد الله لإبليس بمنحه الحياة إلى الوقت المعلوم لونٌ من ألوان العذاب الذي استحقه بمعصيته. فحسْبُ إبليس أنه تحول إلى رمز للشر المطلق، وارتبطت حياته مع اللعن والرجم، وباتت حياة معقدة كريهة.

---

(١) تفسير الرازي جزء ١٩ ص ١٤٦، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية /بيروت.

وإذ بقي إبليس في الجنة، على ما قدمنا، ووجد آدم وحواء فيها، أدرك أنّ دوره، الذي تعهد به لربه بالغواية، قد بدأ. وهو الدور الذي سمح الله سبحانه به كي تبدأ معه دورة حياة البشر في الأرض، وهم المخلوقون المُخيّرون بين الخير والشر؛ وبناءً على اختيارهم هذا سيحاسبون، إلا أن غواية إبليس لعباد الله المخلصين تقف دون تحقيق أغراضها، فتصطدم بإرادة الله القوية سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الحجر.

على أرضنا لا حياة بدون موت

إذاً، فعقل الإنسان أعجز عن أن يتصور حياةً على أرضنا هذه لا موت فيها، فتلك أبدية لم تخلق لها أنفسنا وأجيالنا، وتتناقض مع قدراتنا وتركيباتنا، وبالتالي تكون الاستحالة بها مطلقة. وعلى افتراض جدلي، أنّ ثمة مخلوقات يمكن أن تكون كذلك، فهي، بالتأكيد لن تكون مثل الكائنات الحيّة المعروفة، بل هي "أخرى مختلفة" وعلى أرض غير أرضنا!! وستكون تلك الكائنات، بلا ريب، بمواصفات أخرى ليس فيها جرثومة الفناء التي فينا، بل تحوز على جوهر الخلود، الذي لا نملكه، نحن المخلوقين، في هذه الدنيا، وتكون لها حياة أخرى تختلف كلياً عن حياتنا، وتتميز بمكنونات لا نملكها، فتتفوق على ما خولنّا الله من قدرات.

في عالم آخر حياة بلا موت

وما افترضناه آنفاً سيكون، لكن في عالم آخر هو عالم الحياة الآخرة. وهي الحياة التي فيها نسق خاص غير طبيعتنا، وفي مكان غير أرضنا، تلك الحياة كائنة في جنة عالية ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ الزخرف، وفيها "مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ" كما ذكر النبي ﷺ (مسند الإمام أحمد).

الجميع في عمرٍ واحد لا يزيد ولا ينقص، فثمة توقفٌ للزمن، فلا ليل ولا نهار، ولا طعام ينتج البول والبراز، ولا مخاط ولا عرق، لا صناعة فيها ولا

تجارة، لا حرب ولا نزاع، لا مشقة ولا نَصَب، لا غِيبة ولا نميمة، ولا حسد ولا تباغض ولا عبادات ولا تكاليف، فقط يُلهمون التسبيح كما يلهمون النفَس، ولا مرض ولا موت، بل حياة خالدة أبدية سرمدية هي الحيوان[1] لو كانوا يعلمون...

وذلك كان، مع خلق آدم وحواء. فهما قد خُلقا ليكونا في الجنة لا على أرضنا، تلك الجنة التي لا ظمأ فيها ولا جوع، لا حرّ ولا قرّ، ولا تغوّط ولا تبوّل. فقد أذن الله سبحانه لآدم، ومعه زوجه، أن يأكلا من كل أشجار الجنة إلا شجرة واحدة، هي على ما يبدو مختلفة عن سائر الأشجار، وقد تكون، والله أعلم، من أشجار "الأرض" التي ما إن يأكل منها الآكل حتى تبدأ أجهزة الجسد بالعمل، كجهاز الهضم مثلاً، فيقوم هذا بالتعامل مع الطعام فيدفع الغذاء إلى الدم وفضلاته للإخراج عبر التغوّط والتبوّل وتعرّق الجلد. وهذا لا يصح أن يكون في الجنة.

وهكذا، وبعد كيد إبليس القائم على قلب الحقائق والكذب والافتراء والغش، إذ زعم أنّ الله U لم ينهَ عن الأكل من تلك الشجرة إلا لمنع الخلود عن آدم وزوجه، فإن أكلا منها خُلِّدا؛ وتلك مداخلة مخترعة ومناقضة لواقع السنن التي جعلها الله في كونه. فتلك الشجرة تُفضي بآكلها إلى الأجل محدود طال أو قصر، وإلى الموت المحتوم وإن تقدم أو تأخر، وبالتالي تغدو

---

(١) ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴿٦٤﴾﴾ **العنكبوت**؛ أي دارُ الحياةِ الدائمة. وفي حديث ابن عمير: إنَّ الرجلَ لَيُسْأَلُ عن كلِّ شيءٍ حتى عن حَيَّةِ أَهْلِه؛ قال: معناه عن كلِّ شيءٍ حَيٍّ في منزله مثلِ الهِرّ وغيره، وتقول العرب كيف أَنت وكيف حَيَّةُ أَهْلِكَ أَي كيف من بَقِيَ منهم حَيّاً؛ والحيوانُ اسم يقع على كل شيء حيٍّ، وسمى الله U الآخرة حَيَواناً فقال: وإنَّ الدارَ الآخرَة لَهِيَ الحَيَوان؛ قال قتادة: هي الحياة. المعنى أَن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيّاً فيها لا يموت، فمن أُدخل الجنة حَيِيَ فيها حياة طيبة، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يَحْيَا، وكلُّ ذي رُوح حَيَوان، والجمع والواحد فيه سواء. قال: والحَيَوان عينٌ في الجَنَّة، وقال: الحَيَوان ماء في الجنة لا يصيب شيئاً إلا حَيِيَ بإذن الله U. وقال رسول الله r :(**النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون**) رواه الطبراني في الأوسط.

الإقامة في الجنة أمراً مستحيلاً، لاختلاف مواصفات جسد الجنة عن مواصفات الجسد الذي يتعامل مع نبات الأرض وبعض مخلوقاتها. فالجنة مُعَدَّة للخلود الدائم، وجسد آدم ومعه حواء، بعد تبدلهما، يكونان قد حُكم عليهما عليه بعيش محدود. ويعني ذلك أنّ مزاعم إبليس خلاف الحقيقة. فهو قد أضلّ آدم وزوجه بمعلومات خاطئة. فما إن أكلا من تلك الشجرة "الأرضية" حتى بدت لهما سوآتهما، فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وسرعان ما أدرك الإنسان "الأول" أنه قد أخطأ وأذنب وضلَّ، ونسي ما عُهد إليه بعدم الاقتراب من تلك الشجرة. غير أنّ هذا الإدراك جاء بعد فوات الأوان، فقد صدر الأمر الرباني أن يهبطا مع "الشيطان" إلى الأرض، ليبدؤوا مسار الصراع والتناقضات، مزوّدين بذاكرةٍ مشبعة بكيد الشيطان، وليعلم آدم وزوجه وبنوه أنّ الشيطان عدو الحياة والإنسان والجان، وعلى الخلق أن يتخذوه عدواً، لا يؤنس به ولا يُسمع له؛ وفي مخالفته النجاة، وفي اتباعه الهلاك. فكان الإنسان بهذا الاعتبار خليفة مستتاباً، ومحطَّ الرفعة أو الانحطاط، والتفوق أو التخلف، والنجاح أو الفشل، والطاعة أو العصيان، والاتباع أو الابتداع، وبكلمة واحدة، الإيمان أو الكفر. والكفر ـ في مبدئه ومنتهاه ـ التغطية على الحقيقة والإغلاق على الحق والانتصار للباطل، بينما الإيمان نور في القلب، يشع هدىً من الله، ويتنزل في مراحل مختلفة ومتتابعة، تدعو الإنسان وتُذكِّره بتجربة غنية من كيد الشيطان للحق، وتُنبِّهه للحذر من عدوه الأكبر الشيطان، فتجربته معه تكفيه وذرّيَته لمعاندته وإحباط كيده. غير أن الإنسان بطبيعته الجديدة التي أظهرتها الشجرة، بات يترسم حياة مؤقتة على هذه الأرض محكومة بالموت، نهايةً محتومة لكل مخلوق[1]

(١) راجع كتابنا "الزينة والجمال" في صفحاته ٥٧و٥٨ من منشورات الكلمة الطيبة الطبعة الأولى ١٤٢٨/ ٢٠٠٧.

الفصل الثالث:

"العمر المؤقت" ومراحل الحياة

مهما كره الإنسان الموت أو حاول أن يفرَّ منه، يجدْ نفسه في النهاية مستسلماً له راضياً أو غاضباً. والمؤمن العاقل، يستسلم لقدره راضياً، مطمئناً إلى غدٍ يعيده إلى الخلود النهائي الجميل، في جنات النعيم، كما كان آدم قبل العصيان!!

إنّ طول الإقامة في الدنيا أو قصرها لا يغيّر من طبيعة "المؤقت"، فنوحٌ u ، وقومه كانوا من المعمّرين. فقد عاش يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، ولا ندري كم كان عمره إذ جاءته النبوة. ثم حين سئل عن الدنيا قال: "هي كدارٍ دخلتُها من باب وخرجت من باب".

وقوم هود كانوا أيضاً من المعمِّرين، ولكن أقل من أعمار قوم نوح، وزادهم الله في الخلق بسطة، وكانوا لشدتهم وبأسهم يقولون: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ حتى ضرب القرآن فيهم المثل ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝﴾. وكذلك كانت ثمود، إذ بلغت قوة رجالها إلى حد قطع الصخور العظيمة من الأودية ونقلها ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، إلى قوم فرعون الذين بنوا الأهرامات الهائلة ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، كما كثير من الأقدمين الذين بنوا هياكل وقلاعاً و"سوراً عظيماً" بما ملكوا من قدرات جسدية أو سواها لا يملكها بشر اليوم. بيد أنّ بشر القرون الجديدة تمكنوا من تحقيق اكتشافات رائعة بمقدِّرات العلم والعقل، ما لم يصله الأناسي الأوائل، فضلاً عن أنّ إنسان اليوم يحاول التعامل مع الأمراض بشكل أدق وأفعل. كما تمكن من التعامل مع الجينات، بحيث بات بالإمكان، "إطالة الأعمار" على ما يوصف، ويتحدثون اليوم عن أمانٍ قد يحققها العلم، بأن يصل عمر بعض الناس إلى مائة ثم تدرجاً إلى مائتين، إلى أن يصلوا في أقصى احتمال إلى ثلاثمائة سنة. وقد كان الأقوام في فجر التاريخ يعيشون إلى الألف وأكثر. ثم ماذا بعد؟ الموت المحتوم...

إنّ أمثال تلك التجارب والأماني في إطالة الأعمار لم تصل بعدُ إلى نهاياتها، ولا تزال مشاريع بحث وعمل، غير أنّ كثيراً من العلماء راحوا يحللون أوضاع الحياة الجديدة المحتملة، فيما لو وصلت إلى العمر المديد، فرأوا أنها سوف تكون عبءاً على الإنسانية ووبالاً على الحياة، ولن يصمد الإنسان إزاءها أبداً... فإنّ الدول اليوم تشكو من تكاثر كبار السن في مجتمعاتها، بفضل تقدم الطب وتحقق الرفاهية. وهؤلاء دون التسعين، فكيف إذا تجاوزوا المائة إلى ضعفيها أو أكثر، ذلك أنّ العبء المالي والاقتصادي سيكون كبيراً ومكلفاً، وذلك أن مثل هذا الإنسان، إن طال عمره فسيتبرم بالحياة، وسينتهي بالموت المحتوم إن لم يعمل على إنهاء حياته بيده.

ولعل في حديث رسول الله r، عن وفاة موسى u معنى لطيفاً في هذا الشأن، إذ قال r: "أرسِل ملك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكَّه [أي صفعه وضربه] فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجعْ إليه فقلْ له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يدُه بكلِّ شعرة سنة، فقال موسى: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن". رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة[1] t.

---

(١) هو **عبد الرحمن بن صخر الدوسي** (١٩ ق.هـ/٥٩٩ م - ٥٧ هـ/٦٧٦ م)، صاحب رسول الله ومن كبار الصحابة، قد أجمع أهل الحديث أنّ أبا هريرة t أكثر الصحابة روايةً وحفظاً لحديث رسول الله. اسمه في الجاهلية عبد شمس بن صخر ولما أسلم أسماه رسول الله عبد الرحمن. أما عن سر كنيته قال: كنت أرعى غنم أهلي، وكانت لي هريرة صغيرة،فكنت أضعها بالليل في شجر، فإذا كان النهار ذهبت بها معي، فلعبت بها فكنوني أبا هريرة، أسلم t في دوس على يد الصحابي الطفيل بن عمرو الدوسي t في السنة ٧هـ، وهو وحده الذي أجاب دعوة الطفيل - بعد أبي الطفيل وزوجه - عندما دعا قبيلته دوساً إلى الإسلام، وقدم أبو هريرة مع الطفيل إلى الرسول في مكة، وطلب الطفيل من النبي أن يدعو على دوس، فدعا r لها وقال: "اللهم اهدِ دوساً، وهاجر عام خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة إلى المدينة أثناء فتح خيبر أي بعد إسلامه بعشر سنوات. وكان للنبي r الأثر الأكبر في تنشئة وتربية أبي هريرة t وأرضاه، فمنذ أن قدم إلى النبي لم يفارقه مطلقاً، وخلال سنوات قليلة حصل من العلم عن الرسول ما لم يحصله أحد من الصحابة جميعاً، وكان النبي يوجهه كثيراً، فعنه r أنه قال له: "يا أباهريرة كنْ ورعاً تكن أعبد الناس". كان أبو هريرة محباً لآل بيت النبي، عارفاً بفضلهم، واعياً لوصاياه بهم، عن أبي هريرة قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين، ويجلس إليهم، ويحدثهم ويحدثونه، وكان رسول الله r يكنيه أبا المساكين وعن عمير بن إسحاق قال: كنت أمشي مع الحسن بن علي في طرق المدينة، فلقينا أبا هريرة، فقال للحسن: اكشف لي عن بطنك جعلت فداك حتى أقبّل حيث رأيت رسول الله r يقبله، قال: فكشف عن بطنه فقبَّل سرته. ذكر ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة

ومن خلال ما سبق،نجد أن الموت يسير مع الحياة في شكل دائم ومضطرد، فإذا ما قُلتَ "حياة" كأنك ذكرت معها الموت لتضمنها له. كما أنّ كلمة "الموت" تتضمن الحياة. فلا مفر ولا مهرب للحياة من الموت، فهو ضرورة محتومة للحياة الدنيا التي نعيش فيها. ولو لم يكن موجوداً لوجب وجوده. وهو ما قدّره خالق الأكوان والإنسان والكائنات الحية. وتقديره هو الأسمى، لا بل لا تقدير فوق تقديره. من هنا كان الموت كائناً ملازماً لحياتنا الدنيا،أحببناه أو كرهناه. ولعله هو الأجدر أن توصف به الحياة الدنيا.

وانطلاقاً من ذلك نجد في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ .مزيداً من فهم الموت ملازِماً أكيداً لحياة عاجلة، ثم فهم الآخرة حياة أبدية خالدة لا موت فيها ولا زمن، فتعالى الله الحكيم العليم إذ يقول : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ تبارك. وبذلك يتضح معنى سؤال السائل السالف الذكر في الصفحات السابقة[1]، المتعلق بسر تقديم الموت على الحياة في آية (الملك) وسواها من سور القرآن، والله تعالى أعلم.

❖ ❖ ❖

مراحل في الحياة الدنيا

أودع الله جلّ جلاله في الخلق أسرار الحياة والموت، بدءاً بخلق النطفة و"بيتها"[2]، وبالتكوين جنيناً، وبالولادة طفلاً، ومن ثمَّ الشباب والكهولة،

حدَّث ذات مرة عن النبي بحديث (من شهد جنازة فله قيراط)، فقال ابن عمر: "انظر ما تحدث به يا أبا هريرة فإنّك تكثر الحديث عن النبي فأخذ بيده فذهب به إلى عائشة فقال: أخبريه كيف سمعتِ رسول الله يقول، فصدَّقت أبا هريرة، فقال أبو هريرة: يا أبا عبد الرحمن والله ما كان يشغلني عن النبي غرس الوَدِيِّ [فسيل النخل وصغاره]، ولا الصفق بالأسواق، فقال: ابن عمر: "أنت أعلمُنا يا أبا هريرة برسول الله وأحفظنا لحديثه" وأصله في الصحيح. طال عمر أبي هريرة بعد الرسول ٤٧ عاماً. دخل مروان بن الحكم عليه في مرضه الذي مات فيه فقال: شفاك الله، فقال أبو هريرة: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي، ثم خرج مروان فما بلغ وسط السوق حتى توفي بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع سنة ٥٧ هـ عن عمر يناهز ٧٨ عاماً. وقد روى عنه نحو ثمانمائة رجل من الصحابة والتابعين وغيرهم، وروى عنه أصحاب الكتب الستة ومالك بن أنس في موطئه، وأحمد بن حنبل في مسنده، وقد جمع أبو إسحاق إبراهيم بن حرب العسكري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ مسند أبي هريرة وتوجد نسخة منه في خزانة كوبرلس بتركيا كما ذكر صاحب الأدب العربي.

(١) راجع الصفحات ٢٣و٢٤ .

(٢) نطفة الرجل تسكن في بويضة المرأة.

فالشيخوخة فالموت المحتوم. وقد يدركُ البعضَ في أيٍّ من مراحل الحياة المشار إليها بقوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ الحج.

ولقد اكتشف "العلماء" كيف تحيا الخليّة ثم كيف تُدَمَّر، وكيف تُعمّر لمدة محدودة، ثم تموت. ومنها ما ينقسم إلى خليات، ثم بعد ذلك يفنى، ثم أدركوا أنّ قدرات أجهزة الإنسان، مثلاً، تكتنز طاقة محدودة، فإذا ما نفدت مات صاحبها.

وأُطلِقَ على نهاية الخلية الموت المنظم المبرمج،[1] وهو موت يقع في كل لحظة من لحظات زمان حياتنا، في أجسادنا وأجساد المخلوقات الأخرى، غير أننا لا نحس به، ولا ندركه، مع أنه يجري فينا باستمرار. ولا ريب أن سَدْل الستار على ذلك الموت لطيفة من لطائف الله، فيها حكمة بالغة. فالموت مستمر فينا، بينما تستمر حياتنا بضخ خلايا جديدة نعيش بها وعليها، إلى أن يتوقف الخلق المتكرر والتكوين. عندئذ يساق المخلوق إلى ربه القائل: ﴿كَلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ القيامة،

إنّ تمازج الحياة والموت في الكينونة المخلوقة قائم وجارٍ باستمرار، ما دامت الروح فيها. وتلك آية من آيات الله تمنحنا دليلاً منا، يتكرر فينا ما تكرر الليل والنهار. فلله وحده قدرة الخلق والإماتة، وإعادة الحياة بعد الموت، وإن كانت بمواصفات جديدة أرادها لنا، إذ ليس فيها خلايا تموت ولا خلايا تتجدد، والحياة التي لا موت فيها هي

---

(١) كتب ولدي مؤمن ـ رحمه الله ـ في مقالة له (الروح والعالم المرئي) أثبتناها في باب مقالاته من كتابنا الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء) قال: (من خلال العلم، نستطيع أن نرى عبر المجهر كيف تعمل الخلايا، وكيف تعيش لفترة معينة من الزمن، إنها تقوم بمهمتها كاملة. دعني أقُول: إنها تقوم بكل ما عليها القيام به.. إنها تساعدنا لنعيش، وتساعد غيرها من الخلايا لتكون أقوى، وإذا أصيبت إحدى الخلايا في الجسم فإن العديد من الخلايا تساعدها على الشفاء. ثم تستعد للموت بكل إيمان. هذه الظاهرة تعني موت الخلايا المنظم. وقد اكتشف العلماء من سنوات خلت أنّه في كل خلية، هناك برنامج للحياة وللموت.. تموت الخلايا على طريقتها وبنفسها بعد اتباع برنامج مُشفّر داخلها، وبعدها تنتهي حياتها المشفرة أيضاً).

الخلود الأبدي. كما أن تكرار الخلق والحياة في أجسادنا إشارة إلى الحياة، وبتكرر الموت فينا إشارة كاملة إلى ارتباط الجسد بالأجل المحدود قال سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ الذاريات. فمَنْ يتكلم لا يشك بنطقه، فعليه إذاً أن لا يشك بقدرة الخالق على البعث بعد الموت والنشور، وكلاهما وجهان للحقيقة الأزلية.

تلك مراحل متنوعة تتكامل عند مجموعة من الخلق، بينما تُحجبُ البداية والنهاية عن مجموعة أخرى. فالعامل المشترك بينها: البدء والختام، التكوُّن والموت. فالأول - أي البدء والتكوُّن - يهيئ إمكانات الكينونة بحدود معينة يعلوها الأجل، ليغدو المخلوق حيّاً فيستحق كلمة (حياة)، وبمجرد وجوده حيّاً يرتبط بـ (الموت). وهو النهاية المحتومة المرحلة الدنيا، والتي لا يُعرف لها زمان ولا مكان.﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤﴾ لقمان.

❖ ❖

لو يُعمَّرُ ألف سنة!!!

وردت في القرآن آيات تشير إلى أن الإنسان أو المخلوق قد يتمنى أن لا يموت، وقد يسعى لذلك سعياً حثيثاً، ولكن هيهات هيهات. فالمخلوق، كما قدمنا، يحمل بذور موته بمجرد خلقه، فخلقه وموته محسوبان بدقة متناهية لا اختلال فيها إقلالاً أو إكثاراً. ويبدأ المخلوق، عند خلقه، بالعد التنازلي نحو موته. وفي قوله تعالى ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ٨﴾ الجمعة ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ النساء، تصوير عميق لهذا المعنى.

زدْ على ذلك، فإنّ المؤمن، وهو يعلم أن الموت نهاية سعيدة له، لِمَا عبّر عنه النبي ﷺ من أن الموت (راحة للمؤمن)، نجده، إذا ما انحرف عن السوية الربانية التي أرادها الله لعباده، خائفاً من الموت يترقب، وبينما يدّعي حبَّ الله تعالى، نجده راغباً في الحياة، كارهاً للموت. وإزاء هذا التناقض المرير تبدو ملامح الاضطراب صعبة أو خجولة، وقد ضرب الله لنا مثلاً، في ذلك، اليهود المنحرفين الذين حُمِّلُوا التوراة ولم يحملوها ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ الجمعة.

وذَكَر الله سبحانه اليهود خاصةً، والذين أشركوا، كعرب الجاهلية والمجوس وسواهم، بقوله ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ البقرة. وفي الآية، كما ذكر الرازي، لفتة جميلة في تنكير (حياة) فقال: تلك (حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة) ويقول: "إنّ اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا) وقد (أُفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بالمعاد، وما يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يُستبعَد لأنها في ظنهم حياتهم الوحيدة وجنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص مَنْ له كتاب، وهو مُقرّ بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. فإن قيل: ولِمَ زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلنا: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك". ويقول عند تحديد التمني بألف سنة: (ليس المراد من ذكر ألف سنة أن يعيش ألف سنة بالتمام والكمال، بل المراد به الكثير، وهو معروف في كلام العرب). وأكد الرازي أنّ الله تعالى إذ قال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (إنّ الله تعالى بيَّن بُعدَهم عن تمني الموت من حيث انهم يتمنون هذا البقاء، ويحرصون عليه هذا الحرص الشديد، ومَنْ هذا حالُه كيف يُتصور منه تمني الموت؟) !!

هكذا، (فإنْ كانت حياة المرء مديدة إلى حقبة طويلة كألف سنة أو أكثر، لا تُسْقِط الحساب والعذاب في الدنيا أو في الآخرة، وهي الأهم، حتى ولا أن يتزحزح، هذا الذي عاش ألف سنة، عن العذاب، وبذلك فلا قيمة لتلك الألف، بل قد تكون أكثر وبالاً على صاحبها وعلى من حوله. وحسبه أنّه يرفض القبول بالموت كمحطة أخيرة في حياته، سواء كان قصيراً لعشرات السنين أو طويلاً كألف سنة أو يزيد)[1].

❖ ❖

الموت دعوة للحياة!!

يفترض في الموت، وهو واقع لا محالة أياً كان الأجل، أن يُعِينَ الإنسان، حال الحياة، على اختيار النهج الأسلم، والالتزام الأكمل بتعاليم ربِّ الموت والحياة. يقول

(١) تفسير الرازي، المجلد الثاني، عند آية ٩٦ من سورة البقرة.

تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ المنافقون. ذلك أنّ الإنسان إن أدرك، لحظة دخوله مرحلة الموت، تقصيره وتقتيره وتخلفه عن لوازم الحق الرباني، فقد يتمنى أنْ يُنسأ في أجله، فلعله إذ ذاك أنْ يُقدِّم الخيرات والصلاح؛ فجاءت آية "المنافقون" تكشف رغباته تلك عند نزعه، ثم تدعوه إلى أن يتبصّر أمره؛ فهو ما زال في الحياة، فليمارس ما يتمناه، لأنّ الموت الآتي غير معلوم زمانه ولا مكانه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ لقمان.

يتحصل من هذا كله، أن الموت إرادة ربانية محيطة بكل مخلوق، كما أنّ الموت بنفسه وعند تذكّره، رسالة دائمة للإنسان، تتجدد مع تجدد أفراده، فيعي غاية الوجود، وحقيقة حياته وأهدافه، ووسائل تواصله مع هذا الكون المحكم الدقيق، وبذلك يكون الموت دعوة للحياة!!.

روى البخاري في صحيحه عن **عبادة بن الصامت**[1] عن النبي **r** أنه قال: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ: أو بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إليه مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ

---

(١) **عُبَادَة بنُ الصَّامِتِ** الخزرجي الأنصاري. كنيته أبو الوليد. روي عنه حوالي مائة وواحد وثمانون حديثاً. زوجته هي أم حرام بنت ملحان التي توفيت في قبرص مجاهدة في فتح الجزيرة وضريحها بالقرب من مسجد لارنكا الكبير، شهد بيعة العقبة الأولى والثانية، وآخى رسول الله **r** بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد بدراً وأحُداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله **r**، واستعمله النبي على بعض الصدقات. وكان أحد الخمسة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي **r**. وكان عبادة يُعلّم أهل الصُفّة القرآن في مسجد النبي **r**، ولما فتح المسلمون الشام أرسله عمر بن الخطاب، وأقام بحمص، قال الأوزاعي: أول من ولي قضاء فلسطين عبادة بن الصامت. وقد خالف معاوية في عهد الخليفة عثمان بن عفان عندما ذهب إلى الشام. وصفه عمر بن الخطاب **t** بقوله: "رجل يعد في الرجال بألف رجل"، وذلك حين أرسله مدداً لعمرو بن العاص **y** في فتح مصر، إذ كان من السابقين إلى الإسلام، وزوجته الأخرى خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ **المجادلة**. توفي **t** سنة ٣٤ للهجرة وهو ابن ٧٢ عاماً ودفن بالقدس الشريف في بقيع الرحمة الملاصق للباب الذهبي وكان طويلاً جسيماً جميلاً أسمر البشرة.

وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إليه مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ". وللبخاري أيضاً عن النبي r برواية أبي سعيد الخدري[1] t وصف للمؤمن إذا مات وهو صالح، "وقد بشر بالجنة" وحُمِلَ إلى مثواه الأخير، فتقول نفسه (قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي) أي أسرعوا بي إلى مثواي الأخير، أما غير الصالح فتقول نفسه: أين يذهبون بها[2]!!

❖ ❖ ❖

ومن نُعمِّره نُنكسه في الخلق

من شأن أجساد الأحياء أن يعتريها الضمور كلما تقدمت في السن، يظهر ذلك في مرحلة الشيخوخة واضحاً جليّاً، وأكثر ما يبدو في تآكل القدرات، حتى إنّ طول الإنسان، مثلاً، قد يتدرج إلى القِصَر، فجسمه يضعف بعد قوة، والبصر والسمع يتضاءلان، والشعر يشيب والجلد يتغضَّن، والأيدي والأرجل إلى الخَوَر أقرب، وبصعوبة الإمساك والمشي ألصق، والعصا تصبح رِجْلاً ثالثة، بينما الأسنان تتخلع، والأجهزة الجسدية الأخرى تتهاوى، وكل ما تقدم وسواه مؤشرات إلى اقتراب النهاية واكتمال الأجل المحتوم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ الروم. وقال تعالى في ذلك: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس.

ورد في الخبر: "إنّ أحد الأنبياء قال لِمَلَكِ الموتِ u: أما لَكَ رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم لي واللّهِ رسلٌ كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغيّر السمع والبصر، فإذا لم يتذكر مَنْ

---

(١) هو **سعد بن مالك بن سنان** من الصحابة وهو من ذرية الخزرج الأكبر، وهو من الأنصار. أمه أنيسة بنت أبي حارثة من بني عدي النجار. اعتنق أبو سعيد الإسلام باكراً، فكان من الذين أسلموا قبل سن البلوغ. استشهد أبوه مالك في معركة أحد، وشارك أبو سعيد في معركة الخندق، وبيعة الرضوان. ويعتبر من رواة الحديث فقد روى ١,١٧٠ حديثًا، لم يسمح له النبي بالقتال في غزوة أحد لصغر سنه. كان يعظ الخلفاء ويخلص لهم في النصيحة، توفي سنة ٧٤هـ.

(٢) والحديث بتمامه هو: (إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهُ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي. وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا. يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ).

نزل به ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير".

يروي الترمذي في سننه عن أبي هريرة t عن النبي r : "ما ينتظر أحدُكُم إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أو غِنًى مُطْغِياً أو مَرَضاً مُفْسِداً أو هَرَماً مُفَنِّداً أو مَوْتاً مُجْهِزاً" فمَنْ طال أمله ضعف عمله، فإذا أصاب مالاً كثيراً - ولم يكن ثمة تفكر بالموت - أطغاه، وإنْ أصابه فقر دائم - ولم يتذكر الموت - فقد ينسى طاعة الله، وإن أصابه مرض أفسد عليه حياته، فاضطرب عمله وربما نفذ صبره أيضاً، وإن نجا من ذلك كله أدركه الهرم المفنِّد الذي يؤدي إلى النسيان والتخريف ، ويضعف البنية والسمع والبصر... ليصبح عالة وعبءاً ثقيلاً على من حوله، فقد يتمنى في نهاية المطاف، ويطلب من ربه، أن يميته ويضع حداً لمأساته!!.

من هنا كان الموت، وهو انتقال واجب بين مراحل الحياة المختلفة، راحةً للمؤمن في عالم آخر عجيب، وبدايةً أو استئنافاً لعذاب الكافر أو الممتنع عن عبادة ربه، أو عن الالتزام بأوامره ونواهيه، أو عن تقيده بمنهج الحياة الذي أراد.

تجهيل زمن الموت ميزة له

ولإنسان سويّ، قريبٍ إلى الله، قريب إلى الناس، حبب الله له ذكر الموت، في أي وضع كان الإنسان: صحيحاً سليماً أو مريضاً سقيماً. ففي يومٍ آتٍ لا مفر منه يكون برفقة هذا الكائن الناقل لروحه، بأمانة مطلقة، إلى حيث يأمره مولاه، وعلى هذا، على الذاكر للموت أنْ يُقرن القول بالعمل في دنياه، ويرعى تلك اللحظة الحاسمة الآتية في زمن ما، ويُعدَّ نفسه لها ولما بعدها.

ولعل من أروع ما في الموت من ميزة، أنّه مجهّل الزمن الذي يكون فيه، فلا يعرف المرء متى نهايته ووجوده في الحياة، وساعة رحيله عن الدنيا، فذلك أمر مغيَّبٌ عن الناس جميعاً. وكم من مريض قدّر الأطباء نهايته بساعات أو دقائق فإذا به يشفى ويُعمّر ما شاء الله له، وكم من صحيح سليم يكون بين أهله أو رفاقه فيسقط بينهم ميتاً، وكم نائم لم يستيقظ أبداً، وكم من محارب لم يبقَ

في جسمه موضع إلا وفيه طعنة رمح أو ثقب رصاصة أو شظية، ثم بعد ذلك يعيش عمراً مديداً بعد معاركه العديدة، وأصدق مثل على ذلك الصحابي القائد خالد ابن الوليد، الذي خاض الغزوات والحروب، وفتَحَ بلاد العراق والشام، ولم يبقَ في جسمه موضع إلا فيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، ثم مات على فراشه، فقال قولته الشهيرة (فلا نامت أعين الجبناء)[1]. وأصدق تعبير في هذا الشأن قول الإمام الشافعي:

وكم من صحيح مات من غير علّة وكم من سقيم عاش حيناً من الدَّهر

---

(١) روى الدكتور **الشيخ راتب النابلسي** عن طبيب في دمشق قال: دعيت لمعاينة امرأة أربعينية في حالة الاحتضار، فلما وصلت إليها ووضعت السماعة، وجدت أنّ قلبها يدق كل دقيقتين مرة واحدة ثم انقطع، وجمدت عيناها وتغير لونها، وليس فيها شيء ينبض أو يتحرك فتوجهت إلى أهلها وقلت لهم: أعظم الله لكم الأجر، ليتبعني أحدكم إلى العيادة لأعطيه وثيقة وفاتها. وخرجت من عندهم لأستقل سيارتي، وما إن فتحت بابها حتى ناداني بعض أهلها من النافذة (يا حكيم عُدْ إلينا فقد تحركت)، فعجبت من ذلك، وعدت لأجد أن قلبها بدأ ينبض شيئاً قليلاً، وما هي إلا ساعة أو أقل، حتى عادت المرأة إلى الحياة من جديد؟! .. لقد زارتني في عيادتي أكثر من مرة ولمدة ثلاث سنوات تباعاً. وروى أيضاً (أن رجلاً كان في حالة النزع، وجاءه الطبيب ليقول لأهله: بعد ساعة سيكون هذا في عداد الموتى، وخرج من بيتهم وتوزع أهل "المحتضر" لتحضير مختلف الواجبات التي يقتضيها الموت، فكتب أحدهم النعوة، وقام الثاني بالاتصال بمركز الدفن، وثالث راح يشتري بعض حاجيات النساء كما الأكفان... وسبحان الله العظيم، الذي جعل لكل أجلٍ كتاباً وكتمه عنده، فإذا بالمحتضر يعيش، ويموت ذاك الذي كتب النعوة)!! انتهى.

أقول: حدثني **الحاج كاظم غية**، وهو أحد رجالات طرابلس الموثوقين، قال: (في عام ١٩٣٦، كانت البلاد تحت الاحتلال الفرنسي، وكنتُ شاباً في مقتبل العمر، وانتفض أهل طرابلس ضد الفرنسيين فانضممت إلى شباب الثورة وقاتلت معهم ضد المحتل، فتمكن مني قائدهم الذي شهر مسدسه وأطلق النار عليّ، فوقعت مضرجاً بدمي، فحملني رفاقي إلى داخل البلدة حيث أودعوني أحد البيوت، وحضر إليّ الطبيب الطرابلسي عبد اللطيف البيسار، وهو أكبر أطباء البلد، وله قصص شهيرة في الطب والمعالجة، فكشف علي فسألته النسوة: ما نطعمه؟ فقال لهنَّ: أطعمنه ما يطلب، ثم قال بصوت منخفض: (أَطْعِمْنَه ما شئتن فهو بعد بضع ساعات ميت قطعاً) وخرج الدكتور ولم يسعفني إلا بتخفيف النزف. لكنني سمعت ما قال فقلتُ: (حسبي الله ونعم الوكيل وأرجو أن يقبضني الله شهيدا)، لكن الله سبحانه أحياني، وعمري الآن أكثر من مائة عام، وأعطاني ثمانية عشر ولداً مات منهم ثلاثة، وزوجتهم جميعاً ورزقوا بأحفاد بلغوا مائة وثمانين حفيداً، وعن قريب سيكونون مائتين إن شاء الله، فنساؤهم حوامل وجميعهم ينادونني: (يا جدو)، ولكلِّ أجلٍ كتاب.

إنّ قلب الإنسان، إذا لم يتعهده صاحبه بما يوقظه ويهذّبه، يغدو قاسياً، غليظاً لا رحمة فيه، فتتولد الأحقاد، ويتكرس الغل والظلم، وتفسد العلاقات بين البشر. فوجود الموت، ومن بعده الحساب على كل ما عمل، يجعل القلب رفيقاً رحيماً.

والدنيا بنظر المؤمن، إنْ كانت ضيقاً وشدّة، وعسُر فيها الجهرُ بالإيمان والعيش بحرية وكرامة، فهي سجن كبير، وهو ما عبَّر عنه الحديث الشريف (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) الإمام مسلم عن أبي هريرة t .

وروي عن النبي r :"إنّ الله إذا رضيَ عن عبدٍ قال: يا مَلَكَ الموت اِذهبْ إلى فلان فأتني بروحه، لأريحه، حسبي من عمله، قد بلوتُه فوجدتُه حيث أحب" أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت. وفي المعنى نفسه ما روي عنه r : "تحفة[1] المؤمن الموت" الطبراني والحاكم عن ابن عمر، وفي رواية للديلمي عن جابر: (الموت تحفة المؤمن، والدِّرهم والدينار مع المنافق وهما زادُه إلى النار) .

حياة بلا توازن

بالمقابل، لو اختلَّ التوازن الطبيعي في موجودات الكون لاختلت مقاييس الحياة، ولتساقطت المخلوقات موتى. فالماء مثلاً، لو لم يكن بمركباته وبخصائصه ومميزاته المعروفة لانعدمت الحياة. ويكفينا ذكر خاصية واحدة من خصائصه الكثيرة والفريدة، وهي خاصية تضخُّم حجمه إذا ما تجمد، فلو كانت هذه الخاصية معكوسة، أي أنّه إذا تجمد صغُرَ حجمه، كما هي حالة كثير من الموجودات، لتعطلت دورة التبخر والتكاثف، ودورة إرجاع الماء إلى الأرض، وبالتالي تتعطل الحياة. ولو أن خواص النبات تعدلت، لأصبحت غير صالحة للإنسان والحيوان. ولو أن خواص الفاكهة والخضار والأسماك والأنعام تغيرت لغدت غير صالحة للغذاء، ولانتهت الحياة، ولو أنّ خاصية الهواء اختلفت،

(١) **التحفة:** هي ما أتحفت به الرجل من البرِّ واللُّطْف. (لسان العرب).

لسقط الأحياء من الإنسان والحيوان موتى لا حراك لهم لانعدام التنفس. فلولا التوازن الدقيق الذي أوجده الله سبحانه في كونه، من بُعْدِ الشمس عن الأرض وعن القمر، وبُعْدِ القمر عن الشمس والأرض لتغيرت معالم الحياة أو لانتفت.

إنّ التوازن الدقيق في موجودات الكون، وفوائد كل منها للآخر، وتبادل المنافع بينها، بحيث يستمر كلٌ في خواصه التي خُلق بها مؤدياً غرضه في الوجود، ولو اختل أيٌّ من ذلك لفسدت السموات والأرض من كل لون وفن، ولانتهت الحياة. وهو تخوُّفٌ بات العلماء يُلوّحون به ويخشونه، فتصحُّر الأرض خطر، واحتباس المطر خطر، وتكاثر الماء خطر، وارتفاع حرارة الجو والهواء والأرض خطر، وتلوث البيئة خطر، والخطر داهم على جميع الأحياء والأشجار والحبوب والخضار والفاكهة والأسماك والطيور..

لقد خلق الله الوجود في غاية الإتقان وبتوازن مدهش، أمّا إذا ما اعتدى الإنسان على الطبيعة وفضائها، فيكون قد اعتدى على ذلك التوازن الذي أوجده الله سبحانه في موجوداته.

ومن ذلك، ثقب واحد في طبقة الأوزون، وهو بفعل إشعاعات الأرض من الغازات المضرة، أدخل الإنسان والأرض في متاهات جديدة خطيرة ... نشاهد آثارها السلبية يوماً بعد يوم.

لقد أودع الله سبحانه جميع مخلوقاته أسرار الحياة لتستمر هادئةً آمنة مطمئنة. وصدق الله القائل: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ الحجر.

وذكر الإمام الرازي ـ عند تفسيره للآية وجوهاً مختلفة نذكر منها: (إن هذا العالم عالم الأسباب، والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم ، فلا بد أن يحصّل من الأرض قدر مخصوص، ومن

الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص. ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان؛ فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته، فكأنّه تعالى وَزَنَها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع).

(ومنها أيضاً: في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون: فلان موزون الحركات، أي حركاتهُ متناسبة حسنة مطابقة للحكمة، وهذا الكلام كلام موزون، إذا كان متناسباً حسناً بعيداً عن اللغو والسخف، فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل. وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب، فقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة).

فأية حياة نعيشها ـ وهي مليئة بالسنن الكونية الربانية التي بلغت الغاية في اتساقها وتناسب مخلوقاتها . أدقُّ وأجمل وأروع من حياتنا هذه؟ فكلٌ من المخلوقات يجد أسباب عيشه واستمراره فيها، وبخاصةٍ الإنسان الذي فضّله الله سبحانه على كثير مما خلق، وسخَّر له ما في السماوات والأرض، ومنحه العقل والتفكير والتدبير، وقدرة السعي لتحقيق الأحسن والأمثل في استخدام النعم... وما نقص في الكون من نعمة إلا بفعل أناسي آخرين، وبظلم منهم وبتعدٍ آثم، وما جاع فقير إلا بما متع به غني. وهي قاعدة مضطردة تسري على الأفراد والمجتمعات الصغيرة والكبيرة والدول وفي أي زمان كان. ثم إنّ لحياة كل مخلوق نهاية، ثم تكون نهاية الحياة في الدنيا وعالمها، وهي الدنيا العابرة لمرها حيث مقرها الأخير.

الفصل الرابع:

هاذم اللذات

في وصف هو الأبلغ، قال رسول الله r : "أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ [يَعْنِي الْمَوْتَ]" رواه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة. وقال r في رواية عن سهل بن سعد الساعدي[1]: جاء جبريل إلى النبي r فقال: "يا محمَّدُ عِشْ ما شئتَ فإنَّك مَيِّت، وأحببْ من شئتَ فإنكَ مُفَارِقُه، واعملْ ما شئتَ فإنك مُجْزَى به. واعلمْ أنّ شرفَ المؤمن قيامُه بالليل، وعِزُّه استغناؤه عن الناس" رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. والموت ختام لحياة كل كائنٍ حي. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء. وهو ختام لازم لا مفرَّ منه ولا مهرب ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴿٣٤﴾﴾ لقمان. وكان ابن عمر t يقول: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" أخرجه البخاري في صحيحه. ومن جميل ما قيل في الموت، ما ذكرته رابعة العدوية لسفيان الثوري رحمهما الله: (إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل) .وانتبهتْ يوماً من غفوة طالتْ فقالت مخاطبةً نفسها: (يا نفسُ كم تنامين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها، إلا بصرخة يوم النشور). وهو وصف دقيق للموت هاذمِ اللذات ومفرق الأحباب!!

---

(١) كان اسمه حزنًا فسماه رسول الله r سهلًا، وكان سَهل يُكنى أبا العباس، وقال سهل بن سعد: كنت أصغر أصحابي في تبوك، فكنت شَفْرَتَهم - يعني: خادِمَهم)، تُوفِّي رسول الله وهو ابنُ خمس عشرة سنة، وهو من مشاهير الصَّحابة. وقد روى عن النّبيّ r ، وأبي بكر، وعمر، وروى عنه: أبو هريرة، وسعيد بن المسيب، والزّهري، مات t بالمدينة سنة إحدى وتسعين وهو ابن مائة سنة، وهو آخر من مات من أصحاب رسول الله r .

وعن الموت يقول الإمام **القرطبي**[1]:(اِعلم: أنَّ الموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وأنه الأهدم للذات والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإنّ أمراً يُقطّع أوصالك، ويُفرّق أعضاءك، ويَهدم أركانك، لهو الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وإنّ يومه لهو اليوم العظيم).

وقال: (فما ظنك ـ رحمك الله ـ بنازل ينزل بك فيُذهب رونقك وبهاك، ويغير منظرك ورؤياك، ويمحو صورتك وجمالك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، يَرُدُّك بعد النعمة والنضرة، والسطوة والقدرة، والنخوة والعزة، إلى حالة يبادر فيها أحب الناس إليك وأرحمهم بك وأعطفهم عليك فيقذفك في حفرة من الأرض، قريبة أنحاؤها مظلمة أرجاؤها، محكم عليك حجرها، فَتَحْكُم فيك هوامها وديدانها، ثم بعد ذلك تمكن منك الأعدام[2] وتختلط بالرغام[3]، وتصير تراباً توطأ بالأقدام، وربما ضُرب منك إناء فخار، أو أُحكم بك بناء جدار، أو طُلي بك محس[4] ما، أو موقد نار).

(أيضاً ذكر علماؤنا y ، أنّ هذا التغيّر إنما يحلّ بجسدك، وينزل ببدنك لا بروحك، لأن الروح لها حكمٌ آخر، وما مضى منك فغيرُ مُضاع، وتفرقة لا تمنع من الاجتماع، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ **ق.**

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، الطبعة السادسة منقحة ومصححة سنة ٢٠٠٣، دار المعرفة/ بيروت لبنان. **والقرطبي:** هو محمد بن أحمد بن أبي بكر ولد بقرطبة بـ (الأندلس) حيث تعلم القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وتوسع بدراسة الفقه والقراءات والبلاغة وعلوم القرآن وغيرها كما تعلم الشعر أيضاً. انتقل إلى مصر واستقر في شمال أسيوط حتى وافته المنية في ٩ شوال ٦٧١ هـ، وهو يعتبر من كبار المفسرين، قال عنه الذهبي: "إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله".

(٢) من العدم.

(٣) الثرى أو دقاق التراب.

(٤) الحَسُ والمَعْسُ دَلْك الجِلْدِ ودِباغُه.

وأورد القرطبي عن **عمر بن عبد العزيز**[1] **t** ، أنه كتب إلى أناس من أصحابه يوصيهم فقال: (أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله العظيم، والمراقبة له، واتخذوا التقوى والورع زاداً. فإنكم في دار عمّا قريب تنقلب بأهلها، والله في عَرَصَات القيامة وأهوالها يسألكم عن الفَتيل والنقير. فالله الله عباد الله، أُذكروا الموت الذي لا بد منه، واسمعوا قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ **الأنبياء**، وقوله **U**: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ **الرحمن**، وقوله **U**: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ **محمد**.

(وقد بلغني ـ والله أعلم ـ أنّ مَلَك الموت رأسُه في السماء ورجلاه في الأرض، قائم وسط الدنيا فينظر الدنيا كلها: بَرَّها وبحرها وجبالها، وهي بين يديه كالبيضة بين رِجْلي أحدكم).

وقال **أشعث بن أسلم**[2]: سأل إبراهيم **u** ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان: عين في وجهه وعين في قفاه [أي في رأسه من الخلف] ـ فقال: يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان

---

(١) هو **عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم** من بني أمية، وهم بطن من بطون قريش. أمّه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب **y**. ولد بالمدينة المنورة سنة ٦١ هـ. رحل مع بني أمية إلى الشام بعد وفاة يزيد بن معاوية. تولّى أبوه عبد العزيز ولاية مصر، فذهب معه إليها، ثم ما لبث أن طلب من أبيه العودةَ إلى المدينة ليتعلم من فقهائها فوافق أبوه وسيّره إلى المدينة، فهو من التابعين حتى صار من أهل العلم والفقه الذين يشار إليهم. عندما توفي والده عبد العزيز بن مروان عام ٨٥هـ رحل إلى عمه الخليفة عبد الملك في دمشق فضمّه إلى أولاده، وقدّمه عليهم لما رأى من دينه وخلقه وعلمه وزوّجه ابنته فاطمة، وولاّه إمرة (خناصرة) من أعمال حلب جنوباً. توفي عام ١٠١هـ، وكان عمره أربعين عاماً وقد دام حكمه عامين وخمسة أشهر فقط قام فيها بأعمال جليلة تحتاج إلى عقود كثيرة، فنشر العدل وردّ المظالم، ونشر الأمن، وعمّر الطُّرُق، وعزل الولاة الظالمين وأبدلهم بالصالحين، ورفع رواتب العمال والولاة ليغنيهم عن الخيانة، فسادَ الغنى والسعة، ولم يعد أحد يأخذ الزكاة المفروضة فأعتق بها عبيداً، واشترى دوراً لمن ليس له دار، وزوّج من كان بحاجة للزواج من المسلمين. ومن الناحية السياسية ناظر الخوارج، فلم يحاربوه وكانوا يقومون على كل خليفة قبله، وأخمد الفتن ومنع سبّ علي كرَّم الله وجهه.

(٢) **أشعث بن أسلم** العجلي البصري ثم الربعي روى عن أبيه، أنه رأى أبا موسى الأشعري، روى عنه: سعيد بن أبي عروبة، عن أبي بكر بن أبي خيثمة، أن يحيى بن معين يقول عن أشعث بن أسلم العجلي: بصري ثقة.

كيف تصنع؟ قال: أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين إصبعي هاتين، وقال: قد دُحيت له الأرض فتُركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء.

ونقش **عمر بن الخطاب t** على خاتمه (كفى بالموت واعظاً يا عمر) متمثلاً قول النبي **r** : "كفى بالموت واعظا" **البيهقي في الشعب عن عمار بن ياسر t** . فالموت سَفَرٌ لا مفرَّ منه، كُتِبَ على كل مخلوق، وليس لديه أي مناص إلا أن يستجيب له عند النداء. وكذا السير والمساق لا يكون إلا إلى واحد أحد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ **القيامة**.

إذاً، فالعاقل من اتعظ بالموت. فهو كما أتى مَنْ قبلك ومن معك، سيأتي عليك لا مفرّ ولا مهرب .وما أدقّ وصف الشاعر للنزع الأخير، إذ يصفه بحبس الألسن وغَلْقِ الأنفس. يقول القاضي **محمود الوراق**[1]:

قـــدّمْ لنفـــسك توبـــةً مرجـــوةً قبـل الممـاتِ وقبـل حـبْس الألـسُنِ
بـــادرْ بهـــا غلـــقَ النفـــوسِ فإنهـــا ذُخـــرٌ وغُـــنْمٌ للمُنيـــبِ المحـــسنِ

وأيُّ غُنمٍ أكبر من أن ينطلق اللسان في آخر عهده بالحياة بلا إله إلا الله، فمن قالها نجا وفاز. وذلك، كما ترى، ذخر كبير بفضل التوبة المرجوة والإنابة والإحسان!!!

كان ابن عمر **t** يبكي كثيراً حين يقرأ قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ سبأ ويقول: (اللهم لا تَحُلْ بيني وبين ما أشتهي) فكانوا يقولون له: وماذا تشتهي ؟ فيجيب: (أشتهي أن أقول لا إله إلا الله فيُحال بيني وبين لا إله إلا الله) وهذا بلا ريب غاية المُنى، إذ إنّ من قالها أمِنَ ونجا...

---

(١) **محمود بن الحسن الوراق**، أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا، وتوفي في خلافة المعتصم في حدود الثلاثين والمائتين. من قوله: ما إن بكيت زمانا إلا بكيت عليه ولا ذممت صديقاً إلا رجعت إليه، ومن شعره البيتان المشهوران:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّـه هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُك صادقاً لأطعتـه إن المحبَّ لمن يحبُ مطيعُ (فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي).

من هنا، كان واجب العاقل عدم الغفلة أو التغافل عن الموت المؤكَّد. والغفلة أو التغافل عادة كثير من الناس، تورثهم كثيراً من المعاطب والفتن؛ ودواؤها ذكر الموت والاستغفار، والتنبه له والحذر من وقوعه، فإن وقع كان مستعداً له، وعلى هذا فذكرُ الموت مطلوبٌ دائماً، وبتذكُّره تُفتَّح أبواب الخير والأعمال الصالحة. ومن فوائد ذكره أنه يُقلّل في نظر الإنسان الكثير، ويُكثّر القليل. ومن جعل الموت نُصْب عينيه لم يبالِ بضيق الدنيا ولا بسعتها؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة t عن النبي r : (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ) وفي رواية عن ابن عمر في المعجم الكبير للطبراني (.. فَإِنَّهُ مَا كَانَ فِي كَثِيرٍ إِلا قَلَّلَهُ، وَلا قَلِيلٍ إِلا جَزَّأَهُ)، وفي مسند الشهاب للقضاعي (...ولا في قليل إلا كثَّره)، ومعناه أن من يتذكر الموت يصبح القليل الذي عنده كثيراً، بأن يدرك أنّ ما عنده يكفيه ويزيد، بينما يغدو الكثير عنده قليلاً، فهو بات يرى أنّ الكثير هذا لن يتبعه بعد موته، ولن يغني عنه شيئاً عند ربه، إلا أن يكون قد أجرى فيه صدقة جارية، أو أوصى بذلك رغبة بالخير والثواب بعد موته، فما قيمة المال إن لم يوظفه في خيرٍ ما في دنياه ليأتيه أجره ونفعه في أخراه؟..

كما يدرك ذاكر الموت أنّ حاجاته كثيرة لا تنقضي، فيما عمرُه ينقضي، فليكتفِ إذاً، وليقنعْ بالقليل. أما إذا كان عنده الكثير فليُنفق وليؤدِ حقوق الله والمال والعباد.

تحدث أحد الشعراء عن الموت، وكيف أنّ الإنسان يغفل عنه وعن ذكره بانشغاله في أمور الدنيا الكثيرة، بينما الموت يتربص به، فإذا جاء أجله وافاه وإنْ بقيت له حاجات لم تنقضِ، فقال:

أشافَ[أتعب] الصغيرَ وأفنى الكبيرَ ... كرُّ الغداةِ ومَرُّ العَشِي
إذا ليلةٌ هَرِمت[انقضت] يومها ... أتى بعد ذلك يومٌ فَتِي
نروحُ ونغدو لحاجاتِنا ... وحاجةُ من عاشَ لا تنقضي
تموتُ مع المرءِ حاجاتُه ... وتبقى له حاجةٌ ما بَقِي

❖ ❖

يبقى وصف النبي r **للموت بهاذم اللذات الأدقّ بين كل الأوصاف**. فعن محمد بن أحمد وهو ابن مدوية قال: (دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ r مُصَلاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ، قَالَ: "أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ") رواه الترمذي والبيهقي . وجاء في التحفة الأحوذية في شرح الحديث[1] (أنّ الظاهر المتبادر من مقتضى المقام أنها صلاة جنازة، لما ثبت أنّه عليه الصلاة والسلام إذا رأى جنازة رؤيت عليه كآبة أي حزن شديد وأقلَّ الكلام. وأما قوله (فرأى ناساً كأنهم يكتشرون) أي يضحكون من الكشر وهو ظهور الأسنان للضحك. (قال أمَا) بالتخفيف لينبّه على الغفلة الباعثة على الضحك والمكالمة.(إنكم لو أكثرتم ذكرَ هاذمِ اللَّذات) والمعنى لو أكثرتم من ذكر قاطع اللذات (لشغلكم عما أرى) أي من الضحك وكلام أهل الغفلة (فأكثروا من ذكر هاذم اللذات الموت).

فالهذمُ لغةً القطعُ أو الأكلُ بشراهةٍ وسرعةٍ، بمعنى أنّه يُقَطِّع اللَّذات ويأكلها حتى تمتنع عن صاحبها. وأكله لها لا يكون بتؤدة بل بسرعة متناهية. فهو بذلك هاذم، والهاذمُ هو الذي يقوم بذلك دون خشية. وتتجلى ظواهر الموت بتلك الحركة بتمامها. فهو إما أن يأتي فجأة أو يأتي بعد مرض متعب، أو بعد شيخوخة صعبة أو مقبولة، أو حادث صدم أو سقوط طائرة، أو غرق باخرة أو معركة أو حرب أو ما شابه من الحوادث والأحداث. وجميع ذلك يؤشر إلى أن "اللذات" تقطعت، أو في طريقها إلى التقطع، وراح من يقطعها يعزلها نهائياً عن المستلِذّ بها.

واللَّذاتُ جمعُ لذَّة. واللَّذة كلُّ أمرٍ محبوبٍ عند الفرد المعنيّ، وتشملُ كل الحياة، حتى تكاد تجمع كل المحمود والمذموم، وكل المباح والمحرم، وكل النافع والضار، وكل ما يهش له المرء ويبش، وكل ما يمنح الجسد ألوان الفرح

(١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للإمام المباركفوري، المجلد السابع، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، ص ١٣٣.

أو يخصه بمجامع السرور. فالمال والجنس والولد، والفاره من الأدوات والسيارات والطائرات واليخوت واللباس والجاه والنفوذ والزعامة.. كل ذلك وسواه من اللذة العابرة أو المستمرة، فإما أن يُخضِعها المرء إلى قواعد وأسس، وإما أن تتفلت به عقلاً واتزاناً فيغدو كالأنعام أو أشد... **والإنسان سواء كان متزناً أو متفلتاً يبقى عنده للذات الحياة شأو، قلّ أو كثر. وذاك أمر طبيعي قدّره الإسلام. ولم يمنع إلا تجاوزاته والضار منه، ولم يطلب كبت اللذة الحلال، بل جعل للتعامل معها أدباً يوصل بالمتأدب إلى طريق الأمن والسلامة. وحسبه أنه اعتبر اللذة الحلال وسيلة لا غاية وسبيلاً لا هدفاً. وبذلك يتمكن "المسلم" أن يسيطر عليها بدل أن تسيطر عليه، فإن سيطرت حَرَفتْه عن غايته وهدفه، وهو ما لا يصح، إذ يصبح لها عبداً بدل أن تكون له مطية.**

هنا يتميز المؤمن عن غيره، والملتزم من المؤمنين عن سواه، فَمَن عرف غايته وطريقها تحقق لديه سلام النفس والروح، وأدرك الانسجام والوئام بين نفسه وجسده. فهو يعيش سائر اللذات إن تمكن منها، ولكن من دون أن يُضيِع إدراكَه أنه فوقها، فإنْ تقلصت اللذات عنده لسببٍ أو آخر، فلا يرتبك ولا يغضب ولا يثور، بل يتعامل مع المستجدات بأسلوب هادئ، ويدرك أنّ اللّه أراد به خيراً، فـ "عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأحَدٍ إِلاّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" **رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ صُهَيْبٍ**[1] **t** .

---

(١) **صحابي جليل:** كان في بداية حياته غلامًا صغيرًا يعيش في العراق في قصر أبيه الذي ولاه كسرى ملك الفرس حاكماً على الأُبُلَّة (البصرة حاليا)، حيث أغار الروم يوماً على بلدتهم، فأسروا أهلها، وأخذوه عبدًا، فعاش وسط الروم، تعلم لغتهم، ونشأ على طباعهم، ثم باعه سيده لرجل من مكة يدعى عبد الله بن جدعان، فتعلم فنون التجارة، حتى أصبح ماهرًا فيها، ولما رأى منه الشجاعة والذكاء والإخلاص في العمل، أنعم عليه فأعتقه. وعندما أشرقت في مكة شمس الإسلام، كان صهيب ممن أسرع لتلبية نداء الحق، فأعلن إسلامه، تاركاًوراءه ثراء كبيراً لأهل مكة لقاء الخروج منها واللحوق بركب الهجرة مع النبي **r** . وكان صهيب تاجرًا ذكيًّا، فتاجر بماله ونفسه في سبيل مرضاة ربه، واستحقَّ ما روي عن رسول الله **r** أنه قال: (صهيب سابق الروم) [ابن سعد]. وشارك صُهيب في جميع غزوات الرسول، فها هو ذا يقول: لم يشهد

ولا يعني هذا أنّ المؤمن، وبخاصة من تَرْجَمَ إيمانه إلى واقع حي، وحوَّله إلى عمل صادق، لا يدرك جماليات اللذات كما الآخرون، فهو إنسان، مثل أولئك الذين خضعوا للذّات بفارق بيّن، أنّ الأول أدرك اللذة تلك، فجعلها ضمن خطة توصله إلى الغاية الكبرى. أما الآخرون فقد طلبوا اللّذات لذاتها، فهي عندهم الغاية والوسيلة، فيما أنّ بين الغاية والوسيلة، بونا شاسعاً كما بين السماء والأرض والذهب والنحاس. من هنا فإنّ الموت القادم الذي لا مفرَّ منه، وهو يهدم لذّات المؤمن، يدرك أنّ هدمه يُحزن صاحبه ولكن لا يخرجه عن طوره. فقد **فهم المؤمن رسالة الموت وعرف أدواته. وهو عاش على حذَر سواء بقيت مفردات اللذات أو لم تبقَ. فذلك كله وسيلة تخدم غايته إلى الله، فجاء الموت ليضعه في أول طريق الآخرة الحقة** واللذات الدائمة من دون انقطاع. بينما الآخرون إذا ما مسهم فقد اللذات رأيتهم في كل وادٍ، من أودية العذاب النفسي، يهيمون. فهم لا يعتقدون بآخرة، أو يظنون أنها "الدنيا" فحسب، فإن هلكت لذاتهم فيها هلك عندهم كل شيء!!

رسول الله r مشهدًا قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزوة قط إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله بيني وبين العدو قط حتى تُوُفِّيَ. وواصل جهاده مع الصِّديق ثم مع الفاروق عمر y وكان كريمًا جوادًا، يطعم الطعام، وينفق المال، وكان عمر t يعرف لصهيب فضله ومكانته، فعندما طُعن أوصى بأن يصلي صهيب بالناس إلى أن يتفق أهل الشورى على أحد الستة الذين اختارهم قبل موته للخلافة؛ وكان طيب الخلق، ذا مداعبة وظُرف، فقد رُوي أنه أتى المسجد يومًا وكانت إحدى عينيه مريضة، فوجد الرسول وأصحابه جالسين في المسجد، وأمامهم رطب، فجلس يأكل معهم، فقال له النبي r مداعبًا: (تأكل التمر وبك رمد؟) فقال صهيب: يا رسول الله، اني أمضغ من ناحية أخرى (أي: آكل من ناحية عيني الصحيحة). [ابن ماجه]، فتبسم رسول الله وظل صهيب يجاهد في سبيل الله حتى كانت الفتنة الكبرى، فاعتزل الناس، واجتنب الفتنة، وأقبل على العبادة حتى مات بالمدينة سنة (٣٨هـ)، وعمره آنذاك (٧٣) سنة، ودفن بالبقيع. وقد روى صهيب t عن النبي r أحاديث كثيرة، وروى عنه بعض الصحابة والتابعين y

الفصل الخامس:

سكرات الموت

في الأعم الأغلب عند المخلوقين، أنّ دورة الشيخوخة يمر بها كثيرون، فيدركون مراحل الحياة المختلفة، حتى إذا جاء أحدهم الموت وقدّم بين يديه السكرات، وهي، على ما يُروى ويُشاهد، الأصعبُ في الحياة، أدرك أن نهايته أزفت. فها هو الطب يقف عاجزاً، فلا علاج ولا دواء ينفع، ولا درهم ولا دينار يغني، ولا مُلكٌ ولا جاه يفيد، فالطريق رسمت والنهاية توضحت ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ **القيامة.** سواء في ذلك كل الناس، مؤمنين كانوا أو كافرين، مسلمين أو غير مسلمين، ملوكاً أو أفراداً من أفراد هذا الكون العجيب!! .

يقول **بشار بن برد**:

إنّ الطبيبَ بطبِّه ودوائه ... لا يستطيعُ دفاعَ محذورٍ أتى
ما للطبيب يموتُ بالداءِ الذي ... قد كان يُبْري مثلَه فيما مضى
ذهب المداوِي والمداوى والذي ... جلبَ الدواء وباعه ومَنِ اشترى

وقد شرح القاضي **منذر بن سعيد البلوطي**[1] مرحلة الحياة هذه بقوله:

---

(١) **البلوطي:** هو القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد القرطبي الفقيه المالكي الشهير بالبلوطي، قاضي قضاة الأندلس، ومركزه قرطبة. ولد سنة ٢٧٣ هـ وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٥٥ خمس وخمسين وثلاثمائة هـ. له من التصانيف الإبانة عن حقائق أصول الديانة، أحكام القرآن، الرد على أهل المذاهب، ناسخ القرآن ومنسوخه. وكان إماماً فقيهاً، خطيباً، شاعراً، فصيحاً، ذا دين متين، وله موقف مميز إذ أنكر على عبد الرحمن الناصر البذخ في بناء قصره وكان لا يخاف في الله لومة لائم. ويروى أنه قحط الناس في الأندلس وأرادوا الخروج للاستسقاء، فأرسل إليه عبد الرحمن الناصر يطلب إليه الخروج لصلاة الاستسقاء، فقال القاضي للرسول: يا ليتَ شعري ما الذي يصنعه الأمير يومنا هذا؟ فقال: ما رأيته قط أخشع منه الآن، قد لبس خشن الثياب، وافترش التراب، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترف بذنوبه،

يـا مقيمـاً قـد حـانَ منـه رحيـلُ بعـد ذاك الرحيـلِ، يـومٌ عـصيب
إنّ للمـوتِ سـكرةً فارتقبْهـا لا يـداويك، إذا أتتـك، طبيـب[1]

ويتمنى المخلوق أن ينجو من السكرات لكن هيهات هيهات ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ ق. وقد ردَّد **أبو بكر الصديق t** هذه الآية يوم حشرجت نفسه، فتمثلت أمامه ابنتُه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقول الشاعر:

لعمرُك ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[2]. انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما، فإنّ الحيَّ إلى الجديد أحوج من الميت. فقالت عائشة رضي الله عنها عند موته:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل

فقال لها أبو بكر **t**: (ذاك رسول الله **r**). ودخل عليه "الناس" فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليّ طبيبي وقال لي: (إني فعّال لما أريد). وقال **سعيد بن المسيب**[3] **t** لما احتضر أبو بكر قال: (اللهم إنّك دبرت الأمور

ويقول: هذه ناصيتي بيدك، أتُراك تعذب هذا الخلق لأجلي؟ فقال القاضي: يا غلام احمل الممطر معك، فقد أذن الله بسقيانا، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء؛ فخرج واستسقى بالناس، فلما صعد المنبر ورأى الناس قد شخصوا إليه بأبصارهم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ **الأنعام**، وكررها، فضج الناس بالبكاء والتوبة، وتم خطبته فسقي الناس.

(١) أحوال الموتى وأمور الآخرة، مرجع مذكور، ص ٦٢.

(٢) اقتصرتُ هنا على ذكر سكرات الموت للنبي **r** ولخلفائه الراشدين الأربعة وعمر بن عبد العزيز وبعض الصحابة **y** والتابعين وبعض الخلفاء والصالحين، وتجد أحداث سكرات أخرى في كتب الحديث والفقه والتاريخ كما تجد بعضها في باب الرثاء لولدي مؤمن ـ رحمه الله ـ في كتابي الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء).

(٣) **سعيد بن المسيب القرشي**، ولد لسنتين من خلافة عمر بن الخطاب **t** في ١٤ للهجرة، من كبار أهل العلم في الحديث، والفقه والتفسير القرآني، يعتبر سيد فقهاء المدينة والتابعين، روى عن عدد من الصحابة وبعض أمهات المؤمنين وكان أعلم الناس بسيرة النبي محمد **r** ويقال له فقيه الفقهاء. كان رجلاً وقوراً له هيبة عند مجالسيه، يغلب عليه الجد عفيفاً معتزاً بنفسه لا يقوم لأحد من أصحاب السلطان، ولا يقبل عطاياهم ولا هداياهم ولا التملق لهم،

وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني إليك زُلفى.. اللهم أنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1] .

من معاني السكرات:

السَّكْرَة ضد الصحو، ومنها سكرة الهمّ وسكرة النوم، وهي، عند النزع والموت، حالة من الضياع وتشتت الذهن، واضطراب المزاج وفتور الجسم وتهاوي التماسك، وقد يصحبها ارتفاع في حرارة الجسم ومزيد من خفقان القلب أو ضعفه. **وبمعنى شامل تكون النفس والجسد في حالة مختلفة عن وضعهما المعتاد. وقد يدرك المرء أنّ ذلك من المؤشرات على قرب انقطاعه عن الدنيا وولوجه الآخرة.**

في قوله تعالى حكاية عن الكافرين ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ الحجر. أي حبست عن النظر وحُيِّرت، أو غُطيت وغُشّيت أي سُدَّت بالسحر، فنتخايل بأبصارنا غير ما نرى. وذهب **مجاهد**[2] إلى أنّ الأبصار غشيها ما منعها من النظر كما يمنع السّكْر الماء من الجري، ويقال سكرت عينه أو تسكر إذا مُنعتْ من النظر. وسَكَر البحرُ ركد.

وكان يعتاش من التجارة في الزيت. وطلب عبد الملك بن مروان، وكان والي المدينة المنورة في ذلك الوقت، يد ابنته فلم يوافق عليه زوجاً لها وفضَّل عليه رجلاً فقيراً من قومه يدعى كثير بن أبي وَدَاعة القرشي على مهر قدره درهمان، ومن أجل ذلك كانت علاقته بالولاة والحكام علاقة يشوبها التوتر؛ وزوجته هي أم حبيب الدوسية بنت أبي هريرة.

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ج ٤، ص ٥٧٧ و٥٧٨، ط ٢٠٠٨ ،دار الكتب العلمية، بيروت /لبنان.

(٢) **مجاهد بن جبر** الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج المكي الأسود، روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وابن عمر وغيرهم. يقول مجاهد عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقال عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت. وقال ابن سعد مجاهد ثقة فقيه عالم كثير الحديث. ويقال سكن الكوفة بآخره، وكان كثير الأسفار والتنقل. وقال مجاهد قال (لي) عمر ابن عبد العزيز: يامجاهد ما يقول الناس (في)، قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتُها وأن أعتق. قال: هاتها؛ فجاء بها فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد، مات مجاهد وله من العمر ٨٣ عام ١٠٢ هـ وهو ساجد.

أما سكرة الميت، فهي، كما ورد في لسان العرب، غشية تدل الإنسان على أنه ميت. وقوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالموت الحق، ويصف الله سبحانه الناس يوم البعث والنشور والحساب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج. ومعنى ذلك أنّك تراهم سكارى من الخوف والعذاب، وما هم بسكارى من الشراب. وهذا يدل على الشدة التي يلقاها الخلق، إذ يغدو حالهم في ذلك اليوم العصيب، أقرب إلى الضياع والتشتت والحيرة والإرباك والتخوف الشديد، لما قد ينتظرهم من ألوان العذاب، وقد نزل بهم لون واحد منه، فكيف بجميع العذاب الذي قد يصيبهم جزاءً وفاقاً، وهم لا يقدرون على تحمله؟!! وتلك حالة تشي بكثير من المعاني الصعبة والشديدة...**فالسكراتُ حالة شدة تأتي الميت الذي أمسى في النزع**، أعاننا الله عليها وخفف عنا شدتها ووطأتها.

غير أنّ السكرات، وإنْ كانت، كما وصفنا، تَغْشى البصرَ والنفسَ والجسدَ، إلا أنها في الوقت نفسه تكشف، لمن هو فيها من اليقين، ما يغدو معه، في حقيقة اليقين وعينه. فإن كان من المؤمنين ازداد يقينه بوعد الله فاطمأن، وإن كان غير ذلك، كانت تلك السكرات كشفاً له بما وُعد، وكان فيه يماري، أو ينكر أو يكذب. فإذا به، وهو في حالة النزع، تتأكد له الحقائق. لكنه لا يقدر أن يفارق نزعه ليعلن إيمانه، فقد بدأت إجراءات الموت الحاسمة وانتقاله إلى عالمي الآخرة، القبر ثم الخلود، في نارٍ أو نعيم.

وفي قوله تعالى﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، إتماماً لآية سكرة الموت، يقول ابن كثير في تفسيره: (إنّ (ما) هنا موصولة، أي الذي كنت منه تحيد، بمعنى تبتعد وتفر وقد حلَّ بك ونزل بساحتك) وذكر أيضاً قولاً آخر بأنّ (ما) نافية، بمعنى، ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه.

وعلى مرارتها، فإنّ النبي r ذاق شدة السكرات، فقد ثبت في الصحيح أنه r لما تغشَّاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: (سبحان الله! إن للموت

لسكرات). وهو وصف دقيق لما عاناه r ، وكان ذلك آخر عهده بالحياة، وهو ما سنشير إليه لاحقاً.

وذكر ابن كثير في تفسيره لسورة (ق) أنّ الإمام أحمد رحمه الله مرض مرَضَ الموت، وكان في سكراته يئن من شدة الألم، فبلغه عن طاووس أنه قال: (يَكتبُ المَلَك كلَّ شيء حتى الأنين) فلم يئن الإمام أحمد بعدها أبداً حتى مات.

إذاً، سكرةُ الموت غشيتُه وشدتُه وتلك هي سكرة واحدة، فكيف بسكراته مجتمعة إن جاءت؟ أعاننا الله عليها إنه سميع مجيب!!.

❖ ❖ ❖

مشاهد من سكرات الموت عند النبي r وبعض الصحابة y وآخرين:

١ ـ وقد سبق أبا بكر t النبيُ r مُحَمَّد في سكرات الموت. فقد روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أنه لما احتضر النبي r ، دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أبي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ r ، وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إلى صَدْرِي، وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ، فَأَبَدَّهُ[1] رَسُولُ اللَّهِ r بَصَرَهُ، فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إلى النَّبِيِّ r ، فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ r اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ r ، رَفَعَ يَدَهُ أو إِصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ثَلاثًا ثُمَّ قَضَى...).

وفي موت رسول الله r أكثر من صورة ومشهد، ذُكرت رواياتهما في سيرة ابن هشام[2]، فمنها:

عن **عبد الله بن كعب بن مالك**[3] أن رسول الله r صلّى في يوم، ثم خطبهم فـ (استغفر لأصحاب أُحُد... ثم قال: يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً:

---

(١) أبَدَّ بصره إلى السواك أي أعطاه بُدَّته من النظر أي حظه (انظر مادة أبد في لسان العرب).

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ، ٦٥١الطبعة الثانية سنة ١٣٨٤/١٩٥٥ .

(٣) هو **أبو عبد الرحمن الأنصاري المدني**، من الخزرج، قَالَ الْبَغَوِيّ: "وُلد على عهد النبي r "، وكان كعب بن مالك قد عمي، وكان ابنه عبد الله قائدَه من بين بنيه، وَرَوَى عبدُ الله بن كعب عن: عمر، وعثمان، وعلي، وأبي أُمَامة

أَحْسِنُوا إلى مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ. إنّهم كانوا عَيْبتي التي أَوَيْتُ إليها) ـ أي موضع ثقتي وسرِّي ـ قَالَ عَبْدُ اللّهِ: (ثُمّ نَزَلَ رَسُولُ اللّهِ r فَدَخَلَ بَيْتَهُ، وَتَتَامّ بِهِ وَجَعُهُ حَتّى غُمِرَ).

وفي سيرة ابن هشام أيضاً، أنّ عائشة رضي الله عنها، بعد أن وصفت كيف استنَّ رسول الله r بالسواك، قالت: وَجَدْتُ رَسُولَ اللّهِ r يثقل في حجري، فلبثت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: (بَلْ الرّفِيقُ الْأَعْلَى مِنْ الْجَنّةِ)، قَالَتْ فَقُلْت: خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ وَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ، قَالَتْ وَقُبِضَ رَسُولُ اللّهِ r [1].

ثم روى ابن هشام أنّ بعض نِسَاء النبي r اجتمعن عنده، منهنَّ أم سَلَمَةَ، وَمَيْمُونَةُ، وَنِسَاء مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُنّ أَسَمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَعِنْدَهُ الْعَبّاسُ عَمّهُ فَأَجْمَعُوا أَنْ يَلُدّوهُ[2] وَقَالَ الْعَبّاسُ: لَأَلُدّنّهُ. قَالَ: فَلَدّوهُ، فَلَمّا أَفَاقَ رَسُولُ اللّهِ r قَالَ مَنْ صَنَعَ هَذَا بِي؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ عَمّك، قَالَ هَذَا دَوَاءٌ أَتَى بِهِ نِسَاءٌ جِئْنَ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَأَشَارَ نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ قَالَ وَلِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ عَمّهُ الْعَبّاسُ: خَشِينَا يَا رَسُولَ اللّهِ أَنْ يَكُونَ بِك ذَاتُ الْجَنْبِ[3]، فَقَالَ إنّ ذَلِكَ لَدَاءٌ مَا كَانَ اللّهُ U لِيَقْذِفَنِي [ليعذبني] بِهِ [4].

وقد يصحو المحتضر من غفوته، فيظن منْ حوله انّه شُفي وخرج من مرضه، وقد وقع ذلك للنبي r، وفق ما أورده ابن هشام من أنّ العباس t قال لعليّ بن

وغيرهم، وكان ثقة، وله أحاديث، ووَثّقه العجلي، وابن سعد، وأبو زُرْعة، وابن حبّان، وقال: مات سنة سبع أو ثمان وتسعين من الهجرة، وذُكِرَ أنَّ كعبًا كان يُكْنَى في الجاهلية أبا بشير، فكناه النبيُّ r أبا عبد الله، فكأنه كناه بولده هذا؛ فإنه كان أكبر أولاده، وذُكر أيضاً أنه كان وصيَّ أبيه، ومات في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ أو ٩٨ وروى له الجماعة إلا الترمذي.

(١) المرجع السابق، ج٤، ص ٦٥٤.

(٢) **لدّ:** أخذَ بلسانه فمده إلى أحد شقي الفم وصبّ الدواء في الشق الآخر.

(٣) **الجنب:** الدملة الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلى الداخل وقلما يسلم صاحبها. من علاماتها: الوجع تحت الأضلاع، وضيق النفس مع ملازمة الحمى والسعال، وهي في النساء أكثر.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الرابع، ص ٦٥١.

أبي طالب t ، بعد أن سأله الناس كيف أصبح رسول الله؟ فأجابهم أي عليّ: (أصبح بحمد الله بارئاً) فأخذ العباس يده وقال له: (يا علي إحلفْ بالله. لقد عرفتُ الموت على وجه رسول الله، كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلقْ بنا إلى رسول الله...)[1] .

وعن أسامة بن زيد قَالَ: (لَمّا ثَقُلَ رَسُولُ اللّهِ r ، هَبَطْتُ وَهَبَطَ النّاسُ مَعِي[2] إلى الْمَدِينَةِ، فَدَخَلْت عَلَى رَسُولِ اللّهِ r ، وَقَدْ أُصْمِتَ فَلَا يَتَكَلّمُ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَهُ إلى السّمَاءِ ثُمّ يَضَعُهَا عَلَيّ، فَأَعْرِفُ أَنّهُ يَدْعُو لِي)[3] .

وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً **من رواية الإمام أحمد** قالت: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ r قَبْلَ أَنْ يُتَوَفَّى، وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إلى صَدْرِي، يَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى") وعَنْها، رضي الله عنها، قَالَتْ فيما رواه الإمام الترمذي: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ r وَهُوَ بِالْمَوْتِ، وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أو سَكَرَاتِ الْمَوْتِ"). وقالت رضي الله عنها أيضاً، : (تُوُفِّيَ رسول الله r فِي ارْتِفَاعِ الضُّحَى وَانْتِصَافِ النَّهَارِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ)[4] وقال **العراقي**[5]: رَوَاهُ ابْنُ عَبْدِ

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٥٤.

(٢) كان رسول الله قد أمر بتسيير أسامة بن زيد وهو شاب له من العمر ١٧ سنة مع جيشه وفيه كثير من الصحابة إلى بلاد الشام، فبعد أن خرج من المدينة أقام حتى يستطلع أخبار النبي r فلما سمع باشتداد مرضه عاد بجيشه إلى المدينة ودخل على النبي r .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، مرجع مذكور، ص ٦٥١.

(٤) طرح التثريب في شرح التقريب، للحافظ العراقي.

(٥) وضع الحافظ أبو الفضل زين الدين **عبد الرحيم بن الحسين العراقي** (المتوفى: ٨٠٦هـ) كتاب التقريب في أحاديث الأحكام فما كان منها في الصحيحين ترك تخريجه وما كان في غيرهما أشار إلى مخرجه وبيّن زيادات الروايات المهمة وحذف الأسانيد واقتصر على ذكر أسانيده في المقدمة، فلما حفظ ابنه الكتاب - وقد ألفه له - ابتدأ بشرحه فترجم لرجال أسانيده ثم شرح بعض الأبواب، وقد شرح أكثرها وأتمها ابنه أحمد أبو زرعة ولي الدين (المتوفى في ٨٢٦هـ)، وقد أثنى العلماء على الكتاب فقال السخاوي: هو كتاب حافل. وهو يشرح الحديث على طريقة الفوائد المفردة كل واحدة عن الأخرى وتبلغ أحياناً العشرات. الطبعة المصرية القديمة - وصوّرتها دُور عدّة منها (دار إحياء التراث العربي).

الْبَرِّ؛ وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ مِنْ حَيْثُ التَّارِيخِ قَوْلُ مَنْ قَالَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ١٢ رَبِيعٍ الْأَوَّلَ، وَهُوَ قَوْلُ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ وَكَانَ عُمْرُهُ r ثَلَاثًا وَسِتِّينَ، وإليه ذَهَبَ الْجُمْهُورُ، وَقِيلَ سِتُّونَ).

❖ ❖ ❖

٢ ـ وعنِ ابْنِ عُمَرَ y ، قَالَ: لَمَّا طَعَنَ أبو لُؤْلُؤَةَ عُمَرَ [يعني عمر بن الخطاب t]، طَعَنَهُ طَعْنَتَيْنِ، فَظَنَّ عُمَرُ أَنَّ لَهُ ذَنْبًا فِي النَّاسِ لا يَعْلَمُهُ، فَدَعَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: مَنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: أبو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ عَبْدُ الْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَرَأَيْتُ الْبِشْرَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَبْتَلِنِي بِقَوْلِ أحد يُحَاجُّنِي بِقَوْلِ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. أَمَا إِنِّي كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُوجِ أَحَدًا، فَعَصَيْتُمُونِي...، ثم قَالَ: شَاوِرُوا الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ، وسَرَاةَ[1] مَنْ هُنَا مِنَ الأَجْنَادِ، ثُمَّ دَعَا بِشَرْبَةٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبَ، فَخَرَجَ بَيَاضُ اللَّبَنِ مِنَ الْجُرْحَيْنِ، فَعُرِفَ أَنَّهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: الآنَ لَوْ أَنَّ لِيَ الدُّنْيَا كُلَّهَا لافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ، وَمَا ذَاكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أنْ أَكُونَ رَأَيْتُ إِلا خَيْرًا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قولاً كريماً في عمر عارضاً عناوينَ مشرقةً في حياته، ثم فاجأه عمر t بقوله: (وَاللَّهِ إِنَّ الْمغرورَ مَنْ تَغُرُّونَهُ)، ثُمَّ قَالَ: أَتَشْهَدُ لِي يَا عَبْدَ اللَّهِ (يعني ابن عباس) عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ)، وطلب من ولده عبد الله أنْ يلْصِقَ خَدَّه بِالأَرْضِ، ثم قال: (وَيْلَكَ وَوَيْلَ أُمِّكَ يَا عُمَرُ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ، ثُمَّ قُبِضَ رحمه الله) رواه الطبراني في المعجم الكبير.

وجاء أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب **عمرَ بن الخطاب** y بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي الفارسي قائلاً له: (أسألُ اللّهَ لك أن يحشركَ مع صاحبيك) ثم قال: (مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ r يقول: (ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو

(١) جمعها سَرَوات، وهي سَرِيَّةٌ من سَرِيَّاتٍ وسَرَايا. وسراة كل شيء أعلاه يقال سراة النهار ارتفاعه (لسان العرب).

بَكْـرٍ وَعُمَـرُ) صحيح البخاري عن ابن عباس t ، فـإني كنـت لأرجـو، أو لأظـن أن يجعلك الله معهما. ودعا عمر ابنه عبد الله، وقال له: (يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنْ الدَّيْنِ فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا أو نَحْوَهُ، فـأمره أنْ أدِّ عَنِّي هَذَا الْمَالَ، وانْطَلِقْ إلى عَائِشَةَ أم الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْ يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلامَ، وَلا تَقُلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ).

٣ ـ وبعد استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب t ، استُشْهِدَ **عثمان بن عفان** t في داره، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وكان يقرأ القرآن. وروت جدة الزبير ابن عبد اللَّه بن الزبير بن العوام: لما ضُرب **عثمان** t بالمشاقص[1] [أدرك أنّ النهاية أزفت فأراد أن يستفتحها باسم الله] قال: "بسم اللَّه توكلت على اللَّه"، وإذا الدم يسيل على اللحية يقطر، والمصحف بين يديه، فاتكأ على شقه الأيسر، وهو يقول: "سبحان اللَّه العظيم"، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل عليه، إلى أن وقف الدم عند قول الله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ البقرة. وأطبق المصحف، وضربوه جميعًا ضربة واحدة). فأسلم الروح راضياً مرضياً إلى ربه الرحمن الرحيم.

وبلغ الخبرُ علياً وطلحة والزبير وسعداً، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر حتى دخلوا على عثمان، فقال عليّ لابنيه: كيف يُقتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ورفع يده فلطم الحسن، وضرب الحسين على صدره. وشتم محمد بن طلحة وعبد اللَّه بن الزبير، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله، فجاء الناس يُهرعون إليه، يريدون مبايعته فقال: (واللَّه إني لأستحي أن أبايع قومًا قتلوا عثمان، وإني لأستحي من اللَّه تعالى أن أبايع وعثمان لم يدفن". فافترقوا)[2].

---

(١) **المشاقص** مفردها مشقص ومعناه السهم العريض النَّصل.

(٢) لم يتوقع أحد من الصحابة أن يُقتل عثمان. وقد كان الحسن والحسين y ومعهما نفر من أبناء الصحابة يحرسون بابه، ولكن القتلة تسوَّروا عليه من دار مجاورة لداره. لقد قتلوه قتلة شنيعة ترتعد منها الفرائص، ومثلوا به وهو يتلو القرآن،

٤ ـ ثم كان استشهاد أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب t** في مسجده في الكوفة أمام السُّدة عند صلاة الفجر، إذ دخل فجعل ينادي الصَّلاةَ الصَّلاةَ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ابْنُ مُلْجَمٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فِي قَرْنِهِ ، فأُخِذَ ابْنُ مُلْجَمٍ فَأُدْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فقال له: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ؟ ثم قال: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، إِنْ هَلَكْتُ فَاقْتُلُوهُ كَمَا قَتَلَنِي، وَإِنْ بَقِيتُ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي، ... وقَالَ: يَا بني عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، أَلا لا يُقْتَلُ بِي إِلا قَاتِلِي، وَقَالَ عَلِيٌّ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ **y** : أَيْ بنيَّ أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ لِوَقْتِهَا، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَحِلِّهَا، وَحُسْنِ الْوُضُوءِ، فَإِنَّهُ لا تُقْبَلُ صَلاةٌ إِلا بِطَهُورٍ، وَأُوصِيكُمْ بِغَفْرِ الذَّنْبِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَالْحِلْمِ عَنِ الْجَهْلِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَالتَّثَبُّتِ فِي الأَمْرِ، وَتَعَاهُدِ الْقُرْآنِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاجْتِنَابِ الْفَوَاحِشِ، ثم ختم **t** بقوله: (أَسْتَوْدِعُكُمُ اللَّهَ وَأَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلامَ، ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلا بِلا إِلَهَ إِلا اللَّهَ حَتَّى قُبِضَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَغَسَّلَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بن جَعْفَرٍ، وَكَفَّنَ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ الْحَسَنُ تِسْعَ تَكْبِيرَاتٍ)[1] .

٥ ـ ولما ثقُل **على الحسن بن علي**[2] **y** ،أي عند الوفاة، دخل عليه الحسين فقال له: (لأي شيء تجزع ؟ تُقْدِمُ على رسول الله وعلى علي بن أبي طالب وهما

فضربه بعضهم بحديدة، وبعضهم ضربه بمشقص، وطعنه آخر بتسع طعنات، وكسر الآخر ضلعاً من أضلاعه. ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا على امرأته المخلصة نائلة بنت الفرافصة بالسيف وبذيء الكلام، وأرادوا قطع رأسه بعد أن فارق الحياة، ونهبوا أمتعة المنزل وما في بيت المال، وكانوا قد منعوا عنه الماء أثناء الحصار). شهد جنازته علي وطلحة وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، وعامة من أصحاب النبي. وعن الحسن **t** قال: شهدت عثمان بن عفان دفن في ثيابه بدمائه، وفي البخاري أنه لم يغسل. (انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك).

(١) لقراءة وصية أمير المؤمنين علي **t** راجع المعجم الكبير للطبراني، وفيها وصايا رائدة ورائعة تكاد تلخص الإسلام كله.

(٢).**الحسن بن علي بن أبي طالب t** جدّه محمد بن عبد الله **r** من ابنته فاطمة ولد في النصف من شهر رمضان سنة ٣ للهجرة وتوفي في ٧ صفر سنة ٥٠ للهجرة ودفن في البقيع بالمدينة النبوية. وسمّاه النبي «الحسن» وقد أذن **r** في

أبواك، وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمَّاك، وعلى حمزة وجعفر وهما عمَّاك! قال: يا أخي أقدمُ على أمر لم أقدمْ على مثله)[1].

٦ ـ ولما أتى **معاويةَ** بن أبي سفيان **t** الموتُ، وكان جالساً على كرسي الحُكم في دمشق صاح (أنزلوني على التراب)، فلما أنزلوه كشف البساط ووضع خدّه على التراب وراح يبكي طويلاً؛ ونقل الإمام **الغزالي**[2] في الإحياء

أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، أمضى الحسن مع النّبيّ **r** ما يناهز ثماني سنوات من حياته، وكان يحبّه حبّاً شديداً، وكثيراً ما كان يحمله على كتفيه ويقول: «اللّهمَّ إنّي أُحبُّه فأحِبَّه» **متفق عليه عن البراء بن عازب t** .

ويقول أيضاً: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». **الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري t** .وقد اتخذه النّبيّ شاهداً على بعض عهوده، بالرّغم من صغر سنّه، وقد ذكر الواقدي، أنّ النّبيّ عقد عهداً مع ثقيف، وقد كتبه خالد بن سعيد، والحسن والحسين شاهدان عليه. وشارك الحسن في فتح شمال أفريقيا وطبرستان، ووقف مع أبيه في موقعة الجمل وصفين وحروبه ضد الخوارج. بويع بالخلافة ومارس الحكم مدة ٦ شهور، وقيل ٨ أشهر، وكان أول من بايع الحسن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، فقال: أُبسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال المخالفين فقال الحسن: "على كتاب الله وسنة رسوله فإنهما ثابتان" أي رفض التعهد بالقتال. وكادت أن تندلع الحرب بين الحسن ومعاوية وأنصاره من الشام، إلا أنه كان حريصاً على وحدة المسلمين وعدم تفرقهم، فتنازل عن الخلافة لصالح معاوية، وأنهى الفتنة، ومنع إراقة الدماء. وقيل كان تسليم الحسن الأمر إلى معاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين فلما تنازل عن الحكم أصلح الله بذلك بين فئتي المسلمين، كما أخبر بذلك رسول الله **r** حين قال: « إِبْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ» **البخاري.** وسمي العام الذي تنازل فيه الحسن عن الرئاسة لمعاوية بعام الجماعة، وكان ذلك سنة (٤٠هـ). قد رُوي عن النبي **r** أنه قال: " الْخِلَافَة بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَة ثُمَّ تَصِير مُلْكًا عَضُوضًا " **فتح الباري لابن حجر من حديث سفينة.** وكان آخر الثلاثين يوم انحرف الناس عن الإمام الحسن وبويع معاوية.كان أشبه الناس بجده رسول الله في وجهه فقد كان أبيض مشرباً بالحمرة، من أقواله وحكمه: (لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً) و(ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم) و(اللؤم أن لا تشكر النعمة) و(الخير الذي لا شر فيه: الشكر مع النعمة، والصبر على النازلة) و(لا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك الدارين جميعاً، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً). وأحصى الذهبي للحسن تسع زوجات، وله من الأبناء عشرون وآخر أبنائه عمر وأبو بكر **y** جميعاً.

(١) الإحياء، مرجع مذكور ص ٥٨١.

(٢) هو **أبو حامد** محمد بن محمد بن أحمد **الغزالي** الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الملقب بحجة الإسلام وزين الدين (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م)، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين السنة في التاريخ الإسلامي. ولد أبو حامد الغزالي في قرية "غزالة" القريبة من طوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨م، وإليها ينسب. ونشأ في بيت فقير من عائلة خراسانية فقد كان والده رجلاً زاهداً ومتصوفاً لا يملك غير حرفته. توفي أبو حامد الغزالي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩

فقال: لما حضرته الوفاة ـ أي لمعاوية ـ قال: أقعدوني، فأُقْعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره، ثم بكى وقال: تَذْكُر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي، ذا القلب القاسي، اللهم أقِل العثرة، واغفر الزلة، وعُدْ بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولم يثقْ بأحد سواك). ثم التفت إلى ابنه يزيد قائلاً:

(ويا يزيد إذا وفّى أجلي فولِّ غسلي رجلاً لبيباً، فإنَّ اللبيب من الله بمكان، فليُنْعِم الغسل وليَجْهَر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي r وقراضة[1] من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني. ويا يزيد احفظْ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي، ووضعتموني في حفرتي، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين). وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: (يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى وأنّي لم ألِ من هذا الأمر شيئاً).

٧ ـ ولما حضرتْ **عبدَ الملك بن مروان** الوفاةُ، نَظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: "ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدي يوماً بيوم ولم ألِ من أمر الدنيا شيئاً"، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه". وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[2].

ديسمبر ١١١١م.، في مدينة طوس، وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: عليك بالإخلاص فلم يزل يكررها حتى مات.

(١) **القَرْضُ**: القَطْعُ. قَرَضه يَقْرِضُه، بالكسر، قَرْضاً وقَرَّضَه: قطَعه. والقُراضةُ ما سقَط بالقَرْضِ، ومنه قُراضةُ الذَّهب والقُراضةُ فُضالةُ ما يَقْرِضُ الفأْرُ من خبز أو ثوب أو غيرهما، وكذلك قُراضاتُ الثوب التي يَقْطَعُها الخَيّاطُ. (لسان العرب).

(٢) الإحياء، مرجع مذكور، ص ٥٨٢.

٨ ـ وهذا **عمرو بن العاص**[1] **t** المجاهد فاتح مصر، وهو في حشرجة الموت، يُجري أمام ولده عبد الله جردة حساب بزلاّته وجهاده، فيصف بُغضه للنبي **r** أيام الجاهلية، ثم كيف أسلم، ثم كيف صاحبَ النبي **r** ثم قال: (لعبت بي الدنيا ظهراً لبطن، فما أدري هل يؤمر بي إلى الجنة أو يؤمر بي إلى النار؟ ولكن معي كلمة سوف أحاجّ بها عند الله، ثم قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم قبض يده فغسل، ويده مقبوضة، وأدخل كفنه وقبره، ويده لا تزال مقبوضة).

وفي رواية طريفة ذكرها **ابن خلِّكان** في تاريخه (لما اشتدت ـ أي سكرات الموت ـ على **عمرو بن العاص** سمع البكاء مِنْ حولِه فقال: أحضِرُوني الساعة بأربعة آلاف بالسلاح، فلما حضروا قال: يكون ألف بباب المدينة، وألف بالسفح عند بَني وائل، وألف بالجيزة وألف على الجبل، فقال له ابنه: وما يصنعون؟ فقال:

---

(١).ولد **عمرو بن العاص** في الجاهلية والده العاص أحد سادة العرب، شرح الله صدره للإسلام في العام الثامن من الهجرة، ومنذ ذلك الحين كرس عمرو حياته لخدمة المسلمين فكان قائداً فذاً تمتع بذكاء ودهاء كبيرين، ولاه الرسول **r** قائداً على الكثير من البعثات والغزوات، فكان أحد القادة في فتح الشام ويرجع له الفضل في فتح مصر. بعد وفاة الرسول **r** وفي خلافة أبي بكر **t** قام بتوليته أميراً على أحد الجيوش الأربعة التي اتجهت إلى بلاد الشام لفتحها، وبعد أن تم فتحها، انتقل ليكمل مهامه في مدن فلسطين ففتح منها غزة، سبسطية، ونابلس ويبني وعمواس وبيت جيرين ويافا ورفح. ثم توجه نظره إلى مصر، فرغب في فتحها فأرسل إلى عمر بن الخطاب ليعرض عليه الأمر فأذن له. وقضى عمرو ابن العاص في فتح مصر ثلاث سنوات، وقد استقبله أهلها بالكثير من الفرح والترحيب لما عانوه من قسوة الروم وظلمهم، وقد كانوا خير العون لعمرو بن العاص ضد الروم، وكان عمرو يقول لهم: يا أهل مصر لقد أخبرنا نبينا أن الله سيفتح علينا مصر وأوصانا بأهلها خيراً، كان للأقباط رئيس ديني يدعى بنيامين وقد تعرض للقهر من الروم فاضطر للفرار، وعندما علم المسلمون بالأمر بعد الفتح أرسلوا إليه ليبلغوه أنه في أمان، وعندما عاد أحسنوا استقباله وأكرموه، وولوه رئاسة القبط. بعد حين علم ملك الروم أن الحامية الإسلامية بالإسكندرية قليلة العدد، فانتهز الفرصة وأرسل بثلاثمائة سفينة محملة بالجنود، وتمكن من اختراق الإسكندرية واحتلالها وعقد العزم على السير إلى الفسطاط، وعندما علم عمرو بن العاص بذلك عاد من الحجاز سريعاً وجمع الجيش من أجل لقاء الروم ودحرهم، وكانت الغلبة لجيش المسلمين، ولم يكتفِ ابن العاص بهذا بل حرر الإسكندرية من جديد وساعد أهلها لاسترداد ما فقدوه نتيجة لظلم الروم وفسادهم أثناء فترة احتلالهم للمدينة. قام عثمان بن عفان **t** بعزل عمرو عن ولاية مصر ثم عاد إليها في عهد معاوية واستمر والياً عليها حتى وفاته عام ٤٣ هـ .من آخر كلماته قبل وفاته وقيل: عند حشرجته: "اللهم أمرتنا فعصينا.. ونهيتنا فما انتهينا.. ولا يسعنا إلا عفوك يا أرحم الراحمين".

يمنعون مني الموت، فقال ومن يقدر على هذا ؟ قال: فما هذا البكاء؟ يعني أنَّ الموت لا يرده شيء، فما فائدة البكاء)؟[1]

٩ ـ وروي عن السيدة فاطمة، زوج **عمر بن عبد العزيز t** ، أنها قالت: عندما داهمت عمرَ الوفاةُ قال: (قوموا عني فإني أرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة، ما هم بجنٍ ولا إنس)، فقمنا وتركنا وتنحينا عنه، وسمعناه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴿٨٣﴾﴾ القصص. ثم خَفَتَ الصوت. فقمنا فدخلنا فإذا هو ميْتٌ مغمضُ العينين مسَجَّى ...[2] وقيل له لما حضره الموت: اعهدْ يا أمير المؤمنين! قال: (أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بد لكم منه)[3] .

وروي أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشِرْ فقد أحيا الله بك سنناً، وأظهرَ بك عدلاً! **فبكى ثم قال: أليس أوقف فأُسألُ عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفتُ على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه،** فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات. وروي أيضاً أنه لما قرب وقت موته قال: أجلسوني! فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر، فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى حضرة (أي حضوراً)؛ ما هم بإنس ولا جنّ) ثم قبض رحمه الله.

---

(١) سلوة الحزين، مرجع مذكور، ص ١٢١ و١٢٢.

(٢) صَحِبَ عمر بن عبد العزيز مزاحم وأخوه سهل مع ابنه، أي ابن عمر عبد الملك، إلا أنهم لم يعمّروا طويلاً فماتوا، عندها اغتمّ عمر كثيراً، ثم قام وتوضّأ فصلى ركعتين، وأنشأ يدعو: (اللهم إنَّك قد قبضتَ سهلاً وعبد الملك ومزاحماً. وكانوا أعواني على ما قد علمت . فلم أزدد لك إلا حباً، ولا فيما عندك إلا رغبة، فاقبضني إليكَ غير مضيع ولا مفرط). فمرض عمر مرضاً شديداً. وكان قد دُسّ له السم. فدعا بعبد الله بن أبي زكريا. وكان من علماء أهل الشام، فلما أتاه قال له عمر:يا ابن أخي زكريا هل تدري لِمَ بعثْتُ إليك؟ قال: لا! قال: لأمر لست ذاكره لك حتى تحلفَ لي، قال: يا أمير المؤمنين لا تسألني شيئاً إلا فعلته، قال له: فاحلفْ لي، فلما حلفَ له ، قال: ادعُ الله أن يميتني، قال: بئس الوافد أنا للمسلمين، وأنا إذاً عدو لأمة محمد r .قال: هاه قد حلفت لي، فقال: الحمد لله ودعا له ثم قال: اللهم لا تبقني بعده، فمات عمر ومات ابن أبي زكريا خلفه...

(٣) الإحياء، مرجع مذكور، ص ٥٨٢.

١٠ ـ لما حضرت **بلالاً**[١] t الوفاةُ قالت امرأته (واحُزْناه) فقال: (بل واطَرَباه! غداً نلقى الأحبة محمّداً وصَحْبَه).

١١ ـ ولما حضرت **معاذ بن جبل**[٢] t الوفاة قال: (اللّهم إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك). ولما اشتد به نزع الموت، ونزع نزعاً لم ينزعه أحد،

---

(١) **.بلال بن رباح الحبشي**، صحابي جليل كان عبدا من عبيد قريش أعلن إسلامه فعذبه سيده أمية بن خلف فابتاعه أبو بكر الصديق t وأعتقه، اشتهر بصبره على التعذيب وقولته أحد أحد، كان صوته جميلا فكلفه الرسول بمهمة الأذان.وعاش بلال مع الرسول r يشهد معه المشاهد والغزوات كلها، وجاء فتح مكة، ودخل الرسول الكعبة ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وقد دخل بلال على رسول الله وهو يتغدّى فقال رسول الله r لِبِلَالٍ: (الْغَدَاءُ يَا بِلَالُ) فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ r : (نَأْكُلُ أَرْزَاقَنَا وَفَضْلُ رِزْقِ بِلَالٍ فِي الْجَنَّةِ أَشَعَرْتَ يَا بِلَالُ أَنَّ الصَّائِمَ تُسَبِّحُ عِظَامُهُ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ مَا أُكِلَ عِنْدَهُ) **ابن ماجه في سننه.** وتوفي بلال t في الشام مرابطاً في سبيل الله كما أراد سنة عشرين للهجرة، ويوجد قبر ومدفن ومقام للصحابي الجليل بلال بن رباح في دمشق.

(٢) **معاذ بن جبل** من بني جشم من الخزرج. قال الواقدي وغيره: كان معاذ بن جبل طوالاً حسن الشعر عظيم العينين أبيض براق الثنايا. وله ولد سمي عبد الرحمن قاتلَ معه يوم اليرموك، وبه كان يكنى، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وآخى رسول الله r بينه وبين عبد الله بن مسعود وقيل بين معاذ بن جبل وبين جعفر بن أبي طالب. شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، وبعثه النبي r قاضياً إلى الجند من اليمن، يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، وكان رسول الله r قد قسم اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد على صنعاء والمهاجر ابن أبي أمية على كندة وزياد بن لبيد على حضرموت ومعاذ بن جبل على الجند وأبي موسى الأشعري على زبيد وعدن والساحل. قال ابن إسحاق: والذين كسروا آلهة بني سلمة معاذ ابن جبل وعبد الله بن أنيس وثعلبة بن غنمة وقال رسول الله r : "أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل" .كما قال r : "يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء". وعن عبد الله بن كعب بن مالك t عن أبيه قال: كان معاذ رجلاً شاباً جميلاً من أفضل سادات قومه سمحاً لا يمسك فلم يزل يدان حتى أغلق ماله كله من الدين فأتى للنبي r فطلب إليه أن يسأل غرماءه أن يضعوا له فأبوا ولو تركوا لأحد من أجل أحد لتركوا لمعاذ من أجل النبي r فباع النبي ماله كله في دينه (أي اشترى بماله دين معاذ) حتى قام معاذ بغير شيء (أي لم يبق عنده شيء مما يُتملك) حتى إذا كان عام فتح مكة بعثه النبي r إلى طائفة من أهل اليمن ليجبره . أي يعينه . وقال المدائني: **مات معاذ بن جبل بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة** وعمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس. قال أبو عمر: كان عمر قد استعمله على الشام حتى مات من عامه ذلك في الطاعون فاستعمل موضعه عمرو بن العاص. وروى الثوري عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان قال: كان عبد الله بن عمر يقول: حدثنا عن العاقلين. قال: من هما؟ قال: هما معاذ بن جبل وأبو الدرداء.

فكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه فقال: اخنُقْنِي خنْقَك، فَوَعِزَّتِك لتعلم أنِّي أحبك)[1].

١٢ ـ ودخل **الحسن t** على رجل يجود بنفسه فقال: (إنّ أمراً هذا أوَّلُه لجدير أن يُتّقى آخره، وإنّ أمراً هذا آخره لجدير أن يُزهد في أوله).

١٣ ـ وقال التابعي **أبو حازم الأعرج**[2] لما حضره الموت: ما آسى على شيء فاتني من الدنيا إلا على ذكر الله، وإنّ هذا الليل والنهار لا يأتيان على شيء إلا أخلفاه، وفي الموت راحة للمؤمنين ثم قرأ ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ **آل عمران**.

---

(١) الإحياء مرجع مذكور، ص ٥٨٣ كما أن ما نذكره بعد أسطر عن بلال والحسن والجنيد وهارون عن المرجع نفسه في ص ٥٨٢ و٥٨٣ و٥٤٨ و٥٨٥.

(٢) هو **سلمة بن دينار** المدني الزاهد، اشتهر بأبي حازم الأعرج، ولد في أيام ابن الزبير (بويع الزبير للخلافة سنة ٦٤ هـ - وتوفي في٧٣ هـ)، من عُباد أهل المدينة وزهادهم، من طبقة التابعين الرابعة، أصله من فارس، وعاش في المدينة وكان يقص بها، وزار الشام، وقدم على عمر بن عبد العزيز بخناصرة بالشام. ومن ملامح شخصيته الحكمة، جاء في حلية الأولياء عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، من كلماته جواباً على سؤال سليمان بن عبد الملك مالنا نكره الموت؟ فقال: عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة؛ فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب قال: صدقت فقال: يا أبا حازم، ليت شعري مالنا عند الله تعالى غدًا؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله قال: وأين أجده من كتاب الله تعالى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ ﴾ قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريبٌ من المحسنين. وسأله يا أبا حازم، من أكيس الناس؟ قال: رجل ظفر بطاعة الله تعالى فعمل بها، ثم دل الناس عليها، ولما شكا إليه الناس قائلين له: يا أبا حازم أما ترى قد غلا السعر؟ فقال: وما يغمكم من ذلك؟ إن الذي يرزقنا في الرخص هو الذي يرزقنا في الغلاء". وجاء في حلية الأولياء لأبي نعيم "قيل لأبي حازم: يا أبا حازم ما مالك؟ قال: ثقتي بالله تعالى وإياسي مما في أيدي الناس.ومر أبو حازم بأبي جعفر المديني وهو مكتئب حزين فقال: مالي أراك مكتئباً حزينًا وإن شئت أخبرتك قال: أخبرني ما وراءك؟ قال: ذكرت ولدك من بعدك قال: نعم قال: فلا تفعل **فإن كانوا لله أولياء فلا تخف عليهم الضيعة، وإن كانوا لله أعداء فلا تبال ما لقوا بعدك. ومن اقواله:"إنك لست في دار مقام قد أوذنت بالرحيل، طوبى لمن كان في الدنيا على وجل ما يأمن من أن يموت وتبقى ذنوبه من بعده"، "احذر فقد أتيت، وتخلص فقد وهلت"، "إنك تعامل من لا يجهل والذي يحفظ عليك لا يغفل"، "تجهز فقد دنا منك سفر بعيد، وداوِ دينك فقد دخله سقم شديد"، "كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية"**؛ كانت وفاته سنة ١٣٥هـ.

١٤ ـ وقال **الجريري**[١]: كنت عند **الجنيد**[٢] في حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ـ وهو يقرأ القرآن فختم فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني، وهو ذا تُطوى صحيفتي، وقيل له: (قل لا إله إلا الله، فقال ما نسيتُه فأذكُرُه).

وقيل إن أبا العباس دخل على الجنيد في وقت نزعه، فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال: اُعذرني فإني كنت في وِرْدي! ثم ولّى وجهه إلى القبلة وكبَّر ومات)[٣].

١٥ ـ وحكي عن **هارون الرشيد**[٤] ـ رحمه الله ـ أنّه انتقى أكفانه بيده عند الموت،وكان ينظر إليها ويقول: ما أغنى عني مالِيَه هلكَ عني سلطانيه، وفرش له

---

(١) إمام محدث ثقة، هو أبو مسعود سعيد بن إياس الجريري البصري من كبار العلماء، قال عنه أحمد بن حنبل هو محدث البصرة، وقيل: تغير حفظه قبل موته.

(٢) **أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري**، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، أصله من نهاوند في همدان (مدينة اذرية)، ومولده ومنشؤه ببغداد. قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: «هو من أئمة القوم وسادتهم؛ مقبول على جميع الألسنة». صحب جماعة من المشايخ، واشتهر بصحبة خاله سري السقطي. ودرس الفقه على أبي ثور، **وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة.**. من أقواله المشهورة: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول". "احذر الحسرة عند نزول السكرة فإن الموت آتٍ وقد مات قبلك من مات"."اتق الله وليكن سعيك في دنياك لآخرتك فإنه ليس لك من دنياك شيء، فلا تدخرن مالك ولا تتبع نفسك ما قد علمت أنك تاركه خلفك ولكن تزود لبعد الشقة، واعدد العدة أيام حياتك وطول مقامك قبل أن ينزل بك قضاء الله ما هو نازل فيحول دون الذي تريد، صاحِب الدنيا بجسدك، وفارقها بقلبك، ولينفعك ما قد رأيت مما سلف بين يديك من العمر وحال بين أهل الدنيا وبين ما هم فيه، فإنه عن قليل فناؤه، ومخوف وباله، وليزِدك إعجابُ أهلها زهداً فيها وحذراً منها فإن الصالحين كانوا كذلك". "اعلم يا ابن آدم أنّ طلب الآخرة أمر عظيم لا يقصر فيه إلا المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، وأخلِص عملك، واذا أصبحت فانتظر الموت، وإذا أمسيت فكن على ذلك، ولا حول ولا قوة الا بالله، وإنّ أنجى الناسِ من عمل بما أنزل الله في الرخاء والبلاء". توفي يوم السبت سنة ٢٩٧ هـ في بغداد وصلى عليه ولدُه وجَمْعٌ كثير.

(٣) إحياء علوم الدين، مرجع مذكور.

(٤) هو **الخليفة العباسي الخامس**، وهو هارون بن محمد ويتصل نسبه بـ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. ولد حوالي ١٤٥ هـ = ٧٦٣م. والدته الخيزران بنت عطاء. كان من أشهر وأعظم الخلفاء العباسيين والعرب. حكم بين ١٦٩ هـ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ م ـ ٨٠٩م. وهو أكثر الخلفاء العباسيين جدلاً خلال فترة حكمه، حيث قيل إنه من أكثر خلفاء الدولة العباسية جهاداً وغزواً واهتماماً بالعلم والعلماء، وعرف عنه أنه الخليفة الذي يحج

ابنه المأمون رماداً واضطجع عليه،وكان يقول: (يا من لا يزول ملكه ارحمْ مَنْ قد زال ملكه).

١٦ ـ وقال **عطاء بن يسار**[١] (تبدَّى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت! فقال: (ما آمنك بعد)، وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائدة.

١٧ ـ ودخل المُزَنيّ على **الشافعي**[٢] رحمهما الله في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً

عاماً ويغزو عاماً، وكان يلقب بأمير المؤمنين، قضى في الخلافة أكثر من ثلاث وعشرين سنة، وتعتبر هذه الفترة العصر الذهبي للدولة العباسية والعالم العربي. وقد دفن في مكان ما وكان في غزاة في طوس بخرسان، وقبره مجهول حتي اليوم. كما استعمل الرشيد الرقة عاصمة لهُ بين عامي ٧٩٦ و٨٠٨. وأنشأ بما يعرف ببيت الحكمة في بغداد وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض. قال السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج وقال أيضاً: وكان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب. وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص. وكان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي وأمه أم ولد اسمها خيزران. وكان أبيض طويلاً جميلاً وسيما إلى السمن ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة وله نظر جيد في الأدب والفقه وقد خطّه الشيب أغزاه أبوه بلاد الروم وهو حدث في خلافته. كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات ويتصدق بألف وكان يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه لا سيما إذا وعظ وكان يحب المديح حتى إذا جاء عام ١٩٢ هـ، خرج إلى خراسان لإخماد بعض الفتن والثورات التي أشتعلت ضد الدولة، فلما بلغ مدينة طوس اشتدت به العلة، وتوفي في ٤/جمادى الآخرة ١٩٣ هـ = ٢٤/مارس/٨٠٩م. **وكان عمره ٤٨ سنة.**

(١) **عطاء بن يسار**، تابعي، مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النبي محمد ﷺ ،كنيته أبو محمد. كان قاصاً واعظاً جليل القدر، روى عن أمهات المؤمنين مولاته ميمونة وعائشة بنت أبي بكر وعن زيد بن ثابت وأبي هريرة وابن عباس. طارده الحجاج فهرب إلى مكة مع تابعين آخرين فألقي القبض عليه وقتله الحجاج سنة ١٠٣هـ وهو ابن ٨٤ سنة.

(٢) هو **محمد بن إدريس القرشي الشافعي** يلتقي في نسبه مع النبي محمد ﷺ في عبد مناف بن قصي، زوجته حميدة بنت نافع ابن عبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان له ابنتان: فاطمة وزينب. ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ (وهي السنة التي توفّي فيها أبو حنيفة) في حيّ اليمن في غزة في فلسطين، وقيل في عسقلان. مات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران وصار يصيب من عشرة أسهم تسعة، ثم أقبل على العربية والشرع فبرع في ذلك وتقدم، ثم حُبب إليه الفقه، فحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، يقول عن نفسه: «كنت أنا في الكتاب أسمع المعلّم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان

وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري أرُوحي تصير إلى الجنة فأهنّيها أم إلى النار فأعزِّيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ رجائي نحو عفوكَ سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتُه ... بعفوك ربي كان عفوُك أعظما
فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرّما
ولولاك لم يُغْوَ بإبليسَ عابدٌ ... فكيفَ وقد أغوى صفيَّك آدما

ولما حضرت **أحمد بن خضرويه**[1] الوفاة، سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: (يا بني، باب كنت أدقُّه خمساً وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي. لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فآن لي أوان الجواب).

يكتبون ما يُملى عليهم فإلى أن يفرغ المعلّم من الإملاء عليهم قد حفظت جميع ما أملى، يقول الشافعي عن نفسه: «أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها، وحفظت القرآن فما علمت أنه مرّ بي حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد». اشتهر اسم مالك بن أنس في زمن الشافعي وتناقل الناس كتابه الموطأ، فأراد الشافعي أن يرحل إلى المدينة المنورة للأخذ عن مالك العلم، فكان أول ما فعله هو حفظ الموطأ، فحفظه في تسع ليالٍ، ثم قصد بعدها المدينة المنورة وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة وقيل: عشرين سنة، فقدم على مالك ومعه توصية من والي مكة إليه، فلما لقيه قال له مالك: «يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن». **من أقواله:** أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف. والله ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها لأن الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة. وسئل الشافعي عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي. وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «ما مس أحد محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منّة». ظهر فيه مرض البواسير وبسبب هذا المرض أنهكه النزيف وأعنته. وقد ترك الشافعي في مدة مرضه (أربع سنوات) ما يملا آلاف الورق من العلم، مع وصلة الدروس والأبحاث والمناظرات والمطالعات في الليل والنهار. **توفي** ليلة الجمعة بعد أن صلى المغرب، ودفن بعد عصر يوم الجمعة ٣٠ رجب سنة ٢٠٤ هـ، وقبره في مصر ويقول النووي عن قبره:"وقبره بمصر عليه من الجلال، وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام". وقد أمر صلاح الدين الأيوبي بعمل تابوت خشبي لقبر الشافعي مزخرف مؤرخ عليه سنة ٥٧٤ هـ واسم الصانع "عبيد أبو المعالي". كما وقد بُني على قبره قبة جددّها السلطان كُتب عليها:

الشافعي إمام الناس كلهم ... في العلم والحلم والعلياء والباس
له الإمامة في الدنيا مسلمة ... كما الخلافة في أولاد عباس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه ... خير المذاهب عند الله والناس

(١) **أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي**، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، من كبار مشايخ خراسان، وصفه الذهبي بـ "الزاهد الكبير الرباني الشهير" صحب أبا تراب النخشبي، وحاتماً الأصم، ورحل إلى أبي يزيد البسطامي توفي سنة ٢٤٠ هـ. **وله أقوال مأثورة منها:** الطريق واضح، والحق لائح،

١٨ ـ أما **المعتصم**[١] الخليفة العباسي، الذي نادته المرأة المسلمة الأسيرة في عمورية عند الروم بقولها (وامعتصماه)، فخرج بجيش قوامه تسعون ألفاً، فحررها من الأسر، وفتح عمورية. وكان ـ رحمه الله ـ قويَّ الجسد. قيل إنّه كان ينقش اسمه على الحديد بيده دون تحميته. ولما شارف الأربعين جاءه الموت فقال (أموت اليوم؟ والله لو ظننت أنني سأموت اليوم ما فعلت أيّاً من الذنوب). وخير وصف لمرحلة الوفاة هذه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ ق.

وصدق من قال:

فإذا النفوسُ تغرغرتْ ... بزفير حَشْرجةِ الصدورِ

فهناك تعلمُ مُوْقناً ... ما كنتَ إلا في غرورِ

١٩ ـ أما ابن المعتصم، **الواثق بالله هارون**[٢]، فقد اتّسم عهده بالتمادي في مسألة خلق القرآن، وقد قَتَل علماء كثيرين عارضوه، فطلب من وُلاته أن يمتحنوا الأئمة والمؤذنين بقضية الخَلْقِ هذه، ثم رجع عن ذلك في آخر أمره.

والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمل؛ لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رِق أملك من الشهوة ، وفي الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية، وقوله: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب: أولاها أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثانية أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالثة أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

(١) ولد **المعتصم بالله** سنة ١٧٩ هـ. وتُوفي في سامراء سنة ٢٢٧ هـ. بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بـ"طرطوس"كان المعتصم أبيض طويل اللحية، مربوعاً مشرباً بحمره، ذا شجاعة وهمة عالية، وقوة مفرطة بنى المعتصم مدينة "سُرَّ مَنْ رَأَى" أو "سَامِرَّاء"؛ كان المعتصم بالله ميالا لعمران الأرض وتشييد المباني لا ينسى التاريخ للمعتصم فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م وسجل أبو تمام هذا الفتح العظيم في قصيدة رائعة منها قوله: السيف أصدق إنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجد واللعب. كان محبّا للعنصر التركي، حتى اجتمع له منهم أربعة آلاف جندي. كانت خلافته **ثماني سنين وثمانية** أشهر **وثمانية** أيام، وهو **ثامن** الخلفاء من بني العباس، **وثامن** أولاد هارون الرشيد، ومات عن **ثمانية بنين وثماني** بنات، وتولى الخلافة سنة **ثمان** عشرة ومئتين، وفتح **ثمانية** فتوح فكان يلقب بـ"**المثمن**"، وكان معروفاً بطيبة النفس، وكان من أعظم الخلفاء وأكثرهم هيبة.

(٢) كان من أبرز مَنْ قتلَهُم الواثق بيده في محنة خلق القرآن أحمد بن نصر الخزاعي، وكان من أهل الحديث قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحضر الواثق أحمد بن نصر الخزاعي مقيداً من بغداد إلى سامراء حيث كان يقيم الواثق، وسأله عن القرآن فقال ليس بمخلوق ... فقال الواثق له تكذب. فقال للواثق بل تكذب أنت، فأفتاه الفقهاء المعتزلة

مات الواثق بمدينته (سُرَّ من رأى) سنة ٢٣٢ هـ ولما احتضر جعل يردد:

المـوتُ فيـه جميـعُ الخلـق مـشتركُ لا سـوقةَ مـنهم يبقـى، ولا مَلِـكُ

وحُكِيَ أنه لما مات تُرِكَ وحدَه، واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل، **فجاء جرذ فاستلَّ عينه فأكلها؟!!. فغدا مضربَ المثل في النهاية الوخيمة للظالم والطاغي.**

لن نستطرد في ذكر اللحظات الأخيرة في الاحتضار مَنْ سجَّلَ التاريخ أخبارهم، فهي كثيرة. وإنما اخترنا منها بعضها وأوثقها، وهو ما قدمناه آنفاً.

ومن أجمل ما سمعته عن سكرات الموت أنه أشبه بألم الولادة، وهو ألم تحتمله المرأة فهي تنتظر بعده المولود وهو الجائزة الكبرى. وسكرات الموت بالرغم من شدتها ومن الخوف الذي يرافقها إلا أنه خوف يلازمه الرجاء لما ينتظره الميت المؤمن من وعد صادق بعد الموت.

❖ ❖ ❖

من جهة أخرى، ومع أن شدة الاحتضار وتَغشّي سكراته قد تجعل المرء الميت في حالة اللاوعي أو تبقيه فيه، إلا إنّه قد يكون بإمكانه التحادث مع أهله ومَنْ حوله، أو يكون في إغفاءة لا صحو فيها، وفجأة يصحو ويتكلم ثم يعود إلى سكراته الشديدة، وربما يعود فيصحو، وقد تتعدد الصحوات، ثم يُسلم بعد ذلك الروح[1].

الذين حوله بضرب عنقه فدعا بالسيف... ثم مشى إليه فضرب عنقه وأمر بحمل رأسه إلى بغداد. فصلب بها، وصلبت جثته في "سر من رأى" ـ مدينة استحدثت في العراق وكان سكنها خلفاء من بني العباس وهي اليوم تعرف بسامراء ـ واستمر ذلك ست سنين إلى أن ولي الخليفة المتوكل فأنزله ودفنه، وذُكر أنّ الموكول إليه في حراسته بالليل، رأى الخزاعي يستدير إلى القبلة بوجهه فيقرأ سورة يس بلسان طلق، ورويت هذه الحكاية من غير وجه (!!!؟). قيل: إن الواثق له أصوات وألحان ، وكان حاذقاً بضرب العود راوياً للأشعار والأخبار.

(١) حدثني من أثق بصدقه فقال: توفي المهندس فواز حسن الرطل وهو من طرابلس/لبنان في نهاية عقده الرابع في شهر ١٠/ من العام ٢٠١١. بعد أن صارع المرض طيلة سنوات مبتلىً بالسرطان، وكان خلالها من الصابرين المحتسبين الراضين بقضاء الله تعالى، دخل في غيبوبة في ساعاته الأخيرة، فأشار الطبيب المعالج بنقله من المستشفى إلى بيته ليتوفى

وهكذا نجد أنّ سكرات الموت مُرّة وقاسية لا ينجو منها أحد، وهي من إجراءات الانتقال من الدنيا إلى العالم الآخر، تلك الدنيا التي يغدو المرء فيها، بعد موته، ذِكْراً عابراً، حسناً أو سيئاً أو لا شيء أبداً.ثم هناك، في داري البرزخ والآخرة، يُسألُ عن كل ما قدّم، ثم يكون عذاب القبر إن كان كافراً أو فاسقاً أو مقصراً، ثم تفتح له نوافذ يرى منها مقعده من النار ومقعده من الجنة لو أطاع اللّه ورسوله، وعكسه المؤمن الصالح فيرى مقعده في النار لو قصر أو كفر، ويرى مقعده في الجنة الذي سيؤول إليه. ثم يبعث من مرقده في يوم البعث، ثم يستوفي ثوابه أو عقابه كاملاً، كما سنرى، إلاّ أن تناله رحمة من ربه **U**.

بين أهله وأحبابه، وتحلقت العائلة من حوله، وهو في غيبوبته مستلقياً على سريره. وفي ليلة الوفاة انتبه من غيبوبته وفتح عينيه ورفع جسمه ليكون أقرب إلى الجلوس، مشيراً بسبابته اليمنى إلى الأمام، وخاطب أولاده وأهله وسط دهشتهم وذهولهم قائلاً: أتى الفرج... لقد أتوا .. أتوا... ها هم... (كأنه يرى ما لا يراه أهله) ،الآن بإمكانكم أن تحفروه (يعني القبر) ثم نطق بالشهادتين مغمضا عينيه وأسلم الروح.

الفصل السادس:

في مرحلة ما قبل الموت
المحتضر أمام خبط الشيطان!!

الصراع بين الإنسان والشيطان مستمر منذ الخلق الأول، وباقٍ حتى تنتهي الدنيا. ويبرز هذا الصراع، على أشده، في لحظات حياة الإنسان الأخيرة، عندما تغرغرُ الروح وتستعد للخروج من الجسد. وهي ساعة حرجة قد يضعف فيها الإنسان المؤمن، خاصةً بعد أن يبرع الشيطان في تلبيساته، فيعرضها بأحلى صورة وأبهى مقال، كما سنعرض لاحقاً، إلا أنّ المؤمن التقيّ يمكِنُه تمييز الحق من الباطل، فيكشف أحابيل الشيطان، منتصراً أخيراً على مَكْرِه ويخذله بإذن الله، فيصرخ الشيطان في وجهه، أنْ قد بصُرتَ وفُتِّني كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ **الأعراف** .

شرَح **الخطابي**[1] تخبيط الشيطان عند غرغرة الميت فقال: " هو أن يستولي [الشيطان] عليه عند مفارقة الدنيا فيضله ويَحُول بينه وبين التوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قِبَله، أو يؤيِّسه من رحمة الله أو يُكرّه له الموت، ويؤسفه على حياة الدنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة، فيُختم له بالسوء ويَلقى الله وهو ساخط عليه"[2].

---

(١) هو الإمام **أبو سليمان** حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي **الخطابي** ولد بمدينة بست (٣١٩ - ٣٨٨ هـ = ٩٣١ - ٩٩٨)، كان فقيهاً محدثاً أديباً تلقى الحديث في العراق. له مجموعة كتب منها: (معالم السنن في شرح سنن أبي داوود)، و(بيان إعجاز القرآن) باسم (إصلاح خطأ المحدثين) و(غريب الحديث) و(تفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاري) وله شعر أورد منه الثعالبي في (اليتيمة).

(٢). شرح سنن النسائي للإمام السيوطي، ج٧ ، ص ١٧١، في باب الاستعاذة من التردي والهدم.

بينما ذهب **الإمام الرازي**[1] في تفسيره الكبير عند قوله تعالى (الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ): إلى "أنّ الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير [ما يرضي] الله. فهذا هو المراد من مس الشيطان. ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا متخبطاً، فتارةً الشيطان يجره إلى النفس والهوى، وتارةً المَلَكُ يجره إلى الدين والتقوى، فحدثت هناك حركات مضطربة، وأفعال مختلفة، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان".

وما أدق **قول الإمام القرطبي** إذ يقول: (إن عند استقرار النفس في الترقّي والارتفاع تعرض عليه الفتن، وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة، واستعملهم عليه ووكّلهم به، فيأتون المرء و هو على تلك الحال، فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحباب الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا، كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم)... (ويذكرون له عقائد كل ملّة[2]، فعند ذلك يُزيغ الله من يريد زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ

---

(١) **محمد بن عمر بن الحسن** المعروف بفخر الدين الرازي (من بني تيم من قريش يلتقي مع أبي بكر الصديق). وهو إمام مفسر شافعي، عالم موسوعي امتدت بحوثه ودراساته ومؤلفاته من العلوم الإنسانية اللغوية والعقلية إلى العلوم البحتة في: الفيزياء، الرياضيات، الطب، الفلك، ولد في طبرستان. رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان. وأقبل الناس على كتبه يدرسونها، وكان يحسن الفارسية. ولقب بشيخ الإسلام. ناصر الأشاعرة، ورد على الفلاسفة والمعتزلة، وكان إذا ركب يمشي حوله ثلاث مئة تلميذ من الفقهاء، من أهم تصانيفه: التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، وقد جمع فيه ما لا يوجد في غيره من التفاسير، وله "المحصول" في علم الأصول، و"الأربعين في أصول الدين"، وكتاب الهندسة. وقد اتصل الرازي بالسلطان محمد بن تكشي الملقب بخوارزم شاه ونال الحظوة لديه. توفي الرازي في مدينة هراة سنة ٦٠٦ هـ./١٢٠٩م.

(٢) ذكر أبو الحسن **القابسي** في شرح رسالة ابن أبي زيد له عن النبي ﷺ أن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان الواحد عن يمينه و الآخر عن شماله، فالذي عن يمينه على صفة أبيه، يقول له: يا بني إني كنت عليك شفيقاً ولك محباً، ولكن مت على دين النصارى فهو خير الأديان، والذي على شماله على صفة أمه، تقول له: (يا بني إنه كان بطني لك وعاء، وثديي لك سقاء، وفخذي لك وطاء، ولكن مت على دين اليهود وهو خير الأديان) وأبو الحسن هو علي بن محمد المعافري المعروف بالقابسي، مالكي. ولد في القيروان عام ٣٢٤ هـ ٩٣٥ م. نسبة لقرية قابس بالقرب من القيروان ذكر السيوطي عنه أنه كان حافظاً للحديث،بصيراً بالرجال، عارفاً بالأصلين، رأساً في الفقه، ضريراً زاهداً ورعاً.

﴿قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ آل عمران، أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا زماناً، فإذا أراد الله بعبده هداية وتثبيتاً جاءته الرحمة. وقيل: (إن الرحمة في الأمة هي جبريل).

❖ ❖

ما نملكه، إزاء خبط الشيطان اللعين، هو أن نستعين بالله في حياتنا عليه وعلى تلبيساته، وأن نحسن الظن بالله، ونلوذ بحماه، ونستقيم على هديه، ونكثر من فعل الخيرات وبذل الصدقات ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فذلك ما يعين على حسم التخبط، إنْ كان لصالح الإيمان والنجاح والفوز وحسن الختام عند حشرجة الروح، فقد كان **عبد الرحمن بن أبان**[1] رحمه الله، كما ذكر ابن الجوزي في تهذيب التهذيب (يشتري أهل البيت ـ أي الأرقّاء من أفراد عائلة واحدة ـ، ثم يأمر بهم فيُكسوْن ويدهنون ثم يُعرضون عليه، فيقول: أنتم أحرار لوجه الله، أستعين بكم على غمرات الموت، قال: فمات وهو نائم في مسجده بعد السُّبْحة، أي بعد صلاة الضحى).

وكما نكثر من الصدقات والخيرات، نستعين بها على سكرات الموت، كذلك علينا أن نكثر من الدعاء والإلحاح به على الله، أن يُجنبنا الشيطان وتخبيطاته في الدنيا وعند مغادرتها. وكان النبي r خير قدوة لنا في هذا،

من أشهر كتبه: الممهد في الفقه وأحكام الديانة، ملخص الموطأ، كتاب الاعتقادات، الذكر والدعاء، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، بقي في القيروان إلى أن تُوفي سنة ثلاث وأربعماية.

(١) **هو عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ أَبَان بن عثمان بن عفَّان،** وأمه بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي،وجدته لجدته أسماء بنت أبي بكر الصديق، فعن مُصعب بن عثمان، قال: كان عبد الرحمن بن أبان يشتري أهلَ البيت، ثم يكسوهم، ثم يعرضهم عليه ويعتقهم، ويقول: أنتم أحرار أستعين بكم على غمرات الموت، فمات وهو نائمٌ في مسجده) **تاريخ الإسلام للذهبي.** (وكان يصلي في كل يوم ألف ركعة ويكثر الحج والعمرة، وكان إذا تصدق بصدقةٍ قال: اللهم هذا لوجهك الكريم فخفف عني الموت، فانطلق حاجاً [أي عزم على الحج] فصلى الغداة ثم نام، فذهبوا يوقظونه للرحيل فوجدوه ميتاً، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة) **أنساب الأشراف.**

فكان على ما رواه الإمام أحمد عن **أبي اليَسَر**[1] يَدْعُو فَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَدْمِ وَالتَّرَدِّي وَالْهَرَمِ وَالْغَرَقِ وَالْحَرِيقِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِراً، وَأَنْ أَمُوتَ لَدِيغاً". وفي اشتمال هذا الدعاء جوامعَ المصائب والنكبات، ما يجعلنا، بحق، نقدر خطورة تخبط الشيطان للمحتضر. فقد جعل النبي **r** تخبيط الشيطان عند الموت في درجة (مُدْبِراً) من الجهاد غير مقبل، وهو، بلا ريب، أسفل الدركات للمجاهد المؤمن، وكذا التسفُّل[2] مع الشيطان إذا ما أشرك المحتضر بالله في تلك اللحظات الخاتمة للحياة، أعاذنا الله منها وختم لنا بالإيمان والصالحات.

غير أن في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ ﴿٢٧﴾﴾ إبراهيم. تطمينات تجعل المؤمن الملتزم لواذاً برحمة الله، خاصة عند حشرجة الروح، وهو يودع الدنيا، وكان فيها لا يفتأ، بلسانه وقلبه يذكر الله سبحانه ويوحده، وما كان ذلك إلا بتوفيق الله له وفضله، وإذا كان شأن الله في الدنيا لمثل هذا العبد الصالح كذلك، فلن يضيِّق عليه في اللحظات الأخيرة من التمكين بغلبة الشيطان إن جاءه، فهو سبحانه المعطي الكريم السلام المؤمن المهيمن، ولن يَضيع عنده المؤمن به العامل له. قال الرازي في تفسير الآية (يثبت الله): (إن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى، فقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أي على الثواب والكرامة، وقوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا، وذكَرَ (أنّ ذلك القول الثابت الصادر عنهم في

---

(١) هو **كعب بن عمرو الأنصاري** أسرَ العباس عندما كان مشركاً يوم بدر. شهد العقبة وله عشرون سنة وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر ومناقبه كثيرة له أحاديث قليلة وقيل: كان دحداحاً قصيراً ذا بطن وقد شهد صفين مع علي مات بالمدينة في سنة ٥٥ وبعضهم يقول هو آخر من مات ممن شهد بدراً، خرَّج له مسلم دون البخاري.

(٢) سَفَلَ سُفُولاً مِنْ بَابِ قَعَدَ وَسَفُلَ مِنْ بَابِ قَرُبَ لُغَةٌ صَارَ أَسْفَلَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ سَافِلٌ وَسَفَلَ فِي خُلُقِهِ وَعَمَلِهِ سَفْلاً وَتَسَفَّلَ خِلَافُ جَادَ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْأَرَاذِلِ سَفِلَةٌ وَالسُّفْلُ خِلَافُ الْعُلْوِ.(لسان العرب).

الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم، وثبات ثوابه عليهم، ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق، فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه).

❖ ❖ ❖

مراوغة الشيطان لقادة معركة مؤتة

وحتى نتمكن من تصور قساوة وسوسة الشيطان على النفس وشدتها في اللحظات الأخيرة، نضرب مثلاً بواقعة مراوغة الشيطان لقادة معركة مؤتة من الصحابة الأجلاء، وهي المعركة التي واجه فيها جيش المسلمين البالغ ثلاثة آلاف، جيشَ الروم وأشياعهم البالغ مائة ألف أو يزيدون. وكان النبي r قد أمَّر على الجيش زيد بن حارثة، فإنْ قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، وقرر الجيش عند وصوله مؤتة المواجهة، فقاتلوا بضراوة فقُتِلَ زيد، **فاستلم الراية جعفر t فقُطِعَت يده اليمنى فاستلمها باليسرى فقُطِعَت اليسرى فاحتضنها ببقايا يديه، حتى إذا ما شُطِرَ نصفين خرَّ شهيداً وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، ثم استلم الراية عبد الله بن رواحة t فأبلى كصاحبيه حتى قُتِل شهيداً.**

تلك صفحة، بلا ريب، مشرقة في تاريخ الجهاد والتضحية والاستبسال. لكن وراء هذا الحدث الضخم مناورة للشيطان كادت تودي بهم. فقد جاء كلاً من هؤلاء القادة الغرّ الميامين قبل أن ينطلق إلى قتاله، يزين له الدنيا، فيردّه الصحابي القائد بعنف ويمضي إلى القتال فالموت، إلا عبد الله بن رواحة t فقد كان إزاء كيد الشيطان مستمعاً، فانكفأ هنيهة أو نكل، إلا أنه عاد فمضى حتى خرّ شهيداً، وبسبب تلكؤه هذا تدنت درجته في الجنة عن

صاحبيه. ولنسمع رسول الله يقول فيما ذكره الواقدي في المغازي[1] عن عبد الجبار بن **عُمارة بن غزيَّة**[2] عن عبد الله بن أبي بكر[3]:

(...لَمّا الْتَقَى النّاسُ بِمُؤْتَةَ جَلَسَ رَسُولُ اللّهِ r عَلَى الْمِنْبَرِ وَكُشِفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشّامِ[4]، فَهُوَ يَنْظُرُ إلى مُعْتَرَكِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ r أَخَذَ الرّايَةَ زَيْدُ ابْنُ حَارِثَةَ، فَجَاءَهُ الشّيْطَانُ فَحَبّبَ إليه الْحَيَاةَ وَكَرّهَ إليه الْمَوْتَ وَحَبّبَ إليه الدّنْيَا فَقَالَ الْآنَ حِينَ اُسْتُحْكِمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُحَبّبُ إلَيّ الدّنْيَا فَمَضَى قِدْمًا حَتّى اُسْتُشْهِدَ فَصَلّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ r وَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لَهُ فَقَدْ دَخَلَ الْجَنّةَ وَهُوَ يَسْعَى ثُمّ أَخَذَ الرّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أبي طَالِبٍ، فَجَاءَهُ الشّيْطَانُ فَمَنّاهُ الْحَيَاةَ وَكَرّهَ إليه الْمَوْتَ وَمَنّاهُ الدّنْيَا فَقَالَ الْآنَ حِينَ اُسْتُحْكِمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُمَنّينِي الدّنْيَا ثُمّ مَضَى قِدْمًا حَتّى اُسْتُشْهِدَ فَصَلّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ r وَدَعَا لَهُ ثُمّ قَالَ اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ فَإِنّهُ شَهِيدٌ دَخَلَ الْجَنّةَ فَهُوَ يَطِيرُ فِي الْجَنّةِ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَاقُوتٍ حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ الْجَنّةِ . ثُمّ أَخَذَ الرّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَاسْتُشْهِدَ وَدَخَلَ الْجَنّةَ مُعْتَرِضاً[5] . فَشَقّ ذَلِكَ عَلَى الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ r أَصَابَهُ الْجِرَاحُ . قِيلَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا

---

(١) الجزء الأول ص ٧٦١، وله شواهد عند البيهقي في دلائل النبوة وعند أبي نعيم الأصبهاني في الحلية جزء ٢٠.

(٢) **عمارة بن غزية** من الطبقة الرابعة من التابعين هو ابن الحارث، بن عمرو بن غزية، الأنصاري، الخزرجي، أحد الثقات. قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، واحتج به مسلم، واستشهد به البخاري، وأما ابن حزم، فضعفه ولم يصب. مات سنة ١٠٤هـ

(٣) هو **عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم** الأنصاري: جده الأعلى عمرو بن حزم صحابيٌّ، بعثَهُ رسولُ اللهِ r إلى اليمنِ، ليفقههم في الدِّين، ويُعلمهم القرآنَ والسُّنَّةَ، وأبوه أبو بكر كان قاضي المدينة ووالِيها، وهو أول من دوَّن الحديثَ بأمر عمر بن عبد العزيز، أو من أوائلِهم، فقد نشأ في بيتِ علمٍ وروايةٍ، وقد نُقلتْ عن عبدِ اللهِ أخبارٌ كثيرةٌ ذكرها مؤرخو السير ابنُ إسحاق والواقديُّ، وابنُ سعدٍ، والطَّبريّ، تُوفِّي سنة ١٣٥ هـ.

(٤) أي رفعت له r أرض المعركة في مؤتة فراح يراها ويصف ما يجري لصحابته في مسجده في المدينة وهذه بلا ريب من معجزاته فقد جاء في الحديث: قَدِمَ يَعْلَى بْنُ منية عَلَى رَسُولِ اللّهِ r بِخَبَرِ أَهْلِ مُؤْتَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ r :(إنْ شِئْتَ فَأَخْبِرْنِي وَإِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ قَالَ أَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللّهِ فَأَخْبَرَهُ r خَبَرَهُمْ كُلّهُ وَوَصَفَهُمْ لَهُ فَقَالَ وَالّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقّ مَا تَرَكْتَ مِنْ حَدِيثِهِمْ حَرْفًا وَاحِدًا لَمْ تَذْكُرْهُ وَإِنّ أَمْرَهُمْ لَكَمَا ذَكَرْت فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ r " إنّ اللّهَ رَفَعَ لِي الْأَرْضَ حَتّى رَأَيْتُ مُعْتَرَكَهُمْ" (زاد المعاد في هدي خير العباد/غزوة مؤتة).

(٥) معترضاً: مانِعاً (لسان العرب).

اعْتِرَاضُهُ ؟ قَالَ لَمّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَكَلَ فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجُعَ فَاسْتُشْهِدَ فَدَخَلَ الْجَنّةَ . فَسُرّيَ عَنْ قَوْمِهِ). ويشرح مسألة التلكؤ أو النكول حديث آخر **رواه الطبراني في معجمه الكبير** حيث حدد r مقام الشهداء الثلاثة الأبطال في الجنة، فقد وصف النبي ذلك، بأنّ كلاً منهم غدا على سرير من ذهب، إلا أنَّ سرير عبد الله بن رواحة فيه ازورار[1] عن سريري صاحبيه فقال r :

"... لَقَدْ رُفِعُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بن رَوَاحَةَ ازْوِرَارًا عَنْ سَرِيرَيْ صَاحِبَيْهِ، فَقُلْتُ: بِمَ هَذَا؟ فَقِيلَ لِي: مَضَيَا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بن رَوَاحَةَ بَعْضَ التَّرَدُّدِ، وَمَضَى". ذلك أنّ عبد الله لما أخذ الراية تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل[2] نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة وأتاه عبد الله بن عمر بِعَظْمٍ مِنْ لَحْمٍ، فَقَالَ: اشْدُدْ بِهَذَا صُلْبَكَ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ أَيَّامَكَ هَذِهِ مَا قَدْ لَقِيتَ، فَأَخَذَهُ مَنْ يَدِهِ فَانْتَهَشَ مِنْهُ نَهْشَةً، ثُمّ سَمِعَ الْحُطَمَةَ[3] فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا[4]، ثُمَّ أَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ، فَتَقَدَّمَ وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلنَّهْ ... لَتَنْزِلنَّهْ طَائِعَةً أو لَتُكْرَهِنَّهْ
مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ ... إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ[5]
لَطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتَ إِلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ[6]

فَقَاتَلَ، حَتَّى قُتِلَ ..)، وهو ما يفسر أنّ زيداً وجعفراً غلبا الشيطان مرة واحدة، فحسما الموقف من دون تلكؤ؛ بينما عبد الله تلكأ، فكان أن بهت سريره

---

(١) الازْوِزارُ عن الشيء: العدول عنه، وقد ازْوَرَّ عنه ازْوِراراً: عَدَلَ عنه وانحرفَ (لسان العرب).

(٢) اسْتُنْزِلَ فلانٌ، أي حُطَّ عن مرتبته. (الصحاح في اللغة مادة نزل).

(٣) الحَطْمُ: الكسر في أي وجه كان، والحطْمَةُ والحُطامُ: ما تَحَطَّمَ من ذلك، وحُطامُ الدنيا: كلُّ ما فيها من مال يَفْنى ولا يبقى، والحُطَمَة: اسم من أَسماءِ النار، نعوذ بالله منها أو هي باب من أَبواب جهنم. (لسان العرب).

(٤) أي وأنت في الدنيا يا عبد الله أي استهول وجود الخوف والهرج في صفوف المقاتلين من المسلمين وهو لا يزال حياً أي لم يقاتل كما يجب حتى يطمئن الناس، وهي ما عناها رسول الله r في الحديث الأول الآنف الذكر أنه شَجُعَ فاستشهد.

(٥) الرَّنَّةُ والرَّنِينُ والإِرْنانُ الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء.

(٦) الشَّن :الضعف تشنّن الجلد إذا تغضن عند الهرم أو يبس. ويعني ابن رواحة قوله (شنة) أنّ الإنسان في جسم بالٍ ضعيف.

وانحرف عن سريريهما. ويعني ذلك أنّه أدنى من صاحبيه درجة، رغم أنّه شهيد مثلهما، ودخل الجنة كما دخلا، لكن لكل درجات بما نووا أو عملوا ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ الأنعام ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ الأحقاف.

❖ ❖ ❖

حتى تنظروا بما يختم له!

إننا إزاء هذا التخبط، تشتد بنا الرهبة ويعظم الخوف. فهو من الدقة بمكان، فوجب له الاستعداد لمواجهة اللحظة الحاسمة وآخر تخبطات إبليس. ولا يمكن أن يعتمد المرء على علمه وقدرته في ردع الشيطان، ذلك أن ردعه في الحياة قد يكون أسهل منه عند الممات، وعلى هذا كان عليه دوماً أن يذكر هذه اللحظة المخيفة، ويحشد لها ما استطاع من عزيمة التوكل وكثرة ذكر الله.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ r :"لا تَعْجَبُوا بِعَمَلِ عَامَلٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَا يُخْتَمُ لَهُ". **الطبراني في معجمه الكبير عن أبي أمامة.** وهو ما يربط الأعمال بخواتيمها والناس بنهاياتهم، ولا عبرة إلا برسو السفينة في المستقر الأخير، فقد تصل سالمة، وقد تنحرف، وقد تتحطم.

(ونقل عن سفيان الثوري أنّه لما احتضر جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء، فعفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أو على ذنوبي أبكي؟ لو علمت أنّي أموت على التوحيد، لم أبالِ بأنْ ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا). وكان سفيان هذا، قد روى أنه رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة، وهو يقول: اللهم سلِّم، فقال له: يا أخي ما قضيتك؟ قال: كنا أربعة إخوة مسلمين، فتوفّي منا ثلاثة، كل واحد منهم قد فتن عند موته، ولم يبق إلاّ أنا، فلا أدري بمَ يختم لي[1].

وفي قصة **الإمام أحمد بن حنبل** ـ رحمه الله ـ على ما يرويه ولده فائدة في الإضاءة على الموقف الحرج في ساعة الاحتضار حيث قال: (إنّ الشيطان عرض

---

(١) ذكره الشيخ عليش متولي بدوي البني في موسوعة عجائب الصدقات، ج٢، ص ٥٢٤ و٥٢٥ ، طبعة أولى/ لجنة آسيا بدولة الكويت، ١٤٣٢/٢٠١١ .

للإمام أحمد فردّه، فصرخ الشيطان لقد فُتَّني يا أحمد فردَّ عليه الإمام: لا، بعد، إلا أن أموت)، ويعني ذلك أنّ الإمام لا يعتبر نفسه قد فات على الشيطان إلا بعد أن يموت، مخافة أن يكون في كلمته (فُتَّني) ما يجعل الإمام أحمد يُعجب بنفسه في تلك اللحظة فيُفْتَن... أي كأنه قال للشيطان: لا إلا أن أموت، وأنا على رفضي لك. وذاك تصوير دقيق لمعاناة تلك اللحظات، فالإمام أحمد عالم فقيه تذكّر كيد الشيطان فقهره، فكيف إذاً آخرون لم يعلموا؟ ألا يكونون على خطر عظيم؟ فما لا ريب فيه أن معاناتهم أشدُّ إلا أن يتداركهم الله برحمته. وقد روى الترمذي من حديث ابن عباس أنّ رسول الله r قال: (لَفَقِيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)[1].

---

(١) وذكر ابن عبيد قصة رمزية في كيد الشيطان فقال: (كان عالم وعابد متواخيين في الله، فقالت الشياطين لإبليس إنا لا نقدر على أن نفرق بينهما، فقال إبليس لعنه الله أنا لهما، فجلس بطريق العابد إذ أقبل العابد حتى إذا دنا من إبليس قام إليه في مثال شيخ كبير بين عينيه أثر السجود، فقال للعابد إنه قد حاك في صدري شيء أحببت أن أسألك عنه، فقال له العابد سل، فإن يكن عندي علم أخبرتك عنه فقال له إبليس هل يستطيع الله U أن يجعل السموات والأرض والجبال والشجر والماء في بيضة من غير أن يزيد في البيضة شيئاً ومن غير أن ينقص من هذا شيئاً؟ فقال هل العابد من غير أن ينقص من هذا شيئاً ومن غير أن يزيد في هذا شيئا كالمتعجب، فوقف العابد فقال له إبليس امضِ، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هذا فقد أهلكته جعلته شاكاً في الله تعالى، ثم جلس على طريق العالم فإذا هو مقبل حتى إذا دنا من إبليس قام إليه إبليس فقال: يا هذا إنه قد حاك في صدري شيء أحببت أن أسألك عنه فقال له العالم: سلْ فإنْ يكن عندي علم أخبرتك. [فأعاد له السؤال كما ذكره للعابد] فقال له العالم: نعم بانتهار وقال: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فقال إبليس لأصحابه من قِبَل هذا أُتِيتُم) انظر كتاب **آكام المرجان في أحكام الجان**، لمؤلفه عمر عبد الله الشبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لا تاريخ للطبعة، ص ١٧٢و١٧٣.

وفي الآيتين الكريمتين من سورة "المؤمنون" ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝﴾، يقول الرازي في تفسيره: (والهمزات جمع الهمزة، وهو الدفع والتحريك الشديد، وهو كالهز والأز، وهمزاته هو كيده بالوسوسة، ويكون ذلك منه في الرسول بوجهين: أحدهما: بالوسوسة والآخر بأن يبعث أعداءه على إيذائه، وكذلك القول في المؤمنين، لأن الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين، ومعلوم أن من ينقطع إلى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان، فإنه يجب أن يكون متذكراً متيقظاً فيما يأتي ويذر، فيكون نفس هذا الانقطاع إلى الله تعالى داعية إلى التمسك بالطاعة وزاجراً عن المعصية، قال الحسن كان r يقول بعد استفتاح الصلاة "لا إله إلا الله ثلاثاً، الله أكبر ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه، فقيل يا رسول الله وما همزه؟ قال الموتة التي تأخذ ابن آدم أي الجنون قيل فما نفثه؟ قال الشعر قيل فما نفخه؟ قال الكبر" وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن يحضرون عند قراءة القرآن لكي يكون متذكراً فيقل سهوه، وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لأنه الداعي إلى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك، وروي عن رسول الله r وقد اشتكى إليه رجل أرقاً يجده فقال: "إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ" **عن عمرو بن شعيب t عن أبيه في سنن الترمذي.**

وروى ابن المبارك وسفيان عن ليث عن مجاهد قال: (ما من ميت إلا تعرض عليه أهل مجالسه الذين كان يجالس، إن كانوا أهل لهو فأهل لهو، وإنْ كانوا أهل ذكر فأهل ذكر) وهو، كما ترى، تعرّض وتذكّر يعينانه على الثبات في اللحظة الأخيرة أو يدفعانه إلى التحسر على اللهو والدنيا فيفتن!!!.

❖ ❖

حديث النفس بغير الحق

إنّ الصراع المرير بين الإنسان والشيطان، وإن عَنُفَ في نهاية دورته مع المحتضر، إلا أنه يحسم، بإذن الله، للمؤمن، إذا ما تذكر، فصبر واستعان بالله.

كذلك فإنّ تذكر الحق ووضاءته والباطل ومفاسده، يجعل نهاية الصراع مع الشيطان وأباليسه نهاية حميدة، تُفرِحُ النفسَ في الدنيا وتطمئِنُ المحتضر المغادر لها، يقول الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ الأعراف.(أي إذا حضرت هذه التذكرات في عقولهم ففي الحال يزول طائف الشيطان ويحصل الاستبصار والانكشاف والتجلي كما الخلاص من وسوسة الشيطان).

صحيح أنّ الآية السالفة تشمل كل محطات الصراع، سواء في الدنيا وأحداثها ومشاكلها، أو تلك التي في النزع الأخير، ولعل هذه أصعبها، إلا أنها تشير بعمق إلى مسّ الشيطان ومحاولاته المستمرة. فهي بحق عنوان على همزات الشيطان وتخبيطه، في كل مرافق الحياة ومراحلها حتى ختامها.

هناك، إذاً، خشية في اللحظات الأخيرة من الحياة. فما إن تبدأ مقدمات السكرات، حتى يأتي الشيطان موسوساً متفنناً في الوسوسة. والوسوسة صفة الشيطان، وهي مهنته، يمارسها بشغف، يفرح إن نجح ويحزن إذ يخنس. والخنس هنا التأخر والتولي، كما ذكر سعيد بن جبير إذ قال: (إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولّى، فإذا غفل وسوس إليه).

إنّ حديث النفس، في غير الحق، هوى يفيض في مجاري الدنيا الكثيرة، ويصب في النفس بشدة وقسوة، خاصة عند الاحتضار، فيأتي المحتضرَ الشيطانُ فيخبره أنّ

هذا كله سيفوته، ويُحسِّرُه عليه، ويدعوه إلى التبرم والتأفف، ثم يشتد عليه إذا ما رأى فيه استجابة أو إنصاتاً، فيزخرف له القول غروراً، ويُذكره بأنه يكاد يودّع أمواله التي جمعها، وولده وأهله ولذّاته الذين أحب، ويُؤمِّله أن بقاءه في الحياة أصلح وأوفق، وأن ربه يعَجّل عليه بالموت. وهذا كله وسواه، مما قد يأتي في محاولةٍ أخيرة من الشيطان، لحرفِ المحتضر عن إيمانه باللّه وبدينه الإسلام، مُغْتَنِماً غُمّته التي قد يكون فيها، فيهوِّل عليه أنه يموت وحيداً، مغموساً بمعاناة نفسية، تاركاً شؤون الدنيا دون ترتيب وإنجاز، فإذا ما تلقَّف إغواءه المحتضر، وجَدَ الشيطان فرصته السانحة، فيذهب به كل مذهب، ويمارس معه كل أساليب الترغيب والترهيب والتحريف والتخريف، وهو ما يطلق عليه التخبُّط. **والتخبّط ـ لغةً ـ الضرب على غير استواء، كخبط الرجل الشجر بعصاه، ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه إنه يخبط خبط عشواء**[1]، واستُعير لعسف الشيطان والسلطان، قال تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ٢٧٥﴾ البقرة.

واستخدم النبي r الكلمة (خبط) للإحاطة بإغراءات الشيطان ومحاولاته الأخيرة مع الإنسان المسلم خاصةً، واستعاذ باللّه منه ومن تخبيطاته عند الموت فقال r سائلاً ربه: (أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت)، وهو دعاء يجعل المرء في حالة استشعار لمخاطر تلك الساعة الصعبة، فيحسب لها ألف حساب ويلوذ بحمى اللّه، مؤكداً استعاذته به سبحانه طالباً منه العون.

❖ ❖

إزاء هذه النهاية المملوءة بالصراع، يقوم فريقان متناقضان: الشيطانُ يولي باكياً أنّه لم يقدر على فَتْن المحتضر، والملائكة تفرح وتُسر. فقد ذكر عبد اللّه

---

(١) الفعل يَعْشُو: ضَعُفَ بَصَرُه عنه، وأَصْلُه من الناقةِ العَشْواءِ لأنها لا تُبْصِر ما أَمامَها فهي تَخْبِطُ بِيَدَيْها، وذلك أَنها تَرْفَع رَأْسها فلا تَتَعَهَّدُ مَواضِعَ أَخْفافِها؛ قال زهير: رأَيْتُ المنايَا خَبْطَ عَشْواءَ، مَنْ تَصِبْ تُمِيْتْهُ، ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ ومن أَمثالهم السَّائرة: وهو يَخْبِط خَبْطَ عَشْواء، يضرَبُ مثلاً للسَّادِرِ الذي يَرْكَبُ رَأْسَهُ ولا يَهْتَمُّ لِعاقِبَتِهِ كالنَّاقَة العَشْواء التي لا تُبْصِرُ، وقيل: العُقابُ العَشْواءُ التي لا تُبالي كيْفَ خَبَطَتْ وأَيْنَ ضَرَبَتْ بمخالِبها كالنَّاقة العَشْواء لا تَدْرِي كَيْفَ تَضَع يَدَها (لسان العرب مادة عشا).

ابن أحمد بن حنبل أنه (إذا عُرِجَ بروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة سبحان الذي نجّى هذا العبد من الشيطان يا ويحه[1] كيف نجا)؟[2].

وهناك أيضاً فريق ثالث هم أهل الميت المحتضر وإخوانُه وأصدقاؤه، فهم أيضاً على ضربين، فإما أن يكونوا قد سمعوا منه قول (لا إله إلا الله) فيُسرّوا له ويبتهجوا، أو أن يكونوا قد رأوا عليه ابتسامة فيرجحوا خروج روحه على الإيمان، وإما أن يبقوا قلقين إذ لم يسمعوا ولم يروا ما يطمئنهم فيحسنوا الظن بالله، أن يكون صاحبُهم قد مات على الإيمان، ويدعوا له ثم يُسْلموا أمره إلى الله سبحانه.

أما الفسَّاق، فكثيراً ما يُختم عليهم بخاتمة السوء،فقد نقل صاحب موسوعة "عجائب الصدقات" عن أحدهم وقال عن لسانه أن سيارة مسرعة انحرفت عن الطريق وانقلبت عدة مرات، (وكان فيها ثلاثة شبان أوشكوا على مفارقة الحياة وهم سكارى، وحاول مراراً أنْ يلقنهم الشهادة فلم يستجيبوا، فما قبض أحدهم إلا وقد اسود وجهه، وخُتِم له بالعمل القبيح).

❖ ❖ ❖

إن معارك الشيطان الأخيرة مع الإنسان هي في خبطه للمحتضر الذي عاش حيناً من الدهر كان له مراوغاً، وقد يكون النصر لأحد الطرفين. فمعاركهما سجال، وقد يغلبه الشيطان وقد ينتفض المغلوب في وجهه رافضاً، وبخاصة عند الاحتضار في اللحظات الأخيرة من الحياة. وقد يتخبطه الشيطان ويزلقه إلى الكفر والسوء. ذلك ملخص وعد إبليس لربه أن يغوي عباده إلا المخلصين منهم وهو صراع يعطي الحياة معاني عميقة للإرادة والعجز، والنجاح والفشل، والاستجابة للإيمان أو النكوس عنه وبعد هذه المعركة الأخيرة الحاسمة، لا صراع ولا إغواء، ولا انتصار ولا إحباط. فقد انتهى الابتلاء والفتنة، كما العمل والارادة، وبات الانسان أمام المصير المحتوم.

إذاً، هي سكرات الموت الصعبة، وبعدها تكون، في القبر، صعوبات أخرى جمّة، أين منها صعوبات الحياة وسكرات الموت؟ كما سنرى.

---

(١) **ويح:** كلمة ترحّم وتوجّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها.وأيضاً بمعنى المدح والتعجب وهنا يا "ويحه كيف نجا" مديح من الملائكة للمحتضر في صراعه مع الشيطان، فضلاً عن إشارتها إلى وقوعه في الهلكة إلا أنه بنجاته منها استحق مدحهم وتقريظهم.

(٢) أحكام المرجان في أحكام الجان، مرجع مذكور، وأحمد بن حنبل في الزهد.

الفصل السابع:

تلقين المحتضر

في الغالب، إذا ما أدرك المرء عتبات الموت، وبدأت الحشرجة، والتف حوله أهله وإخوانه، يُسنّ عندها أن نساعد المحتضر على النطق بلا إله إلا الله بتذكيره بها، وهو ما يسمى بالتلقين، لما ذكره **ابن أبي الدنيا عن عثمان بن عفان** t قال: قال رسول الله r : "إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله، فإنه ما من عبد يختم له بها موته إلا كانت زاده إلى الجنة". وقال عمر بن الخطاب t : "اِحْضَرُوا موتاكم ولقنوهم: لا إله إلا الله وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون".

وقال الإمام القرطبي: (قال علماؤنا: تلقين الميت هذه الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون. وذلك ليكون آخر كلامه لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة، و ليدخل في عموم قوله عليه السلام: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) **أخرجه أبو داوود من حديث معاذ بن جبل** t . وفي رواية "حرمه الله على النار".

وقيل لأعرابي يُحتضر: (إنّك تموت فقال: أين يُذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهبَ إلى من لا يُرى الخيرُ إلا منه)[1].

وَرَد في الآحاد والمثاني[2] عن **الحارث بن الخزرج** أنّه حدثه أبوه: أنه سمع رسول r يطلب إلى ملك الموت u ، وهو عند رأس رجل من الأنصار، فقال: «يا ملك الموت

---

(١) الإحياء للغزالي، مرجع مذكور،ج ٢ ص ٥٦٥.

(٢) لمؤلفه أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني (٢٠٨هـ. ٢٨٧ هـ.) طبع الكتاب باسم: الآحاد والمثاني بتحقيق د. باسم فيصل الجوبرة، دار الراية بالسعودية، سنة ١٤١١هـ .وهو عبارة عن معجم بأسماء الصحابة، ويسوق بسنده عينة من مرويات هذا الصحابي. وغالباً ما تكون حديثاً واحداً أو حديثين، وهذا هو السر في تسمية كتابه بالآحاد والمثاني. وقد بلغت النصوص التي أوردها المؤلف (٣٠٨٤) نصاً مسنداً. ويعقّب على البعض الآخر ببيان التعارض بين بعض النصوص وبيان ما هو ناسخ وما هو منسوخ، يعتني بذكر علل الحديث، والاختلاف بين الرواة في الطرق والألفاظ، والتنبيه على الاتصال والانقطاع والتدليس والإرسال ونحو ذلك، وقد يحكم على الحديث جملة بالصحة أو الضعف وبالجملة, فالكتاب قرة عينٍ وزيادة؛ بما حواه من الفوائد العلمية التي تنبئ عن المنزلة العليا لهذا الإمام العظيم.

أرْفِقْ بصاحبي، فإنه مؤمن » قال ملك الموت u : (يا محمد طِبْ نفْساً وقَرَّ عيناً، فإني بكل مؤمن رفيق).

وعَنْ **وَاثِلَةَ بْنِ الأسْقَعِ**[1]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ r : "اُحْضُرُوا مَوْتَاكُمْ، وَلَقِّنُوهُمْ لَا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ، وَبَشِّرُوهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ" **أَخْرَجَه أبو نُعَيْمٍ**[2] **فِي الْحِلْيَةِ**.

ويُستحسن عدم الإكثار والإلحاح على المحتضر بالتذكير، فحسبه أن يقولها مرة أو مرتين، ولا ينبغي تكرارها تتابعاً لئلا يسأم ويملّ، إلا أن يتكلم المريض المحتضر، فإنّه يعاد إلى تلقينه (لا إله إلا الله)، حتى يكون آخر كلامه بهذا الذكر الموحِّد. فقد روي عن النبي r (من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة) **أخرجه الإمام أبود داوود وحسنه الألباني**. لكن اشترط العلماء أن يكون تكرار التلقين بلطف ورويّة، لأن المريض المحتضر يكون بحالة شديدة، ويُخشى،

---

(١) **واثلة بن الأسقع** بن عبد العزى وكنيته أبو شداد، أسلم والنبي يتجهز إلى تبوك، وقيل: إنه خدم النبي r ثلاث سنين. وكان من أصحاب الصفة. قال الواقدي: إن واثلة بن الأسقع كان ينزل ناحية المدينة، حتى أتى رسول الله r فصلى معه الصبح، وكان رسول الله r إذا صلّى الصبح وانصرف يتصفح وجوه أصحابه، ينظر إليهم، فلما دنا من واثلة أنكره، فقال: من أنت؟ فأخبره، فقال: ما جاء بك؟ قال: أبايع. فقال رسول الله r : على ما أحببت وكرهت؟ قال: نعم. فقال رسول الله r : فيما أطقت؟ قال واثلة: نعم. وكان رسول الله r يتجهز إلى تبوك، ولم يكن لواثلة ما يحمله، فجعل ينادي: من يحملني وله سهمي؟ فدعاه كعب بن عجرة وقال: أنا أحملك، ولي سهمك. فقال واثلة: نعم. قال واثلة: فجزاه الله خيراً،.وغَنِمَ واثلة فأصاب ست قلائص، فأتى بها كعب بن عجرة فقال: اخرج فانظر إلى قلائصك (الأنثى من النعام الطويلة القوائم). فخرج كعب وهو يتبسم ويقول: بارك الله لك، ما حملتك وأنا أريد آخذ منك شيئاً. ثم سكن البصرة، ثم سكن الشام على ثلاثة فراسخ من دمشق شهد فتح دمشق، والمغازي بدمشق وحمص، ثم تحول إلى فلسطين، ونزل بيت المقدس. توفي سنة ثلاث وثمانين، وهو ابن مائة وخمس سنين.

(٢) هو المؤرخ المسلم الرحالة **أحمد بن عبد الله بن مهران** مواليد أصفهان عام ٣٣٦ هـ ووفيات سنة ٤٣٠ هـ . جمع في كتابه الحلية أسماء جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبعض أحاديثهم وكلامهم، من أعلام المتحققين من المتصوفة وأئمتهم، وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم، من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو كتاب في التراجم، وموسوعة في تاريخ النساك والزهاد، ويشتمل على زهاء ٨٠٠ ترجمة، ومن الأئمة الأعلام المحققين والمتصوفة في عصره، مع بعض أحاديثهم وكلامهم، وبعد المقدمة عن الأولياء والتصوف، ابتدأ بترجمة أبي بكر الصديق وباقي الخلفاء الراشدين، ثم تتمة العشرة المبشرين بالجنة، ثم زهاد الصحابة وأهل الصّفة، ثم التابعين وتابعيهم، وأطال في ذكر الأسانيد، قال الحافظ الذهبي: "لم يصنف مثل حلية الأولياء".

كما ذكرنا، من تبرّمه. إلا أن يكون عالماً بحاله، وأنّه إنما يذكّرونه بما يعرف، حباً له في أن تكون خاتمته مباركة رطبةً بذكر الله، فيأنس بذلك. روي أنّ أبا زرعة الرازي كان في الاحتضار، إذ حضر عنده بعض أصحابه، فاستحبوا أن يلقنوه، ثم امتنعوا، فهو ذلك التقي العالم بالحديث. فقال بعضهم للآخر تعالوا نَذْكُر حديث التلقين، فأخذ أحدهم، وهو ابن واره يقول بصوت غير منخفض: حدثنا أبو عاصم .. وذكر بعض من روى الحديث، ووقف عند "صالح" ولم يكمل وسكت الباقون، فراح أبو زرعة، رحمه الله، يكمل (... عن كثير بن مُرّة عن معاذ بن جبل t قال: قال رسول الله r : "مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ" أبو داوود في سننه ثم توفي رحمه الله ورحم أصحابه، إذ كانوا ذوي أدب وفضل وحكمة .

❖ ❖

قد يتساءل الناس: هل يُلقّن المريض الكافر؟ وهو سؤال يثور في كل مرةٍ يكون ذلك المحتضر قريباً من سكرات الموت، فيحاول أهله أو المحيطون به أن يطلبوا منه النطق بلا إله إلا الله، وإن كان قد استعصى عليهم ذلك حال حياته، حباً له ورغبة منهم أن يختم له بالإيمان، خاصة إذا ما قالها بصدق بعد أن أدركته أمارات الموت المحتوم.

نقول إنّه لا بأس بذلك، فإن رفض وأبى فهو وشأنه، وموقفه هذا معتاد عليه، وتذكيره لن يزيده كفراً .أما نحن، فنكون قد تشبهنا برسول الله r ، فقد بذل غاية جهده مع عمه أبي طالب، وهو في الاحتضار، أنْ "يَا عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ" رواه مسلم في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه، إلا أنّ أبا طالب صمت ولم ينطق بالشهادة. ومات كافراً رغم أنه نصرَ ابنَ أخيه النبي r وحامى عنه. ففوت عليه برفضه شفاعة النبي له في الآخرة، كما خسر أن تُضمّ إلى سجّله نصرته للنبي ومحاماته عنه، فيؤجر عليهما وقد كان رسول الله حريصاً على نجاة كل إنسان، ولو في اللحظة الأخيرة من حياته. فقد أخرج البخاري عن أنس t (كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ r فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ r يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ

لَهُ أَسْلِمْ فَنَظَرَ إِلى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ r فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ r وَهُوَ يَقُولُ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّار"). غير أنّ بعض الفقهاء شدد على عرض الإسلام على المحتضر الكافر دون التلقين، مستدلاً بأنّ الحديثَ (لقنوا موتاكم) خاصٌ بالمسلمين، كون الضمير في موتاكم للمسلمين، إلا أننا إذا تحرينا الفرق بين العرض والتلقين لم نجده، بل نجد القاسم الجامع المشترك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي التلفظ بالشهادتين، ولا يصح إسلام بدونهما، ومن قالهما فقد عصم دمه وغدا مسلماً. أما في الآخرة، فكما قال النبي r عن الغلام اليهودي: (الحمد لله الذي أنقذه من النار).

وهكذا، فلا مانع، بل من المفيد تكرار المحاولة من أهل "الكافر" وأقربائه عند احتضاره، خاصةً إذا كان المحتضر من أهل مسلمين. وأمثال هؤلاء المرتدين أو الكفرة موجودون، وهو ما يشاهد في بعض الزمن، كما في زماننا اليوم، ثبَّتنا الله وردَّ أولئك إلى دين الله الحق.

فإذا كان هذا شأننا مع "الكافر" أو المرتد، فكيف بالفاسق أو المنحرف أو المقصِّر في أمر دينه؟ إنّ أمر تذكيره بالتوبة وتحفيزه بوصيةٍ تنفعه حق وخير مطلق، وواجب على من حضره. ولا يعتدُّ بالقول: إنّ ذلك فيه تهوين له وإشعار بأنه مفارق. فتوبته أهم من تهوينه، ووصيته قد تنفعه في أخراه أكثر من حفظ ماء وجهه أمام من حضره!!

❖ ❖ ❖

من جهة أخرى،

من السنة المطهرة أن يُتعاهد المريضُ المحتضر ببلِّ **لسانه وحلقه بالماء القليل، أو عبر تنقيطه في حلقه. كما يُسن بلُّ شفتيه بقطنة أو نحوها، بسبب أن شفتيه، في هذه الحال، تكونان أقرب إلى الجفاف واليباس، وكل ذلك في سبيل أن يتمكن المحتضر من النطق بالشهادة. ثم من الخير تبشيره بالجنة وتهنئته بها**، كما فعل عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب وسواهما من الصحابة الكرام مع عمر بن الخطاب t بعد أنْ طُعِن، فقد ذَكَرُوا فضائله وبشَّروه بلقاء الأحبة محمَّد وصحبه. فضلاً عن ذلك، فإنّ ملك الموت، في ذلك الحال، يدفع عنه الشيطان، وتلقنه

الملائكة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). فقد ذكر ابن أبي الدنيا والطبراني عن جعفر t قال: (بلغني أنه [أي ملك الموت] إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا نظر عند الموت ممن كان يحافظ على الصلوات دنا منه ملك الموت ودفع عنه الشيطان وتُلَقِنُه الملائكةُ لا إله إلا الله محمد رسول الله في ذلك الحال العظيم)[1].

غير أن بعض العلماء ذهب إلى أنّ تلقين الميت يكون بـ (لا إله إلا الله) دون (مُحَمَّد رسول الله) ودون أي شيء آخر، للحديث الآنف الذكر: (إذا احتضر الميت فلقّنوه لا إله إلا الله).

وقد ذكرت الموسوعة الفقهية[2] القول، بأنه لا يُسنّ زيادة "محمد رسول الله" عند التلقين وقالت: إن الجمهور على ذلك لظاهر الأخبار. ثم ذكرت أنّ جماعة من الفقهاء قالوا: إن المقصود من التلقين تذكُّر التوحيد وذلك لا يحصل إلا بالشهادتين.

ومن الواضح، أنّه لو نطق المحتضر بمحمد رسول الله أيضاً لكان ذلك خيراً كبيراً بلا ريب. غير أن بعض العلماء رأوا الالتزام بنص الحديث واكتفوا به، وذلك أيضاً بمنع التطويل على المحتضر وإرهاقه. علماً أنّ جملة (لا إله إلا الله) كثيراً ما تأتي مقرونة بالشطر الآخر (محمد رسول الله)، فإذا ما ذكرنا في التلقين (لا إله إلا الله) كأننا لقّناه أيضاً (محمد رسول الله)، فالمسلم وبشكل انسيابي ينطق بالشطرين بكاملهما دون تكلف، وبإيمان وعفوية واضحين. والله تعالى أعلم.

---

(١) حاشية على رد المحتار، ج ٢ طبعة ٢ سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦م. يفهم مما ورد في حاشية ابن عابدين (أنّ المحتضر يلقن الشهادتين ولا يقتصر على الأولى أي (لا إله إلا الله) فحسب بل أيضاً (محمد رسول الله) لأن المقصود موته على الإسلام.. ولا يتم ذلك إلا بالشهادتين معاً، كما يمكن تلقين المريض الاستغفار المنقول عن النبي r : (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه) فهي تتضمن معاني التوحيد والتوبة معاً، ومنع تخويفه بأن علامات الموت بانت عليه. وذكر أيضاً إضافة قراءة سورة الرعد إلى سورة يس لقول جابر: (إنما تهون عليه خروج روحه). وأكد على **أن التلقين يستحب ولو بعد الدفن**، لأن لفظ الحديث (لقنوا موتاكم) يشمل المحتضر والمدفون، ولما روي عن النبي r أنه أمر بالتلقين بعد الدفن، وذلك لأن الميت يسمع كما ثبت في الحديث الصحيح. وقال أيضاً: (ومن لا يُسأل ينبغي أن يلقن) وهم الأطفال والرضع والشهداء، ومن مات يوم الجمعة والمرابط والمطعون... فهم لا يسألون سؤال القبر) ونقول: إن ذلك رأي بعض العلماء بخلاف البعض الآخر والرأي الراجح أن كل ذي روح من بني آدم يُسأل في القبر والله أعلم.

(٢) الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية ج ١٣/مادة تلقين ، ص ٢٩٦ .

الفصل الثامن:

التلقين بعد الدفن

قد يكون التلقين، كما ذكرنا في الفصل السابق، بعد الدفن. ذلك أنّ الحديث (لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ)، يشمل أيضاً من أدخل في قبره. فشأن الميت بين احتضار وإقبار، وفي كلتا الحالتين ينفعه التلقين، كونه يحسُّ ويسمع، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة. أما تلقين المحتضر فلا خلاف عليه، وأما من دخل البرزخ فيمر بمرحلة المساءلة وتوابعها، وتكون فورَ غَمْر القبر بالتراب. مع الإشارة إلى أنّ في تلقينه خلافاً، وفي هذا الشأن نقول:

إن كلمتي الاحتضار والتسجية إذا ما اطلقتا أفادتا الموت. وصاحبا الحالتين معنيان بحديث النبي r "لقنوا موتاكم"، علماً أن مفهوم لفظ التلقين يقتضي سماع المدفون لشهادة التوحيد وإعادة ما سمع، أي قدرته على النطق. وقد ثبت عن النبي r أنه قال: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ قالَ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ" **متفق عليه.** وسمى الله تعالى ما ينطق به الميت قولاً ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إبراهيم. وورد أن المقصود بالآخرة هنا القبر. وأورد **ابن عابدين**[1] أنّ الميت يسمع، ويستأنس بالذكر. ثم في قول عمرو بن العاص t ، إذ طلب من ولده عبد الله وأهله أن

---

(١) **محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي** (١١٩٨ هـ/١٧٨٤-١٢٥٢ هـ/١٨٣٦) فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره. ولد في دمشق. هو في سلسلة آباء يتصلون بالإمام جعفر الصادق إلى الحسين بن علي y جميعاً. وعرف المترجم بابن عابدين، وقد صلى ابن عابدين على جنازة شيخه خالد النقشبندي إماما، وألف رسالة في المنافحة عنه سماها:(سلِ الحسامَ الهندي).من مؤلفاته الكثيرة: الحاشية: وتسمى(رد المحتار على الدر المختار) تعرف باسم حاشية ابن عابدين، (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية): وهي تنقيح فتاوى حامد ابن علي العمادي المتوفى سنة ١١٧١هـ، وسواها. توفي ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٢ هـ، وصلي عليه في جامع سنان باشا ودفن في مقبرة الباب الصغير.

يبقوا عنده بعد دفنه بعض ساعة، مستأنساً بهم ليتدبر ما يجيب به عند السؤال، دليل على أنّ ابن العاص t فهم من سنة النبي استئناس الميت بأهله وسماعه لتذكيرهم بثوابت الإسلام والعقيدة، وبذلك يتدبر الأمر، فتأمل!!!..

ومن صِيَغِ التلقين بعد الدفن ما رواه **الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة** t عن النبي r : "يَا فُلانَ بن فُلانَةَ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ وَلا يُجِيبُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا فُلانَ بن فُلانَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا، ثُمَّ يَقُولُ: يَا فُلانَ بن فُلانَةَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: أَرْشِدْنَا رَحِمَكَ اللَّهُ، وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ، فَلْيَقُلْ: اذْكُرْ مَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا، فَإِنَّ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَأْخُذُ وَاحِدٌ مِنْهُمْا بِيَدِ صَاحِبِهِ، وَيَقُولُ: انْطَلِقْ بنا مَا نَقْعُدُ عِنْدَ مَنْ قَدْ لُقِّنَ حُجَّتَهُ، فَيَكُونُ اللَّهُ حَجِيجَهُ دُونَهُمَا"[1]. ونصت عليه الحاشية، أن يخاطِبَ الميتَ بالقول: (يا فلان ابن فلان، اذكر دينك الذي كنت عليه، من شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنّ الجنة حقّ، والنار حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمَّد نبياً وبالقرآن إماماً [أي كتاباً] وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا). غير أنّ التلقين بعد الدفن، بالنصين السابقين أو بأي نص آخر، لم يجمع عليه الفقهاء كما نوهنا سابقاً. ومردّ ذلك خلافهم في مسألة سماع الميت واستجابته. وقد ذكرت **الموسوعة الفقهية** بشأن التلقين عند الدفن أو بعد غمر القبر بالتراب فقالت: (إنّ المالكية وبعض الشافعية والزيلعي[2] من الحنفية ذهبوا إلى أنَّ هذا التلقين لا بأس به ـ لكن ـ لم يأمروا به) ... وقالت: (لكنّ طائفة من الصحابة نُقِلَ عنهم أنهم أمَروا به **كأبي أمامة الباهلي** وغيره)[3]

---

(١) قال الحافظ في التلخيص: وإسناده صالح، وقد قواه الضياء في أحكامه. وقال النووي: هذا الحديث وإنْ كان ضعيفاً فيستأنس به، وقد اتفق علماء المحدثين وغيرهم على المسامحة في أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب.

(٢) هو الإمام المحدث الحافظ أحد أعلام علم التخريج المشتهرين، اسمه: جمال الدِّين عبد اللّه بن موسى الحنفي الزيلعي رحمه اللّه و"زيلع" بلدة على ساحل الحبشة، توفي رحمه الله في المحرم عام ٧٢٦ هـ.

(٣) هو **صدى بن عجلان** t أسلم، وبعثه النبي r إلى قومه وأهله يدعوهم إلى الله U، ويعرض عليهم الإسلام، فدعاهم لكنهم أصروا على عبادة الأوثان، فجادلهم حتى جفّ حلقه فطلب منهم شربة ماء فرفضوا وكان الحر شديدًا فاسترخى ونام،

ونذكر هنا آراء بعض فقهاء المذاهب الأربعة في التلقين بعد الدفن.

فالإمام القرطبي من المالكية أجازه في كتابه التذكرة، وأفرد له باباً أسماه (باب ما جاء في تلقين الإنسان بعد موته شهادة الإخلاص في لحده)، وذكر أن العمل جرى في قرطبة على تلقين الميت، واستشهد بنصيحة شيخه **أبي العباس القرطبي**[1] بذلك .وكذلك المحققون من أئمة **المذهب الشافعي**، كالإمام النووي في المجموع ٣٠٣/٥: (يستحب تلقين الميت عقب دفنه)، ثم قال: (التلقين هو الذي نختاره ونعمل به). و(لم يزل أهل الشام على العمل بهذا). وكذلك في **المذهب الحنبلي**، فقد قال الإمام المرداوي[2] في كتابه الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ٥٤٨/٢: (يستحب تلقين الميت بعد دفنه عند أكثر الأصحاب). وذكر **ابن القيم في كتابه الروح** ص ٢٠ ، أنّ الإمام أحمد عندما سئل عن التلقين عند أو بعد الدفن استحسنه وأصبح عليه العمل. و**قال ابن تيمية**: (تلقين الميت بعد موته ليس بواجب، ولكن من الأئمة من رخص فيه كالإمام أحمد ، وقد استحبه طائفة من أصحابه وأصحاب

فأتاه آت في منامه حسن المنظر بإناء فيه شراب فشرب حتى ارتوى، ثم استيقظ من نومه فمنَّ عليه قومه فأسمعوه أنهم سيأتون له بلبن فقال لهم: (لا حاجة لي به، إن الله أطعمني وسقاني)، ثم أظهر لهم بطنه، فلما رأوا بطنه مملوءة، وليس به عطش ولا جوع قالوا له: ماذا حدث يا أبا أمامة، فحكى لهم ما رآه في منامه فأسلموا جميعًا. وقال أبو أمامة: فوالله ما عطشت، ولا عرفت عطشًا بعد تيك الشربة) ورد ذلك في الطبراني والحاكم والبيهقي. وكان **t** يحب الجهاد في سبيل الله، وفي يوم بدر أراد أن يخرج مع رسول الله، فقال له خاله أبو بردة بن نيار: إبقَ مع أمك العجوز؛ لتقضيَ حاجتها، فقال له أبو أمامة: بل ابقَ أنت مع أختك. واحتكما إلى النبي **r** في خروجهما إلى الجهاد فأمر الرسول **r** أبا أمامة أن يبقى مع أمه. وبعدها لازم النبي في جميع غزواته لا يتخلف عن غزوة، ولا يتقاعس عن جهاد، وتوفي أبو أمامة الباهلي بحمص في الشام سنة (٨١هـ)، وقيل سنة (٨٦هـ)، وكان عمره (٩١) سنة، وقيل: إنه آخر من مات بالشام من صحابة رسول الله.

(١) هو **أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري**، القرطبي المالكي، الفقيه، المحدث، المدَرس بالإسكندرية. ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة هـ. في قرطبة. ومن أهم تصانيفه رحمه الله تعالى "المفهم لما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم" ومن أهم تلامذته أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى سنة٦٧١هـ، صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن، وكتاب التذكرة في بيان أحوال الآخرة. وتوفي الإمام الفقيه أحمد في ٤ ذي القعدة من عام ٦٥٦هـ، ودفن بالإسكندرية.

(٢) **المَرداوي** (٨٢٠-٨٨٥هـ). هو أبو الحسَن علي بن سُلَيْمَان المرداوي، وُلِدَ بقرية مَرْدا في فلسطين، وكان من العلماء الدمشقيين الأربعة الذين درسوا في (المدرسة العمرية) في دمشق. من أهم تصانيفه: الإنصاف في معرفة الرَّاجح من الخلاف، وهو من المذهب الحنبلي ومحرره.

الشافعي). وذكر **الحافظ ابن حجر**[1] في تلخيص الحبير ج ٢/ ٢٧٠، عن ابن منصور (من طريق راشد ابن سعد وضمرة بن حبيب وغيرهما قالوا: (إذا سُوّي على الميت قبره وانصرف الناس عنه، كانوا يستحبون أن يقال له: يا فلان: قل لا إله إلا الله ثلاث مرات، قل ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد). وقال **الإمام الشوكاني**[2] في نيل الأوطار ١١/٤ تعليقاً على قول ابن حجر :(راشد وضمرة تابعيان قديمان فقولهما "كانوا يستحبون"، ظاهرُه أن المستحِبّ لذلك، الصحابةُ الذين أدركوهم)، **أما من المذهب الحنفي** فيقول الشيخ عبد الغني الدمشقي في كتابه اللباب في شرح الكتاب (أما **تلقين الميت في القبر فمشروع عند أهل السنة**)، وذكرنا آنفاً عن **ابن عابدين الحنفي** جواز التلقين ونصّه.

وجاء في مركز الفتوى بإشراف د. عبد الله الفقيه (**أما إحساس الميت بزائريه فدلت عليه الأحاديث الصحيحة**) . وقال الدكتور أحمد الحجي الكردي، عضو هيئة الإفتاء في الكويت: (وقد جاء أنّ الميت يشعر بمن يزوره وهو في قبره فقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: "مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلاّ عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السّلامَ" رواه ابن عبد البر، وقد اطّلعنا من قبل على

---

(١) هو شهاب الدين **أحمد بن علي بن حجر الشافعي العسقلاني** الكناني، فلسطيني الأصل مصري المولد، (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ)، الملقب بـ أمير المؤمنين في الحديث. ولد المحدث ابن حجر في مدينة القاهرة في ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣ هـ، وهو من عائلة فلسطينية الأصل من قبيلة كنانة بن خزيمة من مضر سكنت مدينة عسقلان وهاجرت إلى مصر قبل أن يولد هناك. وكان والده عالماً أديباً ثرياً، وأراد لابنه أن ينشأ نشأة علمية أدبية، إلا أن والده توفي ولم يزل أحمد طفلاً، فكفله أحد أقاربه. أتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ووُصف بأنه كان لا يقرأ شيئاً إلا انطبع في ذهنه. تلقى ابن حجر مختلف العلوم عن جماعة من العلماء كل واحد كان رأساً في فنه. تفرد ابن حجر من بين أهل عصره في علم الحديث مطالعة وقراءة وتصنيفاً وإفتاءً حتى شهد له بالحفظ والإتقان وأطلق عليه لفظ "الحافظ" بإجماع بين العلماء. شغل ابن حجر الكثير من الوظائف المهمة في الإدارة المملوكية المصرية، تولى ابن حجر الإفتاء واشتغل في دار العدل وكان قاضي قضاة الشافعية، له مؤلفات وتصانيف كثيرة زادت على مئة وخمسين مصنفا أهمها: فتح الباري شرح صحيح البخاري (خمسة عشر مجلداً)، ومكث ابن حجر في تأليفه عشرين سنة . الإصابة في تمييز الصحابة،ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر. توفي في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٢ هـ .

(٢) **محمد بن علي بن محمد الشوكاني** (١١٧٣ هـ . ١٢٥٥ هـ، ١٧٥٩-١٨٣٤م)، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة، أصله من اليمن من بلدة هجرة شوكان،.نشأ في صنعاء، ومن أهم مؤلفاته نيل الأوطار في الفقه والحديث، وفتح القدير في التفسير.

حديث الطبراني، من أنّ الميت يقول في المرة الثالثة بعد مناداته: (أرشِدْنا رَحِمَكَ اللّه)، وعطف عليه (ولكنكم لا تشعرون). وفي المقابل نرى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء تخالف آراء من سبق، فقد جاء في الفتوى رقم (١٧٢٧): (سماع الأصوات من خواص الأحياء، فإذا مات الانسان ذهب سمعه فلا يدرك أصوات مَنْ في الدنيا ولا يسمع حديثهم). غير أنهم لوجود وقائع ثابتة عن النبي r ذكر فيها سماع قتلى بدر، جعلوا ذلك استثناءً وخاصاً بالنبي r.

❖ ❖

فصّل ابن القيم في كتابه الروح ص ٢١ حكم التلقين، وخصَّه بفصل عنوانه (**الاستدلال على سماع الموتى التلقين في القبر**)، فاستقبح القول بعدم جوازه، بينما الأمة في سائر الأمصار والأعصار تعمل به. وأمة الإسلام هي أكمل الأمم عقولا وأوفرها معارف). وتساءل هل يمكن أن (تُطْبِق [أي الأمة] على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك... فلولا أن المخاطب لا يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم ؟)، وأكد أن العلماء قاطبة مجمعون على استقباح مخاطبة التراب والحجر واستهجانه.

ونقل ابن القيم، أنّه لما سمع الإمام أحمد بحديث نقله الخلاّل في الجامع عن **العلاء بن اللجلاج**[1] أن أباه قال: (إذا أنا مت فضعني في اللحد، وقل باسم اللّه وعلى سنة رسول اللّه، وسُنَّ علي التراب سنّاً، واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها، فإني سمعت عبد اللّه بن عمر يقول ذلك).فأمر الإمام أحمد بالقراءة، وهو استدلال على سماع الميت

وأياً كان الأمر، فإنّ التلقين للميت بعد موته، يثير مجموعة أسئلة، تتعلق كلها بوضع الميت عند دفنه، هل هو يسمع ويرى؟ وهل هو قادر على النطق حتى من دون صوت، وقد ماتت حواسه وأجهزة جسده كلها؟

---

(١) يقال العامري الشامي والد عَبْد الرحمن بْن العلاء بْن اللجلاج وأخو خالد بْن اللجلاج، قال ابْنُ حِبَّان في "ثقات التابعين": اللجلاج صاحب معاذ بن جبل، وسكن الشام، وفي رواية أخرى عن الرجل الذي جاء يسأل عن الميت المرجوم فإذا هو أبوه، فأعَنَّاه على غَسْله وتكفينه ودفنه، وما أَدري قال: "والصلاة عليه" أم لا. وقال جده عاش مائة وعشرين سنة.

لا شك أنّ هذه المسألة من الأمور الغيبية التي لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه، إلا أن الكتاب والسنة ذكرا ما يكفي لاستشفاف بعض المعاني التي تشكل، في مجموعها، إحاطة نسبية بواقع الميت في قبره، وتسمح لنا، نحن الأحياء، بمقاربة المسألة.

❖ ❖

لعالم البرزخ طبيعة خاصة

بداية، لا بد أن نؤكد أنّ **لعالم البرزخ طبيعته وخصوصياته وأبعاده، ويستحيل على الإنسان، وهو في الدنيا، أن يُحْسن تصور ذلك العالم، أو أن يعقل صوره ويدرك تفاصيله**. وقد تحدثنا في أكثر من موضع في هذا الكتاب عن البرزخ، وأنّه عالم آخر لا يشابه عالم الدنيا. ذلك أنّ روح الميت هي المعنية في ذلك العالم لا جسده، وإن كان للجسد، "نوع تعلق بالروح" كما قال ابن عابدين في حاشيته. وإدراك ذلك في الدنيا محجوب عنّا إلا بالقدر الذي أعلمنا به الله ورسوله، لكننا سندركه قطعاً عندما نلج باب البرزخ، وكلنا والجون.

ونقول: إنّ الإنسان وإن ماتت حواسه، إلا أن روحه، التي عاش بها، باقيةٌ لم تمت، وإنما تحررت من الجسد، وغدت في عالم جديد له مقتضياته وطبائعه، تعيش فيه وفق نواميسه. وهي إذ خرجت من جسدها، وصعدت بها ملائكتها إلى الله تبارك وتعالى، أعيدت بعد ذلك إلى الأرض، لتلازم جسد صاحبها، بعد أن أنجزت إجراءاتها هناك بكيفية عِلْمُها عند الله وحده، كما ورد في الحديث الشريف الذي سنورده لاحقاً.

وأيضاً، فمن المعلوم أن مختلف حواس الإنسان، في الدنيا، تباشر وظائفها بوسائلها المقررة لها، فالعين للبصر والأذن للسمع. غير أنّ الحقيقة تقول: إنّ من يسمع هو الروح، ومن يرى هو الروح، ومن يعقل هو الروح. وما مفردات الجسد إلا طريق لاستمراره في الدنيا كياناً حياً، له دوره ورسالته. فإذا ما توقف الجسد وخرجت منه الروح، غدا كتلة توقفت فيها مفرداته عن العمل، فامتنع عليها ممارسة أيٍّ من أدوارها . **وأنت ترى الميت الذي كان قبل لحظات حياً ينبض قلبه، ويرى ويسمع**

ويتكلم، ثم إذا به يفقد حيوية جميع تلك المفردات،مع بقاء جميع أجهزتها قائمة، لم يخسر منها شيئاً. فالعين موجودة ولكن لا ترى، والأذن ثابتة لكن لا تسمع، وكذلك القلب والدماغ واللسان والفم والأوتار الصوتية كلها فقدت وظيفتها المناطة بها، وباتت كتلاً من الأنسجة غير ذات فائدة... وسرُّ ذلك كله أنّ الروح انفصلت عن الجسد الدنيوي، وعادت تنتظره بعد عودتها من السماء في مكان أرضي آخر هو قبره، لتعيش معه في داره الجديدة، عالم البرزخ العجيب. وفي تلك الدار تختلف كل المقاييس، وقد أشرنا إلى بعض منها عند حديثنا عن الروح من هذا الكتاب، فهي - أي الروح - ترى وتسمع وتتحرك، وهي ترد السلام على زائر قبر صاحبها، وتستقبل هدايا الأحياء إذا ما أرسلوها إلى أمواتهم، كصدقات منهم إليهم، تحملها الملائكة على أطباق من نور. وإنْ كانت الروح تعرف في الدنيا زائرها في برزخها لرأته وسُرّت برؤيته، كما أنها تَطْمَئِن عن أهل الدنيا، وبخاصةٍ أهلها وإخوانها، حينما ينضم إلى عالم البرزخ قريب أو جار أو صديق. فالروح في ذلك العالم قادرة على التزاور مع المتواجدين ومع القادمين الجدد، ويكون بينهم أحاديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات، كما روى الطبراني عن **أبي أيوب الأنصاري**[1]: (إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ تَلْقَاهَا أهلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْبَشِيرَ فِي الدُّنْيَا، فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اُنْظُرُوا أَخَاكُمْ يَسْتَرِيحُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ .قَالَ: فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُونَهُ مَا فَعَلَ فُلانٌ وَمَا فَعَلَتْ فُلانَةُ، هَلْ

---

(١) **أبو أيوب الأنصاري** هو خالد بن زيد النجار معروف باسمه وكنيته لكن كنيته غلبت على اسمه. أسلم أبو أيوب قبل هجرة النبي r إلى المدينة، وشهد العقبة.عاش أبو أيوب t حياته غازياً حتى قيل إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون في عهد رسول الله r وبعد وفاته ظل جنديا في ساحات الجهاد وكانت آخر غزواته حين جهز معاوية جيشا بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية وكان أبو أيوب وقتها بلغ عمره ثمانين سنة ولم يمنعه كبر سنه من أن يقاتل في سبيل الله ولكن في الطريق مرض مرضا أقعده عن مواصلة القتال فجاء يزيد ليعوده وسأله: ألك من حاجة يا أبا أيوب؟ فقال:اقرأ عني السلام على جنود المسلمين، وقل لهم: يوصيكم أبو أيوب أن توغلوا في أرض العدو إلى أبعد غاية، وأن تحملوه معكم، وأن تدفنوه تحت أقدامكم عند أسوار القسطنطينية، ولفظ أنفاسه الطاهرة، وعن الأصمعي،عن أبيه: أن أبا أيوب قبر مع سور القسطنطينية، وبني عليه، فلما أصبحوا، قالت الروم: يا معشر العرب، قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، قال الواقدي: مات أبو أيوب سنة اثنتين وخمسين، وصلى عليه يزيد، ودفن بأصل حصن القسطنطينية. فلقد بلغني أن الروم يتعاهدون قبره، ويستسقون به.

تَزَوَّجتْ؟؟ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الرَّجُلِ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُ، فَيَقُولُ: أَيْهَاتَ قَدْ مَاتَ ذَاكَ قَبْلِي، فَيَقُولُونَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، ذُهِبَتْ بِهِ إلى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ فَبِئْسَتِ الأُمُّ وَبِئْسَتِ الْمُرَبِّيَةُ، قَالَ: وَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذَا فَضْلُكَ وَرَحْمَتُكَ فَأَتْمِمْ نِعْمَتَكَ عَلَيْهِ، وَأَمِتْهُ عَلَيْهَا، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِمْ عَمَلُ الْمُسِيءِ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُ عَمَلا صَالِحًا تَرْضَى بِهِ عَنْهُ وتُقَرِّبُهُ إِلَيْكَ).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك t قال رسول الله r : (إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنْ الْأَمْوَاتِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا).

ولقد حدّث النبي r في مناسبات شتى عن أمور البرزخ العجيب. وفضلاً عمّا كتبناه في فصل الروح وانسلاخها وفي مجمل هذا الكتاب، نعود هنا لنذكر بعض الظواهر البرزخية، وإن عجزت بعض الأفهام الدنيوية عن إدراكها بالكامل. فالنبي r يقول: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ قَالَ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ...) متفق عليه. ويعني هذا أنّ الميت حال دخوله مقره الأخير، يبقى على تواصل مع الدنيا بالسمع، فهو يسمع قرع النعال، أي حفيفها على أرض أو تراب، فإن كان كذلك، ألا يسمع الأصوات المرتفعة حول قبره، وهي تُذكّره، بما عاش عليه في الدنيا مؤمناً بالله ورسوله وبسائر مفردات التلقين؟!.

وفي رواية أوردها ابن هشام في سيرته عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t ، قَالَ سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ r مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ، وَيَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، فَعَدَّدَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي الْقَلِيبِ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي).وللبخاري ومسلم ذات الرواية عن ابن عمر y .

وقال الله سبحانه في سورة غافر، شارحاً ومفصلاً عذابات آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ غافر .فمن

مضمون الآية، يتبين أنّ الميت يرى النار - كما يرى الجنة أيضاً - ، فآل فرعون تُعرض عليهم النار وأحوالها، فيرون ذلك وهم في عالم البرزخ، ومقتضى العرض الرؤية، وأما ذكر الصبح والمساء في الآية فإشارة إلى دوام عذابهم في برزخهم، كما ذكر الرازي في تفسيره. أما أشد العذاب في النار فهو مؤجل إلى يوم القيامة في العالم الآخر.

وفي سورة الأعراف نقرأ قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وما يستفاد من الآية أنّ المساءلة تتمّ، وأنّ الموتى يجادلون ويعترفون، ولكنه لعمري، سمع ونطق من نوع خاص وجديد.

ومن خلال الآيات والأحاديث السابقة، والتي تصرح بإحساس وسماع وكلام الموتى في قبورهم، نستطيع **أن نرجح رأي مجيزي التلقين بعد الدفن، مع التأكيد على أن الشعور والسماع والكلام من الميت هو من نوع خاص لا يعلم حقيقته إلا الله**، كونه متعلقاً بالروح، والروح من أمر الله، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً، خاصةً والروح قد انفصلت عن الجسد وأدواته التي كانت تمارس بها سائر الحواس.

ومما لا ريب فيه أن مثل هذه المشاهد البرزخية توجد التحفز عند الناس، استعداداً لدورهم الآتي الذي لا مهرب منه ولا مفر، فيزيد عندهم الشفافية والالتزام.

وعلى هذا، فلا يصح التوقّف عند رأي من يقول: إنّ تلقين الميت بعد دفنه يُعلِّم الناسَ التواكل ويورثهم الغفلة، بسبب أنهم سيتكلون على التلقين الأخير بما يجعلهم سعداء في القبر[1]. فهذه المقولة تُعتبر متهافتة، لأن التلقين تذكير

(١) نشرت جريدة اللواء اللبنانية بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/١٤ تحقيقا لبعض علماء الأزهر، منهم الدكتور عبد الفتاح عساكر الأمين المساعد لمجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، حول تلقين الميت، فذهبوا إلى نفيه وأصروا على بدعيته وقالوا بأنه يوجب الغفلة والتواكل عند الناس.

للميت بما كان عليه أصلاً في الدنيا، معتقداً بمضمونه، ولن ينفعه التلقين بما يُذَكَّر به إن كان غير مؤمن والله أعلم.

❖ ❖

ولئن نفع التلقينُ الميتَ المؤمن، وهو رجاء مأمول، فإنه ينفع أيضاً سامعيه من بني البشر حاضري دفنه. فهؤلاء يأملون أنّ ميتهم قد نفعه إيمانه والتزامه، والتذكير بهما نافع بإذن الله وخير له. فها هو قد آل إلى حفرة صغيرة في الأرض بعيداً عن ماله وأهله ومقامه، الذين كانوا مؤنسين له في الدنيا، وبات لا يملك شيئاً إلا إيمانه وعمله. **وجاء من يذكره بما مات عليه مرتين: مرة عند احتضاره، ومرة عند وداعه الأخير وصيرورته إلى عالم آخر جديد. فإن كان الأمر كذلك، ألا تستيقظ أرواح السامعين وضمائرهم ليكونوا مؤمنين ملتزمين، وأن يعوا مضمون التذكير الأخير للميت الذي سمعوه عند قبر من شيعوه؟، ثم ألا يكون التلقين، أيضاً، قد أدَّى واجب الأحياء من النصيحة والتذكير في لحظة الوداع الصعبة، كعلامة من علامات الوفاء للذي خرج من دار الفناء إلى دار البقاء، إذ يتابعونه في أصعب لحظاته ويسألون الله له التثبيت، ويُذكّرونه بما عاش فيه وله؟!! أما نفوس المؤمنين الملتزمين فتزداد خشوعاً، وتدفعهم مخيلاتهم إلى تصور أنفسهم مكان هذا الميت، وأنهم سيؤولون يوماً إلى مثل هذا الموقف الصعب، فتنطلق أفئدتهم إلى تأكيد عهودهم مع الله ربهم، على الاستمرار في رحلة الحياة الإيمانية الصادقة ويسألونه التثبيت والفلاح.**

إن واجب التذكير، بوجه عام، مأمور به كل مسلم. قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الذاريات ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ الأعلى. **صحيح أنّ الأصل في هذا للأحياء، لكن لا يمنع من التذكير عند القبر، فيدرك المعنيّ به أنّ الأحياء قد قاموا بكامل حقوقه، والتي منها تذكيره بحججه التي آمن بها وعمل بمضمونها. وهكذا يكون التلقين فائدة للميت ومنافع لمشيِّعيه. والله تعالى أعلم.**

❖ ❖ ❖

الفصل التاسع

موت الفجأة ودموع الحزانى

ومن صور الموت، أنّه قد يأتي فجأةً من غير سابق إنذار من مرض أو شيخوخة أو هرم، ولعل تلك الصورة أصعبُ صوره وأشدّها على الميت وعلى أهله وأصحابه. فأما بالنسبة للميت، فقد يكون مُهْملاً لأمر الوصية، المعبرة عن إرادتِه بعد موته، وهي سنّةٌ أثيرة مدعوٌ لها ومأجورٌ فاعلها. وهي سجلُ حقوقٍ له أو عليه، أو رغبتُه في إنجاز بعض فعال الخير، أو التأكيد على رعاية ولده أو أهله... فقد قال النبي r : "مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصَى فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاّ وَوَصِيَّتُهُ عِنْدَهُ مَكْتُوبَةٌ" رواه الإمام مالك في موطئه عن عبد الله بن عمر t . كما أنّ موت الفجأة، يحُول بين المرء وبين توبة كانت مرجوة منه أو كان عازماً عليها، غير أنّه أجّلها لظنه أنّ عُمُراً له لا يزال في سجله، فيفاجئه الموت فيَحُول بينه وبين التوبة..

وموت الفجأة أيضاً صعب على الأهل والأصحاب، فلم يظنّوا صاحبهم محتمل الوفاة، فليس هو بمريض أو في حرب، ومع ذلك يفاجأون بموته، فيتضاعف عندهم الألم لفراقه ولعدم وداعه وعدم معرفة إرادته الأخيرة، فيكون خبر الموت عليهم شديداً قاسياً، إذ رحل حبيبهم[1] أو صديقهم سريعاً. ويغدو أمر

---

(١) كولدي مؤمن الذي مات فجأة، وكان لموته أثر عميق في النفس، تتلمسه، أخي القارئ، من خلال كتابي الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء). كما كان لنا أخ في الله كريم، عضو في الوقف الإسلامي للعمل الخيري، هو الحاج محمد علي هوشر رحمه الله، وهو والد لأخت كريمة نالت الماجستير في علوم الحديث والسنة، موظفة في مؤسساتنا الخيرية، وكنت يوماً في إحدى تلك المؤسسات، إذ سمعتُ ابنته الأستاذة سحر تصرخ باكية على هاتف تلقته من والدتها، أن أسرعي فوالدك كان يتكلم معي وفجأة سكت، لا أدري ما به لا يتحرك!! فكان ذلك مفاجأة كبرى للجميع، أسرعت الأخت سحر إلى دارها، ولشدة دهشتنا انتقلنا إلى دارهم مع بعض الإخوة لنتحرى الخبر، علماً أنه رحمه الله كان يتمتع بصحة كاملة، وأباً لستة أبناء. كدنا لا نصدق عيوننا، فطلبنا له الأطباء لنعرف ما أصابه وما هي حاله الآن، لنفاجأ بعد كتم أنفاسنا بقول الطبيب: عظّم الله أجركم وإنا لله وإنا إليه راجعون، فصعق جميع الحاضرين وهم ينظرون إلى الفقيد مغمض العينين ممدداً لا حراك له، فقد غادرته الروح الطيبة إن شاء الله إلى ربها راضية مرضية،

الميت في أولاده أو أملاكه أو أعماله أو خياراته مضطرباً عليهم، قد لا يعرفون كيف يتدبرونه أو كيف يواجهونه. وفي هذا الشأن روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة t أنّ النبي r مَرَّ بِجِدَارٍ أو حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ الْمَشْيَ فَقِيلَ لَهُ فَقَالَ: (إِنِّي أَكْرَهُ مَوْتَ الْفَوَاتِ) وهي تسمية تفي بمختلف صعوبات (الفجأة).

إنّ موت الفجأة، وإن كان معروفاً في كل زمان ومكان، إلا أنه - كما نرى ونسمع ونشاهد - أخذ يزداد انتشاراً وكثرة في زماننا.. ومن أسبابه الجديدة، تطور التكنولوجيا من كهرباء وسيارات وطائرات وقنابل رهيبة وحروب ضارية، مما يجعل الموت كثيراً في أعداده وفُجاءَته القاسية. كما إنّ التقنيات الجديدة التي أوجدت كثيراً من الراحة الجسدية وأسبابها، وجعلت الموت مفاجئاً بالسكتة القلبية أو الدماغية، أكثر حضوراً من الأزمان الغابرة. من هنا نفهم لماذا جعل رسول الله كثرة الموت الفجأة أمارةً أو علامة من علامات الساعة، إذ قال: (من أمارات الساعة أن يكثر موت الفجأة)[1]

وكان لهذه الحادثة الأثر البالغ في نفوسنا جميعاً: أسرته وإخوانه رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه. علماً أنه بعد مماته رأته ابنة عمه في المنام وهي تسأله عن حاله، فتبسم وقال لها: الحمد لله، ثم تلا عليها الآية الكريمة (في مقعد صدق عند مليك مقتدر)، وهي لغاية الآن كلما تتذكر الرؤية تدمع عيناها ويقشعر بدنها، فهي لم تعلم أن ما قاله لها هو آية قرآنية، فحفظتها من يومها ولم تنسها.

(١) ومن جميل بعض المرويات **قصة** رواها وهب بن منبه، عن حوار بين ملك الموت وملك متكبر يكره الموت أتاه فجأة وهو في استعراض لقوته، نقل القصة الإمام الغزالي في الإحياء ص ٥٦٦ (عن وهب بن منبه قال: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه. بعد مرات. وكذلك طلب دابة بها فلم تعجبه،حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً، فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته، فقال الملك: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً! قال: إن لي إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها! قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال: أنا ملك الموت! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا! فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة، ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال، فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارّه وقال: أنا ملك الموت! فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك! فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى! قال: فاختر علي أي حال شئت أن اقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال نعم إني أمِرْتُ بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم

الفجأة راحة للمؤمن نعم... ولكن!!

رغم كل صعوبات الفجأة وأبعادها، فقد أحلَّها النبي r مكاناً كريماً، إذ جعلها راحة للمؤمن وأسَفاً للفاجر، فقد سألته السيدة عائشة رضي الله عنها عنْ مَوْتِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ: (رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِفَاجِرٍ) **الإمام أحمد في مسنده**. فمن المفترض أن يكون المؤمن ملتزماً بدينه وأحكامه ووصاياه المختلفة، من التوبة المتجددة والاستغفار الدائم والوصية المفيدة، إلى تذكر الموت الذي يجعله في ابتعاد عن الشر واقتراب من الخير، ومستمعاً جيداً لما قاله ابن عمر t :(إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) **البخاري في صحيحه**..فإنّ إنساناً مؤمناً بهذا المستوى، إن جاءه الموت فجأة، يكنْ مستعداً للقاء ربه متمكناً من زاده، فيغدو الموت الفجأة رحمة له. وعكسه الفاجر، الفاسق، المضَيِّع والمُقصِّر في أمر الله وأمر دينه، فهذا يكون الموتُ أسفاً عليه، أنْ ضاعت عليه فرص كبيرة في نهاية حياته، مما يبرر الأسى والأسف لحصول الموت فجأة له. وهو أسف يصدر عن المؤمن الذي يرى أخاه في الدين، وقد فوّت على نفسه عودةً حميدة إلى ربه. نسأل الله السلامة من أمثالها.

اقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد. وتعقيباً على قصة الملك المتكبر في القصة السالفة الذكر، ذكر وهب القصة التالية: (قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة: لمن كنتَ أشد رحمة ممن قبضتَ روحه؟ قال: أمرتُ بقبض نفس امرأةٍ في فلاة من الأرض فأتيتُها وقد ولدت مولوداً فرحمتُها لغربتها ورحمتُ ولدَها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بما [لكن ملك الموت قبض روح المرأة]. فقالت الملائكة: الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء!!)، وفي هذه القصة الاخيرة مؤشرات تحكم مسار الإنسان في حياته. والله اعلم. **ووهب بن منبه هو تابعي جليل** (٣٤ هـ - ١١٤ هـ) ، له معرفة بكتب الأوائل وإخباري قصصي يُعد أقدم من كتب في الإسلام. كان ممن قرأ الكُتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهد. وعدّه أصحاب السِيَر من الطبقة الثالثة من التابعين. روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في التفسير. كنيته أبو عبد الله الصنعاني. وكان وهب من أبناء فارس، كان والده "منبه" خرج منها أيام كسرى وأسلم على عهد النبي فحسُن إسلامه وسكن اليمن. وتوفي وهب سنة ١١٠هـ. وأكثر ما يُروى عن وهب حِكَم ومواعظ، وأما روايته للأحاديث فهي قليلة. من كتبه: ذكر الملوك المتوجة من حمير، وقصص الأنبياء، وقصص الأخيار، و**من أقواله: إذا مدحك الرجل بما ليس فيك فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك**؛ المؤمن ينظر ليَعلم، ويتكلم ليَفهم، ويَسكت ليَسلَم، ويخلو لَيغنَم؛ عجباً على الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد.

مجمل ما قدمناه صور لموت الفجأة... لكن في بعض الأحيان، قد يكون لمن دخل عتبة الموت فجأة، بعضُ الفرص وإن قصُرَت، كأن يضطرب قلبه، وتختل حركته، أو يقع متخبطاً بدمه في حرب أو حادث سيارة أو طائرة، فيدرك بذلك أنّ الموت بات قريباً منه جداً، وبذلك يتعرف على نهايته المحتومة، وهذه اللحظات رحمة من الله، فإنْ ذكرَ الله وردَّدَ ولو لثوانٍ أو مرة واحدة (لا إله إلا الله) أدرك نعمة كبرى، تُزوى عندها نعم الدنيا كلها.

❖ ❖ ❖

التأكد من تحقق وفاة الفجأة:

من متممات موت الفجأة، أنّه، كان فيما مضى، لا يجوزُ تجهيزُ ميت الفجأة إلاّ أنْ يُتحقق موته. ووضعوا للتحقق علاماتٍ، منها انخساف صدغيه وميل أنفه وغيبوبة سواد عينيه وانفصال كتفيه، بأن تسترخي عصبة اليد وتنخلع الكف من الذراع وتبقى كأنها منفصلة، في جلدتها، عن عظم الزند، وكذا استرخاء رجليه ولينهما واسترسالهما بعد خروج الروح، وكذا امتداد جلدة وجهه. وأوضحُ علامات الموت تغير رائحته. ولا ريب أن هذه العلامات دالّة على موته يقينًا. وسبب تأخير تجهيزه إذا مات فجأة، هو احتمال أن يكون عرضت له سكتة قلبية، وقد ينهض بعد يوم أو يومين، كما حصل ذلك كثيراً[1].

ولئن تطور الطب، واستحدثتْ آلات طبية وأجهزة دقيقة، وأصبح من الممكن قبول رأي الأطباء في تحقق الموت، وتجهيز من مات فجأة دون انتظار بعض العلامات التي أوردناها آنفاً.

---

(١) من موقع الشيخ ابن جبرين . رحمه الله . على النت. وورد أيضاً في صفحة ٢٧٨ من كتاب أحكام الجنائز للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٧/٢٠٠٦ هـ.

من جهة أخرى روى الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه (أحكام الجنائز) قصة طريفة فذكر : (أنّ رجلاً أصيب بغشية، فجهزوه، وحملوه إلى المقبرة، فمروا برجل ذي خبرة، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: هذه جنازة نريد أن ندفنها، قال: هذا لم يمت أنزلوه فأنزلوه، فأتى بسوط فجعل يضرب هذا الميت حتى تحرك، فقالوا: ما الذي حملك على هذا؟ ما الذي أعلمك أنه لم يمت؟ قال: إن الميت تسترخي رجلاه فلا تنتصب، وهذا الذي حملتم رجلاه منتصبتان، وأما ضربي إياه بالسوط؛ فلأن الضرب يحمي الجسم، وإذا حمي جسمه زالت عنه البرودة التي هي سبب الغشي، ثم حملوه راجعين به إلى بيته) .

كما ذهب كثيرون، إلى أنّ الطب ـ وإن كان في مجمل أحكامه وتقريراته ـ ملامساً حقيقة الواقع، إلا أنه قد يخطئ، خاصة إذا ما أصدر حكمه على موت الدماغ، وهو ما بات يعرف بالموت السريري[1] . من هنا بات من الأحوط، ربط حكم الموت طبياً بعلاماته المعتمدة في الفقه وعادات الشعوب، والله تعالى أعلم[2].

❖ ❖

ورحم الله من قال واصفاً بعض حالات فجأة الموت:

بينا الفتى مَرِحُ الخُطا فَرِحٌ بما ... يسعى له إذ قيل: قد مرض الفتى

إذ قيل: بات بليلة ما نامها ... إذ قيل: أصبح مُثخناً ما يُرتجى

إذ قيل: أصبح شاخصاً و موجهاً ... ومعللاً.إذ قيل: أصبح قد قضى !!!

❖ ❖ ❖

دموع الحزانى:

ما يتبع تحقق الوفاة، تفجر أشجان الحزن في نفوس الأهل والأصحاب. وإنّ إعلان الحزن حالة إنسانية طبيعية، بل هي رحمة أسكنها الله في قلوب عباده.

---

(١).حدث نصر محمد أبو خالد من بلدة بطرماز في قضاء الضنية شمال لبنان، أنه بعد "حياته الجديدة!!!" وإصابته بالشلل قام بخطف طائرة في عام ١٩٧٧، حيث أقلعت من مطار بيروت إلى الكويت من أجل طلب العلاج، ثم أعيد إلى لبنان وسجن شهرين بالكويت ولم يعالج. ثم أخرج من السجن وبقي مشلولاً سحابة أكثر من أربعين سنة. ولا يزال حياً حتى تاريخه ١٤٣٣ . ٢٠١٢ !!.فقال: (في عام ١٩٧٧ أصبت برصاص فنقلت على إثرها إلى بيروت، أسلمت الروح في إحدى مستشفياتها. وهناك أكد الأطباء وحكموا بموتي فأعادوني إلى طرابلس محمولاً، لأجد بانتظاري الفراش المنثور بالزهور والورود، وجمعاً من الناس في الدار يبكونني، ومكبرات المآذن ترتل الآيات وتنعي فقداني، وتُذكّر الناس "بتوحيد" ربهم الحي الباقي. كل ذلك كان وأنا (ميت) لا أعي شيئاً، فغُسّلتُ وكفّنْتُ وهُيئ قبري، ولم يبق إلا سويعات حتى أكون في مدفني، وفجأة عادت الحياة إليّ وسط الأهل والأصحاب في بيتي، وأنا في كفني،أخذ الناس بالصراخ ... عاش عاش ... (طيّب، حي) هو (غير ميت) (كان ميتاً وعاش)، ومن الحضور مَنْ سبَّح وكبَّر، ومنهم من ترك الدار ولاذ بالفرار .. أجل لقد "عشت" فأنا لم أمت رغم حكم الأطباء، ورغم غيبوبتي لأكثر من يوم لا أعي منها شيئاً. حقيقةُ أمري أربع رصاصات استقرت في عمودي الفقري، مما سبب لي شللاً تاماً ودائماً، وصحتي العامة كانت لا تزال في خطر، ومن الرصاصات الأربع اثنتان قطعتا "دودة" الظهر،عند الفقرة الأولى والثالثة واخترقتا الصدر الأيمن، وأدّى ذلك إلى تجمع دموي في الصدر والرئة نتج عنه نزيف دموي داخلي، وأجريت لي عملية جراحية بطنية... ثم أعلنوا وفاتي!!.

(٢) في بحث لنا عن موت الدماغ أحصينا مجموعة كبيرة من أخطاء الأطباء وسوء تشخيصهم فيه. كما أحصينا مجموعة أحداث وقعت وأنهت حياة البعض وفق التقارير الطبية. ثم إنهم بعد سنوات عادوا إلى الحياة الطبيعية، والبحث هذا جزء من كتاب لنا عن الصحة والمرض لم يصدر بعد.

"وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"، كما قال النبي r في الحديث المتفق عليه، فعندما فاضت عينا رسول الله حزناً على وفاة حفيده من فاطمة الزهراء رضي الله عنها، أبدى سعد بن عبادة عجبه من بكاء رسول الله بقوله: يا رسول الله ما هذا؟ فأجابه: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده...)، وبذلك يكون البكاء أمراً مقبولاً، بل إنّ عدم البكاء أمر مستغرب يدعو للعجب. والبكاء كما وصفه النبي r رحمة، تساعد حقيقة على التخفيف من وقع الفراق، كما تسهل على المحزون الذي عبَّر عن حزنه بالبكاء. فالنفس الملتاعة بفقد حبيب تعبّر عن حزنها بالدموع، والدموع جعلها الله سبحانه آية من آياته في النفس البشرية، والتي هي كتلة من المشاعر والأحاسيس، تصدقُها العين بفيض دموعها.والدموع، وإنْ كانت حركة جسدية طبيعية، إلا أنها تعبِّر بصدق عن تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المحزونة، وقد سماها النبي r رحمة، وهي في حقيقتها كذلك إذ تريح المحزون!!.

غير أن بعض الحزانى لا يكتفون بالدموع، فيقومون ببعض الأعمال المستقبحة، كالصراخ وضرب الخدود وتمزيق الثياب وشد الشعر. وهذا كله مما نهى عنه رسول الله r ، وأكثرُ من ذلك، فقد ظهرت عبر التاريخ ولا تزال، نساء مختصات بالتباكي والصراخ، وهنَّ النائحات. والمشكلة الأكبر أنّ هاتيك النائحات يمثلن الأدوار في الحزن طمعاً بالمال. فبقدر ما تعلو أصواتهن ويبالغن في النوح يحصلن على أموال من أهل الميت، ويرتفع الأجر بقدر رفع الصوت والندب والتباكي، وهو ما رفضه الإسلام وعمل على بتر تلك العادة الجاهلية فقال r : "إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنِ النَّوْحِ، عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَمَزَامِيرُ شَيْطَانَ، وَصَوْتٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ خَمْشُ وُجُوهٍ وَشَقُ جُيُوبٍ وَرَنَّةُ شَيْطَانَ" **البزار**[1] **في مسنده عن عبد الرحمن بن عوف t .**

---

(١) الشيخ، الإمام، الحافظ أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، البصري، البزار، صاحب "المسند "الكبير، ولد سنة ٢١٠ هـ . وقد ارتحل في الشيخوخة ناشراً لحديثه، فحدث بأصبهان عن الكبار، وببغداد، ومصر،

ومن جميل ما روي، ما نقله الإمام الأوزاعي: أنّ عمر بن الخطاب t سمع صوت بكاء ونواح نساء، فدخل ومعه غيره، فمال عليهن ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها، وقال لأحد الذين كانوا معه: اضرب فإنّها نائحة ولا حرمة لها، إنّها لا تبكي بشجونكم، إنّها تهرق دموعها لأخذ دراهمكم، وإنّها تؤذي موتاكم في قبورهم، وأحياءكم في دورهم، لأنها تنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه)[1] فتأمل!!! .

ولا يقتصر النهي عن النوح على النساء النائحات، وإنما يشمل أيضاً الرجال. فقد ورد عند وفاة عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان، أن جاء أشعبُ أبو العلاء الطمع فطيَّن رأسه ووجهه فجعل يلتدم مع النساء، وكان ـ أي عبد الرحمن ـ إليه محسناً[2]، فأراد بذلك إعلان نوحه عليه عبْر التدامه مع الباكيات، واللّدم ضرب المرأة صدرها ووجهها وبخاصة في المآتم.

من جهة أخرى، فقد جهد النبي r في إقناع الناس، وبخاصة أهل الميت، بوجوب وضع حد أعلى للحزن. ولذا حدده بثلاثة أيام بوجه عام كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ: "لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ تُحِدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ إِلا عَلَى زَوْجٍ".

ومكة ، والرملة، وأدركه بالرملة أجله، فمات في سنة ٢٩٢ هـ. وقد ذكره أبو الحسن الدارقطني، فقال: ثقة، يخطئ ويَتَّكِلُ على حفظه. وللحافظ البزار قصة جميلة مع صاحبة اللؤلؤ تجدها في كتابنا الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء).

(١) أحكام الجنائز، لابن عثيمين، مرجع مذكور، ص١٤٩.

(٢) راجع ترجمة عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان في ٧٦ من هذا الكتاب.

وفي صحيح البخاري عنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أبي سَلَمَةَ[1] قَالَتْ لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أبي سُفْيَانَ مِنْ الشَّأْمِ دَعَتْ أم حَبِيبَةَ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِصُفْرَةٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ

---

(١)كان اسمها **برة**، فسماها النبي r **زينب**. أبوها هو الصحابي الجليل أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد القرشي t . أخو رسول الله r من الرضاعة.وأبو سلمة هو من السابقين الأولين في الإسلام بمكة، وهاجر إلى الحبشة وأنجبت له امرأته هند بنت أبي أمية ابنه سلمة هناك، وبه كني أبا سلمة وأنجبت له عمر ودرة وزينب. جرح في أحُد ثم انفجر جرحه ومات فعدّ من شهداء أحد.شهد أبوسلمة غزوة أحد، وأصيب بجرح ظل يداويه شهرا، وأم زينب، هي السيدة أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية وقد هاجرت إلى المدينة بمفردها بعد أن سبقها زوجها أبوسلمة إليها، وقد أخذ قومه ولدها الرضيع منها فبقيت حتى أعطوها إياه فهاجرت به.وعاشت أم سلمة رضي الله عنها مع زوجها بالمدينة وأولادها زينب، وعمر، وسلمة ودرة قبل هجرة رسول الله r وحين مات زوجها أبو سلمة، ولما انقضت عدتها تقدم اليها أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب فردتهما في رفق، ثم بعث إليها رسول الله r يخطبها، فقالت إني امرأة غيرى، ومسنة وإني مصبية . أي تقول صبية . وليس أحد من أوليائي شاهدا. فأخبرها r أنه سيدعو الله أن يذهب بغيرتها، وأن سنه أكبر من سنها، وأنه سيتكفل بتربية أولادها، وأن أولياءها سيرضون برسول الله r زوجا لها. وتزوجت أم سلمة رضي الله عنها برسول الله r ودخلت بيت النبوة وأصبحت أماً للمؤمنين.وتربت زينب ابنتها وسائر أولادها في بيت النبوة. فكانت زينب من فضليات نساء المدينة. دخلت عليه r زينب وهو يتوضأ r فنضح في وجهها بالماء، فلم يزل وجهها جميلاً حتى عجَّزت ومازالت جميلة الوجه.وقد تزوجت زينب بالصحابي عبد الله بن زمعة القرشي، ابن أخت أم سلمة رضي الله عنها قتل مع عثمان بن عفان في أحداث الفتنة عام ٣٥هـ. روت زينب سبعة أحاديث عن رسول الله r وروى عنها عدد من الصحابة، وأخرج لها البخاري حديثا وكذلك مسلم حديثا.وعاشت رضي الله عنها حتى عام ٧٣هـ ودفنت بالمدينة وحضر عبد الله بن عمر t جنازتها .

(٢) هي **رملة بنت أبي سفيان**.أبوها أبو سفيان، وأبو سفيان هو والد معاوية، وأمها: صفية بنت أبي العاص هي عمة أمير المؤمنين عثمان بن عفان t .وهي أم المؤمنين وزوج النبي محمد r تزوجها بعد وفاة زوجها عبيد الله بن جحش الذي ارتد عن الإسلام إلى المسيحية، وهي في الحبشة، ولما منه ابنتها حبيبة. أرسل النبي محمد إلى النجاشي يخطبها، فأوكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص وأصدقها النجاشي أربع مائة دينار وأولم لها وليمة فاخرة وجهزها وأرسلها إلى المدينة مع شرحبيل ابن حسنة. تزوجت الرسول محمداً سنة ٧ هـ، وكان عمرها يومئذٍ ٣٦ سنة، وذكر في شأنها القرآن: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ﴾ **الممتحنة**. أقامت مع الرسول r وبقية أمهات المؤمنين ومعها ابنتها حبيبة ربيبة رسول الله محمد r والتي تزوجها فيما بعد داود بن عروة بن مسعود الثقفي سنة ٨ هـ وقبل فتح مكة قدم أبو سفيان المدينة ليكلم النبي r طالبًا أن يزيد في هدنة الحديبية، ولما دخل على ابنته أم حبيبة حجرتها أسرعت وطوت بساطًا لديها مانعةً والدها من الجلوس عليه كونه فراش النبي، وقالت لوالدها: "هو فراش رسول الله وأنت امرؤ نجس مشرك". حاولت مساعدة الخليفة عثمان بن عفان، ابن خالها، عندما حوصر من قبل الثوار، ولكنهم منعوها.وقد روت عنه r خمسة وستين حديثاً. توفيت في المدينة المنورة سنة ٤٤ هـ عند خلافة أخيها معاوية ودفنت بالبقيع. وقالت عائشة: "دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحللك من ذلك، فقالت: سررتني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك".

فَمَسَحَتْ عَارِضَيْهَا وَذِرَاعَيْهَا وَقَالَتْ إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَغَنِيَّةً لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ إِلا عَلَى زَوْجٍ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا).

وبذلك أجيز للمرأة إذا مات زوجها أن تحدَّ عليه أربعة أشهر وعشراً، وجُعلت هذه المدة مسافة زمنية لحدادها ولعدتها بآن معاً، وهو حد لافت، فللمرأة خصوصية في الحداد تتجاوز بها الجميع، بمن فيهم الوالدين والأبناء والإخوة وسائر القرابات، فما يحلُّ للزوجين لا يحل لسواهما. وقد أخذ الله منهما ميثاقاً غليظاً، وأحل الله لهما بموجبه ما هو محرم في الأصل، ووضع لها قواعد عيش أساسية، فأن تُحدَّ ما يقرب المائة والثلاثين يوماً أمر مفهوم، إذ بعد ذلك يحل لها الزواج، ولا يحق لأحد أن يلومها في هذا كأن يقول: إنها لم تحزن على زوجها، ويتهمها "بقلة".الوفاء. ذلك أنّ الحياة لا بد أن تستمر، ولا يجوز أن نوقفها بفعل حداد غير شرعي؛ فالحزن النفسي قد يبقى مع المحزون، ولو عاد إلى عمله أو دراسته. [حتى لو تزوجت الأرملة،فقد تسلو النفس عن زوجها المتوفَّى مع الزمن، أو قد تبقى ذكراه معها متواصلة]، والنبي r ، وهو الذي يقدر الوضع الإنساني لمن فقد عزيزاً، طلب إليه أن يلجأ إلى الله ويلتمس الصبر، ويُكثر من الدعاء لميته، ويتصدق عنه ويؤدي حقوقه، وأرشد أهل الفقيد والحزانى أن يكثروا من قول (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وأن يسترجعوا بالقول (إنا لله وإنا إليه راجعون)، كلما تذكروا موتاهم ومُصابهم الجلل. فالإكثار من الحوقلة والاسترجاع يجعل المحزون متصلا برب الموت والحياة، يستمد منه القوة والعزيمة والصبر، بينما هو يستأنف حياته من جديد بعد المصيبة التي حلت به. وعلاوة على ذلك، فإنّ المسترجِع للذكرى يفوز بالأجر عند كل استذكار، إذا صاحبَ ذلك الصبرُ والاسترجاعُ كما سنرى.

❖ ❖ ❖

الفصل العاشر:

الروح... المخلوق العجيب

الحياة كينونة تربو في جسد، فتعطيه حيوية قوية فيزهر، وبالمقابل فإنّ ضعف الجسد وانطفاء قدراته يبيحان لتلك الكينونة - الروح - أن تترك ذلك (الجسد الخائر) فارَّة منه إلى مأمنٍ ناءٍ عنه، ثم تعود لكي تلازمه في دار البرزخ، إلى أن يأتي دورها في الفناء، ثم في الابتعاث مع صاحبها من جديد، حيث يكون الكشف عن سجلات أحياء الدنيا، ومعها يكون الحساب، فإما جنة أو نار.

يبيّن الإسلام، كما الشرائع السماوية، أنّ (الروح) عامل الحياة المميز، تحل في جسد فيتحرك، أو بذرة فتنمو، أو ذرّة فتتفاعل، وهي التي حار العلماء فيها، فلم يتمكنوا من إدراك كنهها، فكنهُها إلى الله سبحانه العالم العليم. ومع ذلك فقد وهب "الوهّاب" خلقَه قبساتٍ من علمه بقدر ما يمكن أنْ تدركه عقولهم، وهي أعجز عن إدراك أسرار الروح واستلام مفاتيحها... فالعقل مهما ارتقى وتطور، يبقى ضمن دائرة العلم المحدود، فلا يمكنه الخروج عن نطاقه، وما حُجب عنه هو خارج القدرة والإمكان، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ **الإسراء.** ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴿١٨٨﴾﴾ **الأعراف. فأمْر الله في الروح لم يُبيّن ولم يُفسَّر بسبب أنّ مدارك العقول أعجز عن فهم الكنه والكيفية، فكان أن أبقاها الله دون البيان والتوضيح.**

وقد ذكر العلماء في الروح أقوالاً مختلفة، فمنهم من اعتبرها النفسَ، ومنهم من قال إنّ الروح هي الحياة[1].

---

(١) مما كتبه ولدي د. مؤمن. رحمه الله. عن الروح: (...حينما يحاول أحدنا أن يستشفَّ ماهية الروح يجد نفسه منقاداً إلى روح الله واقفاً في حضرة الله، مستحضراً معنى قوله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴿٢٩﴾﴾ **الحجر.** ويحيطه الله من

وذكر الإمام القرطبي في كتاب الروح، أنّ الروح جسم لطيف، وأنّ النفس والروح اسمان لمسمى واحد[1].

وذهب أكثر أهل التأويل، إلى أن اليهود سألوا النبي r - عن الروح التي تكون بها حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم (أي من أهل التأويل): إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكها في بدن الإنسان، وكيف امتزاجها بالجسم واتصال الحياة بها، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله U .[ولم يُطْلع عليه أحداً من عباده].

وبوجه عام، يبقى الصحيح [في أمر الروح] الإبهام، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الإسراء .والآية دليل على خلق الروح، وأنها أمر عظيم من الأمور التي احتفظ بها الخالق لنفسه، مع تحسس المخلوق وتأكده من وجود الروح، لكنه يعجز عن علم حقيقتها مع العلم بوجودها.

وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا، كان عجزُه عن إدراك حقيقة "الحق" أولى. ومن حِكَم ذلك **إثبات عجز العقل عن إدراك معرفة مخلوق ملازم له** [وهو الروح]، وبه الدلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز)[2] .

كل جانب، إنّه أسمى شعور في الوجود. هنا لا يوجد علم بشري، ما يوجد هناك هو الحقيقة الوحيدة والواحدة وما دونها وَهْمٌ على وهم). وقال: (لكي أعرف ماذا تعني الروحانية، فعليّ أن أوضح أنها لا تعني الدين، ولا تعني الإيمان بقدر ما تعني الرقي والسمو فيهما، وتكون في أسمى تطوراتها عندما تصبح سامية لتصل إلى أعلى منزلة لها، وهي الشفافية الروحية أو اللطف الروحي.فإذاً، الروحانية هي حالة وجدانية شخصية للمرء، تتراوح بين الإيمان الروحي وبين الشفافية الروحية، ولا تخضع الروحانية للعقل بل العقل يخضع لها). انظر مقالاته في كتابنا الآخر (**حروف الوفاء في فقد الأبناء**).

(١) قال ابن عباس: ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد، فتقول الروح: رب، الروح منك أنت خلقته، لم تكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به، حتى جئتُ فدخلتُ في هذا الجسد، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجني، فيقول الجسد: رب، أنت خلقتني بيدك فكنت كالخشبة، ليس لي يد أبطش بها، ولا قدم أسعى به، ولا بصر أبصر به، ولا سمع أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني، وبه أبصرت عيني، وبه مشت رجلي، وبه سمعت أذني، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجني منه. قال: فيضرب الله لهما مثلاً أعمى ومقعداً دخلا بستاناً فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمقعَد لا ينالها، فنادى المقعد الأعمى إيتني فاحملني آكل وأطعمك، فدنا منه فحمله، فأصابا من الثمرة، فعلى من يكون العذاب؟ (قالا: عليهما) قال: عليكما جميعاً العذاب.

(٢) انظر تفسير القرطبي عند قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح﴾ من سورة **الإسراء**. وقد أثبتناه مع بعض التصرف.

وقال ابن كثير: (إنّ عِلْمَكُم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنّه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى)[1].

وعن الروح وتفاسيرها يقول الإمام محمود بن عبدالله الحسيني **الألوسي**[2]: (وقيل وقيل ـ أي في الروح ـ إلى نحو ألف قول، والمعوَّل عليه عند المحققين.. أنّ روح الإنسان عبارة عن **جسم نوراني، علوي، حي، متحرك، مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، سارٍ فيه سريانَ الماء في الورد**، والدهن في الزيتون والنار في الفحم، لا يقبل التحلّل والتبدّل، والتفرّق والتمزّق، مفيدٌ للجسم المحسوسِ الحياة وتوابعها، ما دام صالحاً لقبول الفيض، لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة، **ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان**. والروح عبارة عن ذلك الجسم). وهذا القول حسن وهو مذهب قوي وقول شريف يجب التأمل فيه، فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت. وقال ابن القيم في كتابه "الروح": إنه الصّواب، ولا يصح غيره، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، وذكر له مائة دليل وخمسة أدلة فليراجع)[3].

---

(١) من تفسيره لآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾ من سورة الإسراء.

(٢) **محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي** (١٢١٧-١٢٧٠ ٢٥ ذو القعدة هـ)،(١٨٠٣ ـ ١٨٥٤/٩/١٧م)، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر. ويصل بنسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء رضي الله عنها.يرجع نسبه إلى مدينة آلوس وهي جزيرة في وسط نهر الفرات في محافظة الأنبار، حيث فر إليها جد هذه الأسرة من وجه هولاكو التتري عندما دهم بغداد فنسب إليها. وهو مجتهد، تقلد الإفتاء ببلده عام ١٢٤٨هـ، بموجب الفرمان السلطاني العثماني ثم عزل فانقطع للعلم. وقد قصده العلماء والفقهاء، وللشيخ الآلوسي الأثر الكبير في إنعاش الحركة العلمية في بغداد ثم قصد الباب العالي فأكرمه السلطان عبد المجيد. ثم عاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته. وكان خطاطاً بارعاً وخط معظم كتبه بخطه الجميل. **ومن مؤلفاته:** روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني؛ ونشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول وهو عن رحلته إلى الآستانة؛ ودقائق التفسير؛ والنفحات القدسية؛ ورسالة في الجهاد، والمقامات الآلوسية؛ وغيرها كثير من الرسائل والمؤلفات المخطوطة والمطبوعة.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، ج ١١، ص ٧٦ .

وقال الإمام جلال الدين المحلّي عن الروح (إنه جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه)، بينما الإمام جلال الدين السيوطي فقد قال: (الروح من أمر ربي فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالى لا نعلمه، فالإمساك عن تعريفها أولى، ولذا قال الشيخ **تاج الدين السبكي**[1] في جمع الجوامع (والروح لم يتكلم عليها محمد r ، فنمسك عنها)[2] .

ومع ذلك، فإنّ العلماء ـ في مختلف جهات العلم ـ لا يزالون حيارى في شأن ارتباط الروح بالجسد، أو ما يرونه من تحول الجسد بالموت إلى انعدام الحركة وبداية التفسخ والتحلل، ويتساءلون ما السر الذي فقده هذا الجسد حتى يتوقف عن الحياة؟... وقد رأيت في حاشية ابن عابدين، أنّ الزيارة للقبر هي للروح، (لكن للروح نوع تعلق بالجسد) وتلك العلاقة لا يعلم كيفيتها إلا الله، فهي تعذَّب أو تنعَّم مع أنّ الجسد بَلِيَ وفني. **فهناك علاقة ما بين الروح والجسد** وقد تحوَّل إلى تراب، ولا يعرف أحد كيف تكون تلك العلاقة وذاك الارتباط إلا الله وحده سبحانه وتعالى، وهو أمر لم نُحدَّث به، ولم نعرف له جواباً، كما لم نطلع على **سر تداخل الروح مع الجسد الحي**، وهو كتل متراكبة من ماء ودم ومعادن وأجهزة مختلفة، كلها تسمى جسداً، فسبحان من خلق فسوَّى .

❖ ❖

---

(١) هو أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (١٣٢٧- ٧١٧) فقيه شافعي، ومؤرخ عربي وقاضي القضاة في دمشق، انتقل إلى دمشق مع والده الفقيه وهو صغير فسكنها وعاش فيها حياته وتوفي بها. كان طلق اللسان، قوي الحجة، عزل من منصبه وتعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالموبقات وأتوا به مقيداً مغلولاً من الشام إلى مصر ثم عاد إليها وأكمل مسيرته في الفقه والقضاء توفي ودفن في دمشق عام ١٣٧٠ م . ٧٧١ هـ. من مؤلفاته: القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر، طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى، جمع الجوامع، في أصول الفقه.

(٢) تفسير الجلالين في آخر سورة الإسراء، ص ٢٩٤ الطبعة الثانية ١٤١٥/١٩٩٥ دار الجيل بيروت.

من جميل ما ذُكر عن الروح، قول التابعي **أُوَيْس القَرْني** t [1] :(عَرَفتْ روحي روحَك حيث كلّمَتْ نفسي نفسك، إنّ الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء، إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا، ويتحدثون بروح الله، وإن لم يلتقوا، وإن لم يتكلموا ويتعارفوا، وإنْ نأتْ بهم الديار، وتفرقت بهم المنازل) رواه الحاكم في المستدرك، وهذا مصداق لما روته عَائشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ" رواه البخاري في صحيحه. وفي ذلك توضيح لصفة التجانس في الأرواح، وهي صفة "اجتماعية" تواكب صاحبها في حياته. ولا ريب أنها تستمر مع روحه، بعد موته، فيبقى معها التلاقي مع من أحبت وقدّرت.

يقول الإمام ابن قيّم الجوزية رحمه الله في كتابه الروح[2]:

(إن معرفة النفس وأحكامها، لها شأن غير شأن البدن، وأنّها، مع كونها في الجنة، فهي في **السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً**، وأنّها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية). ثم إنّ تلك المعرفة واجبة، وهي من ضرورات المعرفة الحق والعقيدة السليمة.

ويُشبّه ابن القيم حال الروح في بدنها وبعد مغادرته فيقول: (وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار). وشتان بين الحالين، وإن كان الفاجر أو الفاسق أو

---

(١) هو **أويس بن عامر** عاش في اليمن وأدرك رسول الله r ولم يره وسكن الكوفة وهو من كبار تابعيها، ومن أفضل التابعين،وفي صحيح مسلم: أن خير التابعين رجل يقال له: "أويس".روى عن عمر وعلي، وتعلم على يد كثير من الصحابة ونُقل من علمهم حتى صار من أئمة التابعين زهداً وورعاً، ولقد تعلم منه خلق كثير، تعلموا منه بره بأمه، وتواضعه لربه رغم ما ورد في فضله من أحاديث. ولأويس القرني مكانة عظيمة يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم لما سمعوه من النبي r ، ولقد أفرد الإمام مسلم في صحيحه باباً من فضائل أويس القرني t .وخرج أويس القرني مع علي كرم الله وجهه في موقعة صفين، وتمنى الشهادة ودعا الله قائلاً: اللهم ارزقني شهادة توجب لي الحياة والرزق. وقاتل بين يدي علي t حتى استشهد فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة، وكان ذلك سنة ٣٧ هـ في وقعة صفين.

(٢) الروح، للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (٦٩١ . ٧٢٨هـ) إصدار دار المدني بجدة، ط.٤ سنة ٢٠٠٥.

الكافر يتمنى في الآخرة، لو بقي في رحم أمه ولم يغادره إلى حيث عاش بعيداً عن الايمان ثم هو يلقى العذاب الشديد ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ النبأ .

❖ ❖

انسلاخ الروح:

وبعد أن تُنفخ الروح في الجنين، وهو في رحم أمه، يخرج إلى الدنيا ليعيش ما كتبَ الله له من العمر، فإذا ما حان الأجل ووجب الرحيل كانت سكرات الموت، ثم تفارق الروح الجسد...بانسلاخ يبدأ معه الجسد رحلته الشاقة نحو عودته إلى أصله الترابي. بينما تسلك الروح طريقاً آخر، وهو محطة أولى نحو الآخرة، وفيه من الرؤية الصادقة ما فيه. يرى المحتضر في بداية هذا الطريق ما لا يراه مَنْ حوله، فهو يرى أقرب ما يكون احتفالاً ضخماً فيه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، فيُسرّ أو يحزن. نسأل الله اللطف والسلامة واليسر والفرح.

روى الإمام أحمد عن **البراء بن عازب**[1] **t** أنّ النبي **r** قال: (إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إليه مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ **u** حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ

---

(١) **البراء بن عازب** هو ابن الحارث، الفقيه الكبير أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني، نزيل الكوفة، من أعيان الصحابة. روى أحاديث كثيرة، وشهد غزوات كثيرة مع النبي **r** واستصغر يوم بدر، قال: كنت أنا وابن عمر لدة . أي وُلدنا في سنة واحدة .. وروى أيضاً عن أبي بكر الصديق، وخاله أبي بردة بن نيار.توفي سنة اثنتين وسبعين وقيل:توفي سنة إحدى وسبعين عن بضع وثمانين سنة. وروى أبو إسحاق، عن البراء، قال: غزوت مع رسول الله **r** خمس عشرة غزوة. ومسنده ثلاث مائة وخمسة أحاديث. له في "الصحيحين" اثنان وعشرون حديثاً، وانفرد البخاري بخمسة عشر حديثاً، ومسلم بستة.

فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إلى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ U : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إلى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ...).

وعكسُه الكافر، فالملائكة التي تحضرُه (سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إلى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ r : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف. فَيَقُولُ اللَّهُ U : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج. فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إلى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَةَ)

أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

وما أدق قصيدة **الإمام الغزالي**، التي كتبها قبل موته[1] بلسان الروح، واصفاً تألقها بعد موته وفكاكها من أسر الجسد فقال:

قُـــلْ لإخـــوانٍ رَأَونـــي مَيِّتـــا ... فَبَكَـــوْني وَرَثَـــوْني حُزْنـــا
أتظنـــون بـــأني ميـــتكم ... لـــيس هـــذا الميـــتُ واللّهِ أنـــا
أنـــا درٌّ قـــد حـــواني صَـــدَفٌ ... طـــرتُ عنـــه وبقـــى مُرْتَهَنـــا
أشـــكرُ اللّهَ الـــذي خلـــصني ... وبنـــى لـــي في المعـــالي وطنـــا
وأنـــا اليـــوم أنـــاجي ملكـــا ... وأرى الحـــقَّ جهـــاراً علنـــا

❖ ❖ ❖

مستقر الروح:

ويرى ابن القيم أنّ (للنفس أربعة دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: في بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

والدار الثانية: هي الدار التي نشأت فيها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

والدار الرابعة: دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدها، واللّه ينقلها في هذه الدور طَبَقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خُلقت لها وهُيِّئت للعمل الموصل إليها، ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى).

وشرح ابن القيم، كيف أنّ اللّه سبحانه قد خاطب النفس بسمات الرجوع والدخول والخروج: (ودلّت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتُفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم، وأنها تخرج وتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وتكفن وتحنط في أكفان الجنة والنار، وأنَّ ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده، ويُشمُّ لها

(١) انظر القصيدة في فصل الموت والشعر من هذا الكتاب.

كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة، وتُشيّع من سماء إلى سماء، ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة، وأنها إذا خرجت [من جسد صاحبها] تبعها [بصره] بحيث يراها وهي خارجة. [فالبصر آخر ما ينتهي من الإنسان] ، ودلّ القرآن على [أن الروح] تنتقل من مكان [في الجسد] إلى آخر، حتى تبلغ الحلقوم في حركتها).

ويقول أيضاً: (شاهد النبي r الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله، وأخبر بأن "نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة". كما قال r : (أرواح الشهداء في حواصل طير خضر).بمعنى أنها تطير في الجنة. ويحتمل أن يكون هذا الطائر مَرْكباً للروح كالبدن لها، ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء. وهذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم، التي مزقوها لله، أبداناً خيراً منها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم، فإذا كان يوم القيامة ردّ أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا).

ويَسْتَنتجُ أيضاً أنّ مستقر الأرواح في دار البرزخ يكون على درجات، تبعاً لما كانت عليه تلك الأرواح في دنياها فيقول: (والأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت: **منها**: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم. **ومنها**: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم؛ بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره. **ومنهم**: من يكون مقره باب الجنة[أو محبوساً عنده]. ومنهم: من يكون محبوساً في قبره، **ومنهم**: من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحا سفلية أرضية. فإنّ الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، فالنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرّب إليه، هي أرضية سفلية، لا تكون، بعد المفارقة لبدنها، إلا هناك، كما أنّ النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرّب إليه والأنس به، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها. فالمرء مع من أحب في

البرزخ ويوم القيامة.وقد يجعل الله سبحانه روحه - يعني المؤمن - مع النسيم الطيب، أي الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك. **ومنها**: أرواح تكون في تنوّر الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه، وتُلقم الحجارة. فليس للأرواح، سعيدها وشقيها، مستقر واحد؛ بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض). فتأمل!!!

❖ ❖ ❖

الروح أكبر من مداركنا

ولئن كانت الروح كينونة ذات طبيعة خاصة شفافة رقيقة، إلا أن ماهيتها فوق مداركنا، وإن عرفنا عن مزاياها شيئاً، فإن أشياءها الأخرى غابت وتغيب عنا. ويستحيل علينا نحن البشر أن نعرفها، إلا من خلال حركتها عند التصاقها بالجسد الإنساني أو الجنّي، أو بالكينونة الملائكية النورانية. فنحن مثلاً لا نرى الجنّ إلا إذا تمثلوا على شكل أجساد من مخلوقات، كالكلب والحمار والهر وسوى ذلك. والملائكة أيضاً لا يُرون إلا إذا تجسدوا بشكل إنساني، كما كان من شأن جبريل **u** إذ حضر مجلس النبي **r** في المدينة بهيئة رجل، فعرفهُ النبي، بينما ظنه الصحابة رجلاً من الرجال لم يروه قبلاً ولم يعرفوه، دخل إلى مسجدهم ثم راح يسأل النبي **r** عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة، وبعد انصرافه قال النبي **r** لصحابته: (جَاءَ جِبْرِيلُ **u** يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ). كما أن المؤمنين في الجهاد، قد يحسُّون بالملائكة يقاتلون معهم وفي صفوفهم، وإن لم يروهم عياناً. وأصدق مثل ما حدث يوم غزوة بدر الكبرى، إذ كان الصحابي أثناء المعركة يهم بضرب عنق أحد المقاتلين المشركين، فإذا به يراه قد تدحرج رأسه قبل أن يصل إليه سيفه.

كما أن الإنسان يرى الملائكة عندما يُغرغر استعداداً لخروج روحه، فيرى المحتضرُ منهم - كما سنبين - جمعاً كبيراً يسدّون الأفق، جاؤوا لقبض

روحه. فضلاً عن أنّ الأنبياء قد يرون جبريل u في صورته التي خلقه الله عليها، كما حدث للنبي r عند الإسراء والمعراج. وتلك استثناءات لا يقاس عليها.

فالروح، إذاً، مخلوق ذو خصائص وأبعاد، وبها يحس الإنسان ويسمع ويرى ويتذوق ويتنفس ويتكلم، وبها يتكون الدم ويتدفق في مجاريه، وتعيش وتموت "كريَّاته" ويعمل قلبه، وبها يحلل الدماغ الأفكار والمعلومات ويتخذ القرارات، وبها تنتقل الأوامر العصبية إلى مراكزها في الجسد، وبها تنقسم الخلايا ويكبر الجسم ويمشي ويتحرك. وبكلمة واحدة: نرى الروح في أثرها، في الحركة المستمرة في الجسم، ونتلمسها بقدرتنا على الحياة، وبدونها يُمسي الجسد كتلة من اللحم والعظم وسواهما، آيلة للتحلل والتفسخ والتفتت، بعد أن فقد الجسد إكسير الحياة.

ولعل أقرب مثل لتقريب المعنى، مع إدراكنا وجود فوارق كبرى، الكهرباء. فنحن ندرك وجودها من خلال إضاءةٍ أو تحريكٍ لآلة ما، ولا نراها هي نفسها في الأسلاك والأشرطة، مع كونها موجودة فيها، كذلك الروح في الجسد، لا نراها إلا من خلال ممارسة الجسد لوظائفه. وهو مثل بسيط من مجموعة ظواهر مبثوثة في الكون العجيب، عرفَ الإنسان بعض معالمها أو نتائجها، إلا انه يستحيل عليه أن يراها على ماهيتها أو على حقيقتها، فهي موجودة لكن لا تُرى إلا في آثارها.

الفصل الحادي عشر:

في حقوق الميت وقبره

حقوق أساسية للميت.

لعل من أهم حقوق الميت على ورثته وأهله وأصحابه إيلاءه حسن التغسيل والتكفين، والصلاة عليه ودفنه مع إيفاء ديونه إن وجدت[1]، والنظر فيما إذا بقي عليه من زكاة لم يؤدها فتؤدى، أو عليه صيام أو صلاة أو حج أو نذر، فيبادرون إلى تأديتها والوفاء بها، ومن ثم تنفيذ وصيته وحُسْنِ جرد تركته، وتوزيع إرثه على مستحقيه.

وإن لم تكن لميت وصية ظاهرة، فإنّ للورثة فضلاً مميزاً خاصةً في حال الموت الفجاءة، أن يستشفوا إرادته مما كانوا يسمعون منه حال حياته. كما لهم فضل ويد كريمة، إن هم أخرجوا له صدقات، أو جعلوا له صدقة جارية تنهلّ عليه بالخيرات وهو في برزخه، وتتندّى عليه دوماً من فيض بركتها ودعاء المنتفعين منها. كما أنهم يحسنون صنعاً لو ترك علماً نافعاً مفيداً أن ينشروه، وإنْ كان قد ترك أولاداً أن يعتنوا بهم ويحسنوا توجيههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) وتعتبر الزكاة في التركة دينا ممتازاً يجب أن يؤدى مع تأدية سائر حقوق الناس، وحق الله أحق أن يؤدى. وقال **ابن القيم في كتابه الروح شرحاً عند حديثه عن إيفاء الدين عن الميت، فنقل الإجماع،**(على أنّ الحي إذا كان له في ذمة الميت حق من الحقوق فأحلّه منه أنه ينفعه ويبرأ منه، كما يسقط من ذمة الحي، فإذا سقط من ذمة الحي بالنص والإجماع مع إمكان أدائه له بنفسه، فسقوطه من ذمة الميت بالإبراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى، وإذا انتفع بالإبراء والإسقاط، فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء ولا فرق بينهما، فإن ثواب العمل حق المهدي الواهب، فإذا جعله للميت انتقل إليه، كما أن ما على الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محضُ حق الحي، فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته). وهكذا فإن الدَّين صفة تلازم الميت وتنتقل معه حتى يُوفّى هذا الدين، سواء كان ديناً لحي في الدنيا أو كان ديناً للحي القيوم جل في علاه، خاصة وأنّ النبي r أكد (أن دين الله أحق أن يُقضى). فعلى هذا وجب على ورثته المسارعة إلى ايفاء ذمة ميتهم. وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبي أو من غير تركته، وقد دل عليه حديث أبي قتادة الذي ضمن دينارين عن ميت في عهد النبي، فلما تحملهما أبو قتادة قال له النبي: (الآن بردت عليه جلدته) **رواه الإمام أحمد** في مسنده.

وقد ورد في صحيح البخاري أنّ سعد بن عبادة t توفيت أمه وهو غائب عنها، فأتى النبي r فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها).

وأورد الشيخ **محمد بن صالح العثيمين**[1] مجموعة حقوق للمحتضر فقال: (تُسنُّ عيادة المريض، وتذكيره التوبة والوصية، وإذا نزل به سِنٌّ تعاهد بلّ حلقه بماء أو شراب، ويُندّي شفتيه ويلقنه؛ ويُوجهه إلى القبلة، فإذا مات سن تغميضه، وشد لحييه، وتليين مفاصله، وخلع ثيابه، وستره بثوب، ووضع حديدة على بطنه، [لمنع انتفاخه، واليوم بسبب وجود البراد لا ينتفخ] ووضعه على سرير وغسله متوجهاً منحدراً نحو رجليه [كي لا يتجمع الماء عليه]، وإسراع تجهيزه إنْ مات غير فجأة، وإنفاذ وصيته وقضاء دينه)[2]. .

❖ ❖ ❖

(١) هو العالم المحقق، **محمد بن صالح العثيمين** من بني تميم.ولد في ليلة ٢٧ من رمضان ١٣٤٧هـ في عنيزة في المملكة العربية السعودية. ألحقه والده ـ رحمه الله تعالى ـ ليتعلم القرآن الكريم عند الشيخ الإمام عبد الرحمن الدامغ ،وحفظ القرآن الكريم عنده في سن ١٤ من عمره. تتلمذ على يد فضيلة العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً. واتصل بالعلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمه الله ـ،ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به. ثم نال الشهادة العالية. ثم عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ. وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ فتولّى إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبتها. ثم انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود. وكان أيضاً يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ، حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل، وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته . رحمه الله تعالى . لنشر مؤلفاته.

وبناءً على توجيهاته – رحمه الله تعالى – أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية، من أجل تعميم الفائدة المرجوة ـ بعون الله تعالى ـ وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

وللشيخ ـ رحمه الله ـ أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ, تُوفي ـ رحمه الله ـ في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء ١٥ من شوال عام ١٤٢١هـ. وصُلِّي عليه في المسجد الحرام ودفن في مكة المكرمة.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٧ وما بين المعترضين من عندنا.

غسل الميت وكفنه:

وقد شرع الإسلام للميت أن يُوجَّه إلى القبلة برجليه، وأن يُغسَّل، ولا يُستحسن حضورُ الناسِ غُسْلَه، ويُقتصر على الغاسل ومَنْ يعاونه، وبعض أهله، من ولده مثلاً، وينظفه الغاسل في منافذ بدنه، وإن كان قد علق بجسده شيء يزيله، ثم يوضئه دون مضمضة لتعذرها، ثم يغسله ثلاثاً أو خمساً بالسِّدْر الناعم، فهو مما ينظف به، وإلا فبالصابون، ولا يُقَصُّ شيء من شعره ولا ظفره، بل يمشط شعر رأسه ولحيته فهو أكمل، ويُكره أنْ يُغَسِّلَ الميتَ جنبٌ أو حائضٌ. والأَوْلى أن يُغَسِّله أقرب الناس إليه، فإنْ لم يُحسِنِ الغسلَ فأهلُ الأمانةِ والورَعِ، وينبغي للغاسل ولمن حضر، إذا رأى ما يجب ستره من الميت، أن يستره، ولا يحدّث به، لأنه غيبة، وكذا إذا كان عيباً حادثاً بالموت كسواد وجه ونحوه، ما لم يكن الميت مشهوراً ببدعة، فلا بأس بذكره تحذيراً من بدعته، وإنْ رأى أمارات الخير كوضاءة الوجه والتبسم ونحوه، يُستحب إظهارُه لكثرة الترحم عليه، والحثّ على مثل عمله الحسن. وأشار ابن عابدين إلى كراهة ضم اليدين إلى صدر الميت قائلاً: (فإنّ ذلك من عمل الجاهلية، وقالوا - أي فقهاء الحنفية - بإسدالهما إلى الجنبين)[1].

ولا بأس بتقبيل الميت، قبل غسله أو بعده، فقد روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، : (قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ r عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى دُمُوعِهِ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ)؛ كما أنّ أبا بكر (قبَّلَ النبيَّ بعد موته) **البخاري في صحيحه**. ورُوي أنّه قبّله وبكى.

---

(١) حاشية ابن عابدين، مرجع مذكور ص ٢٠٢. وبالنسبة لإسدال اليدين إلى الجنبين، لم نعثر في مراجع فقهية، حنفية وغيرها، على ذكر ذلك، ولعل ضمّ اليدين إلى الصدر كان في زمنه، وخاصاً بغير المسلمين في بلده، فأحب، من باب عدم التشبه بهم، مخالفتهم. وهو فهم دقيق لسنة النبي r. وذكر لي القائمون بالدفن في بلادنا أنّهم يضعون اليدين فوق بعضهما عند التكفين ويربطونهما من خارج الكفن لئلا تسقطا، وتبقيان كذلك أثناء حمله قبل أن يوارى في القبر، ثم يسدلونهما إلى جنبيه في القبر.

ولا بأس، بعد الغسل، **بكتابة**[1] **بلا مداد**، وبالإصبع المسبحة (السبابة) (بسم الله الرحمن الرحيم) على جبينه، و(لا إله إلا الله محمد رسول الله) على صدره[2]، ويُطيَّب، ويكفَّن بثلاثٍ بيض والمرأة بخمس. ولا بأس بزيادة مقبولة دون إسراف، ويستحب تحسين الكفن لقوله r : (أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها)[3]. وفي رواية (أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يتباهون ويتزاورون في قبورهم).[4] وقوله r : "إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ" **رواه الإمام مسلم في صحيحه**. وقيل المراد بتحسين الكفن بياضه ونظافته لا كونه ثميناً، أما المباهاة، فالمقصود بها الفرح والسرور لموافقتها السنة الشريفة، وأما التزاور، وإنْ كان للروح، (فللروح نوع تعلق بالجسد)[5] لا يعلم كيفية تعلّقها إلا الله سبحانه.

ويَحْرُم الحرير للرجل في كفنه، ويباح للمرأة. وتكره في الكفن المغالاة، فعن علي بن أبي طالب t عن رسول الله r : "لا تَغَالَوْا فِي الْكَفَنِ فَإِنَّهُ يُسْلَبُهُ سَلْبًا سَرِيعًا" **رواه أبو داوود في سننه**. وقال أبو بكر t يوصي بكفنه بعد موته: (الْحَيُّ

---

(١) المصدر السابق. هذا الأمر وإن لم يرد به نص خاص، إلا أنه يدخل في عموم فضيلة ذكر الله، والميت يلقن الشهادتين بلسانه وتكتبان على جبينه.

(٢) قرأت في حاشية ابن عابدين في الجزء السادس الصفحة ٤١٥ ما يلي: (أَوْصَى بَعْضُهُمْ أَنْ يُكْتَبَ فِي جَبْهَتِهِ وَصَدْرِهِ - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - فَفُعِلَ ثُمَّ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ فَسُئِلَ فَقَالَ: لَمَّا وُضِعْت فِي الْقَبْرِ جَاءَتْنِي مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَلَمَّا رَأَوْا مَكْتُوباً عَلَى جَبْهَتِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالُوا: أَمِنْت مِنْ عَذَابِ اللَّهِ).

وقد روى مُرَجَّا بْنُ وَدَاعٍ، قَالَ: (كَانَ شَابٌّ بِهِ رَهَقٌ فَاحْتُضِرَ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: أَيْ بُنَيَّ، تُوصِي بِشَيْءٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، خَاتَمِي لا تَسْلُبِنِيهِ؛ فَإِنَّ فِيهِ ذِكْرَ اللَّهِ U ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَنِي، قَالَ: فَمَاتَ فَرُئِيَ فِي النَّوْمِ، فَقَالَ: أَخْبِرُوا أُمِّي بِأَنَّ الْكَلِمَةَ قَدْ نَفَعَتْنِي، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لِي) (الإحياء للغزالي، ص ٥٦٥).

(٣) **رواه ابن أبي الدنيا في الأهوال** عن **عمرو بن الأسود**. وعمرو بن الأسود العنسي يقال له: عمير بن الأسود، أبو عياض، نزيل داريا، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادة التابعين ديناً وورعاً، حج عمرو بن الأسود، فلما انتهى إلى المدينة، نظر إليه ابن عمر وهو يصلي فسأل عنه، فقيل: شامي يقال له: عمرو بن الأسود، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة ولا هدياً ولا خشوعاً ولا لبسة برسول الله r من هذا الرجل وفي رواية أن ابن عمر قال: (من سرّه أن ينظر إلى أشبه الناس صلاة برسول الله r فلينظر إلى هذا، ثم بعث إليه بقرى وعلف ونفقة، فقبل ذلك ورد النفقة).

(٤) قال ابن حجر في فتح الباري ((إسناده حسن)) من رواية عمرو بن الأسود.

(٥) حاشية ابن عابدين، ص ٢١٩.

أَحْوَجُ إلى الْجَدِيدِ مِنْ الْمَيِّتِ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْمُهْلَةِ) رواه الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد t . وقد مرّ معنا قوله كاملاً عند ذكر حشرجته.

صحيح أن رسول الله r قال: (الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها) أبو داوود في سننه عن أبي سعيد الخدري t وإسناده صحيح، إلا أنّ بعض أهل العلم تأوَّله على غير ظاهره، فحملوا الثياب على معنى العمل، إذ قالوا: إنَّ الإنسان يُبعث على ما مات عليه من عمل صالح أو سيء، لقوله r (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَمَا خُلِقُوا) الترمذي في سننه وقال حسن صحيح عن ابن عباس t ، والعرب تقول: (طاهر الثياب، إذا وصفوه بطهارة النفس)[1]. ومع ذلك يستحب **تجمير الكفن بالبخور** أو سواه كالمسك، لوصية أسماء بنت أبي بكر: (إذَا أَنَا مِتُّ فَاغْسِلُونِي، وَكَفِّنُونِي، وَأَجْمِرُوا ثيابي) مصنف ابن أبي شيبة.

ومن مفهوم ما تقدم، يمكن القول: إنّ المرء اذا ما أحب أن يختار كفنه بنفسه أو يغسله بماء يحبه ويوصي بتكفينه به فلا بأس، إن شاء الله، وقد أوصى النبي r ابنته فاطمة رضي الله عنها (إِذَا أَنَا مُتُّ فَاغْسِلُونِي بِسَبْعِ قِرَبٍ مِنْ بِئْرِي بِئْرِ غَرْسٍ)، وبئر غرس في قباء كان r يشرب منه، ويحب ماءه. كما ورد في سنن ابن ماجه، وقيل بضعف الحديث لوجود قدْحٍ بأحد رواته، والله أعلم.

❖ ❖ ❖

الصلاة على الميت فرض وحق

فرضَ الإسلام على أتباعه، فرْضَ كفاية، أداء الصلاة على من مات مسلماً، طلباً للرحمة له، وتكريماً له بالدعاء، وتمجيداً لخالق الموت المقدِّر لكلٍّ أجله. وقد جعل الصلاة على الميت حقاً من حقوقه على الناس، وهو حق يجب ألا يَحرمه منه أهله وإخوانه ومحبوه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وفرضُ الكفاية إنْ قام به البعض سقط عن الآخرين، إلا أن الذين ما زالوا في الدنيا، وكانت لهم صلة ما بالميت، يشعرون أنهم بصلاتهم عليه يقومون بواجبه عليهم،

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي مصدر مذكور ص ٣١٧.

فإنْ دُفن الميت قبل الصلاة عليه لسبب أو لآخر، جاز أن يُصلّى عليه وهو في قبره، قياماً بالفريضة وبالواجب وإيفاءً للميت بحقه. كما يمكن أن يصلى عليه صلاة الغائب، إذا كان المصلي في سفر أو مرض، أو إذا مات في بلد غير مسلم، ولم يُصل عليه، كما فعل النبي r عندما صلى على نجاشي الحبشة، وذلك لقوله r : "قَدْ تُوُفِّيَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ الْحَبَشِ فَهَلُمَّ فَصَلُّوا عَلَيْهِ قَالَ فَصَفَفْنَا فَصَلَّى النَّبِيُّ r وَنَحْنُ مَعَهُ صُفُوفٌ" رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله y .

وللصلاة على الميت كيفية مخصوصة، منها أنها تؤدى وقوفاً من غير ركوع ولا سجود، وهي أربع تكبيرات[1] في السفر والحضر، يقرأ بعد التكبيرة الأولى بالفاتحة، بنيَّة الحمد والثناء على الله والدعاء، ولا بأس بسورة قصيرة بعدها، وبعد التكبيرة الثانية تُقرأ الإبراهيمية، (اللهم صلِّ على محمد)، وبعد الثالثة الدعاء للميت، وفي الرابعة دعاء يسير إن أمكن، ومن ثم السلام. ويستحب أن يصطف المصلون - وإن قلّوا - ثلاثة صفوف فما فوق، فإن كانوا سبعة مثلاً، وقف الإمام وبعده ثلاثة في الصف الأول، واثنان في الصف الثاني، وواحد في الصف الثالث. فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي عن **مالك بن هبيرة**[2] عن رسول الله r أنه قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ ثَلاثَةُ صُفُوفٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِلا أَوْجَبَ) قال البغوي: (فَكَانَ مَالِكٌ إِذَا اسْتَقَلَّ أَهْلَ الْجَنَازَةِ - أي إذا كان عددهم قليلا - جَزَّأَهُمْ ثَلاثَةَ صُفُوفٍ)[3]. كما أخرج الحاكم والبيهقي على شرط الشيخين (أنّ رسول الله r صلّى على عمير بن أبي طلحة في منزلهم، فتقدم

---

(١) وكان r يكبر خمساً وسبعاً إلا أنه ثبت r على أربع حتى توفاه الله U . راجع تعليق شعيب الأرناؤوط على شرح السنة للبغوي الجزء الخامس، ص ٣٤٣ ، طبعة المكتب الإسلامي الأولى ١٩٧١م.

(٢) **مالك بن هبيرة** بن خالد بن مسلم الكندي. معدود في الشاميين ومنهم من يعده في المصريين. له حديث واحد في الصف على الجنازة، رواه عنه مرثد بن عبد الله اليزني، وكان أميراً لمعاوية على الجيوش في غزو الروم. وقال أبو زرعة الدمشقي: مات في زمن مروان بن الحكم.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٨١ و٣٨٢.

رسول الله r وكان أبو طلحة وراءه وأم سليم وراء أبي طلحة، ولم يكن معهم غيرهم) .

ومن جميل ما روي عن النبي r في **الدعاء للميت** قوله r : "إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داوود والبيهقي وابن حبان وصححه. وأخرج ابن حبان عن **واثلة ابن الأسقع** قال: (صلَّى بنا النبي r على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: "اللهم إنَّ فلاناً ابن فلان في ذمتك وحبْلِ [أي عهد] جوارِكَ، فَقِهِ من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق، اللهم فاغفر له وارحمه، فإنك أنت الغفور الرحيم".

وروى أبو هريرة t .عن النبي r : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا ، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإيمَانِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإسلام، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ) أبو داوود في سننه.

وفي **رواية لمالك** في الموطأ عن أبي هريرة t : (اللَّهُمَّ إِنَّهُ عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ) .

وفي **رواية لمسلم** في صحيحه عن عوف بن مالك t : (اللهم اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنْ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، أو مِنْ عَذَابِ النَّارِ).

وفي دعاء للإمام الشافعي، كما رواه البيهقي في معرفة الآثار والسنن، : "اللهم عبدك وابن عبدك، خرج من رَوْح الدنيا وسقمها ومحبوبها وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر، وما هو لاقيه، كان يشهد أن لا إله إلا أنت، وأنّ محمداً عبدك ورسولك؛

وأنت أعلم به، اللهم نزل بك، وأنت خير منزول به، وأصبح فقيراً إلى رحمتك، وأنت غني عن عذابه، وقد جئناك راغبين إليك شفعاء له، اللهم فإن كان محسناً، فزد في إحسانه، وإن كان مسيئاً، فتجاوز عنه وبلّغه رحمتك برضاك، وقِهِ فتنة القبر وعذابه، وأفسح له في قبره، وجافِ الأرض عن جنبيه، ولقهِ برحمتك الأمنَ من غير عذابك، حتى تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين".

وللميت الصغير دعاء طيب مؤثّر. فقد سنَّ الرسول r في الصلاة عليه قبل دفنه، أن يُدعى بالدعاء التالي: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ سَلَفًا وَفَرَطًا لأَبَوَيْهِ، وَذُخْرًا وَعِظَةً وَاعْتِبَارًا وَشَفِيعًا، وَثَقِّلْ بِهِ مَوَازِينَهُمَا، وَأَفْرِغْ الصَّبْرَ عَلَى قُلُوبِهِمَا، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ، وَلَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ"(١)؛ وَفي رواية أَنَّهُ r كَانَ يُصَلِّي عَلَى الْمَنْفُوسِ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا فَرَطًا وَسَلَفًا وَأَجْراً..." إضافةً إلى الدعاء السالف الذكر "اللهم اغفر لحينا وميتنا"... إلخ.

أما **ثواب الصلاة** على الميت والسير بجنازته وشهود دفنه والدعاء له، فهو ما رواه **البخاري في صحيحه عن أبي هريرة** t عن النبي r قال: "مَن اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ مِنْ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أحد، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ". ولما ذُكِرَ مثل هذا الحديث لابن عمر y تَعَاظمه، فأرسل إلى عائشة رضي الله عنها يسألها فيه فقالت: صدق أبو هريرة وهو راوي حديث قريب مما رواه البخاري، فقال ابن عمر: (لقد فرَّطنا في قراريط كثيرة)، أي إنّ ابن عمر y وكثيرين غيره يتحسرون لكونهم لم يقوموا بالسُنَّتين: الجنازة والصلاة على الميت، أو اتِّباع جنازته وبقائهم حتى يوارى في قبره، مما فوّت عليهم قيراطاً في كل ميت مات من قبل سماعه الحديث. وهذا يدل على عظيم حرص الصحابة

---

(١) تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لمؤلفه **أحمد بن علي بن حجر العسقلاني**. والمنفوس هو الذي مات أثناء الولادة أو نزل ميتاً بعد أن استهل صارخاً (وأخرجه الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ t).

على التزام السنة والعمل بتوجيهات النبي r ، وهو ما يحسن أن يلتزم به المسلمون ما وسعهم ذلك.

❖ ❖ ❖

الجنازة:

ويُسَنُّ لمنْ شهد غسل الميت، الدعاء له بالرحمة والغفران، ثم يشهد الجنازة. والجنازة في اللغة الميت نفسه، إلا أنها أخذت معنى السير بالميت إلى حيث مثواه الأخير. ويجب أن تخلو الجنازة من نار أو إضاءة، أو نائحة أو دفّ أو طبل أو موسيقى، أو شعارات وعبارات مستحبة.لكن في سوى الجنازة، كقراءة القرآن والتكبير والتهليل والأناشيد الدينية الطيبة، فالجنازة سائرة بالميت إلى مثواه الأخير، **وهو مشهد يستدعي الصمت والاعتبار**، والتفكر بالموت الذي أنهى حياة صاحبهم المحمول، والذي سيأتيهم من بعده، مهما طال الزمن، أو قصر. وقد حض النبي r على اتباع الجنائز، مما رفع سُنّيتها إلى درجة عالية. فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري t عن النبي r : (عُودُوا الْمَرْضَى، وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ، تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ) .

ذكر الأحوذي، صاحب التحفة، أنّ الكآبة والحزن كانا يظهران على وجه رسول الله r إذا ما رأى أو مشى أو صلّى على جنازة، وقد خرج يوماً إلى مصلاه فقال: (أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلاَّ تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ: أنا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ مَرْحَبًا وَأَهْلاً. أَمَا إِنْ كُنْتَ لَأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ؛ فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ، وَصِرْتَ إِلَيَّ، فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ: قَالَ: "فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلى الْجَنَّةِ) عن أبي سعيد t .

قال الإمام ابن قدامة[1] صاحب المغني[2]: (يُسْتَحَبُّ لِمُتَّبِعِ الْجَنَازَةِ أَنْ يَكُونَ مُتَخَشِّعًا مُتَفَكِّرًا فِي مَآلِهِ، مُتَّعِظًا بِالْمَوْتِ، وَبِمَا يَصِيرُ إلَيه الْمَيِّتُ، وَلا يَتَحَدَّثُ بِأَحَادِيثِ الدُّنْيَا، وَلا يَضْحَكُ) ونقل عن سعد بن معاذ t قوله: (مَا تَبِعْت جَنَازَةً فَحَدَّثْت نَفْسِي بِغَيْرِ مَا هُوَ مَفْعُولٌ بِهَا). ونُقل أيضاً أنّ بعض السلف رأى رجلا يضحك في جنازة، فقال له: (أتضحك وأنت تتبع الجنازة لا كلّمتُك أبداً).

(وتحصيلاً لهذه الحكمة السامية، طلب الشارع الصمت من المشيعين حتى تخلص العظة إلى النفس، ويقوى التذكر في القلب؛ وفي ذلك ما ورد عن الرسول r : "إنَّ اللَّهَ U يُحِبُّ الصُّمْتَ عِنْدَ ثَلاث: عِنْدَ تِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَعِنْدَ الزَّحْفِ وَعِنْدَ الْجِنَازَةِ" الطبراني في المعجم الكبير، عن زيد بن أرقم[3] t . ومن هنا علم حكم العادة الأولى، وحرم رفع الصوت في تشييع الجنازة، ولو بالذكر وقراءة القرآن، وطلب الاستغفار للميت، وقد رُوي أن أحد المشيعين لجنازة، على عهد رسول الله، رفع صوته بالاستغفار للميت، فقال له الأصحاب [والنبي حاضر] : (لا يغفر الله لك).

---

(١) هو **موفق الدين أبو محمد** الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة شيخ المذهب الحنبلي، ولد ببلدة جماعيل عند مدينة نابلس في فلسطين سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ - ١١٤٧ م وفي تلك السنة قامت الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا، وبعد ذلك بثمان سنوات استولى الصليبيون على فلسطين، فهاجر أحمد بن قدامة مع أسرته إلى دمشق، وطلب عبد الله العلم في دمشق، ثم في بغداد حيث رحل إليها، فدرس على شيخ الحنابلة عبد القادر الجيلاني، وقد خدم الموفق ابن قدامة المذهب الحنبلي خدمة عظيمة بمؤلفاته المفيدة، ومنها: الكافي والمغني. ولما زحف صلاح الدين الأيوبي لتحرير فلسطين في المحرم سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م كان الشيخ ابن قدامة في مقدمة تلك الجيوش، وشرفه الله بالمشاركة في معركة حطين قرب النبي شعيب في ٢٥ من شهر ربيع الثاني وفي كثير من بلدان فلسطين ولبنان؛ حفظ القرآن دون سن البلوغ وحفظ مختصر الخرقي وتعلم أصول الدين، قال ابن تيمية عنه: مادخل الشام - بعد الأوزاعي - أفقه من الشيخ موفق. توفي يوم الفطر عام ٦٢٠ هجرية ودفن في دمشق بجبل قاسيون، وقد شيعته دمشق بجنازة حافلة.

(٢) **المغني** كتاب في الفقه لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ وصححه الدكتور محمد خليل غواش، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية بمصر.

(٣)كنيته أبو عمر، وقيل: أبو أنيسة، غزا مع رسول الله r ، اشتكى يوماً عينَهُ أو عَيْنَيْه فأتاهُ النبي r يعوده فقال: "أرأيت لو ذهب بَصَرُكَ ما كنت صانعًا؟" قال: كنت أصبر وأحتسب، قال: "إذًا لَقِيتَ الله تعالى ولا ذنب لك". ومات ر t بالكوفة سنة ست وستين وقيل: مات بعد قتل الحسين t بقليل.

فإذا كان رفع الصوت بطلب الاستغفار، وهو دعاء من الحاضرين للميت، بهذه المثابة من الإنكار، واستحقاق صاحبه المقت والتشنيع والدعاء عليه بالحرمان من مغفرة الله، فما بالنا برفع الأصوات بغيره، كالصياح والنياحة والندب وعزف الموسيقى ذات النغمات المحزنة! وقد نهى النبي r عن اتباع الجنائز التي معها (رانة) والرانة هي المصوتة، أي ذات الصوت، فتشمل بعمومها النائحة والموسيقى والقارئ والذاكر [بصوت مرتفع]، فكل ذلك أمام الجنائز حرام ومنهي عنه)[1].

وتُختصَر الجنازة باثنين:

الميت المحمول والمشيعين، فالميت قد أُنجزت حقوقه في التلقين والغسل والكفن، والصلاة عليه؛ ثم يُحمل إلى مثواه الأخير: القبر ويُدعى له هناك بالثبات عند سؤاله في قبره، لقوله r فيما **رواه أبو داوود في سننه عن عثمان بن عفان t** : "اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ واسألوا لَهُ بالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ".وذكر الإمام ابن قدامة أنّه رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ y "أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ عِنْدَهُ بَعْدَ الدَّفْنِ أَوَّلَ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتَهَا"[2].

والمشيعون وهم أهله وإخوانه ومحبوه وعامة المسلمين الذين رغبوا بتشييعه والسير في جنازته. ومن المحتمل أن تكون ثمَّة ملائكةٌ أطهارٌ من جملة مشيِّعيه، أُمِروا للقيام بهذا الحق طلباً للدعاء له. فقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الشورى، وهذا أمر لو أدرك حقيقته المشيعون، لأضفى على الجنازة الوقار والرهبة والخشوع. فقد رفض النبي r أنْ يركب الدابة احتراماً للملائكة، إذ رآهم يمشون في الجنازة،كما سنرى، فهل يعقل بعد هذا أن يسود الجنازةَ الهرجُ والصخبُ والنواح؟!!. وعلى هذا، يتعيَّن على المشيِّعين من الناس أن يدركوا رهبة المشهد جيداً، وأن يتحلُّوا بالأناة والصبر والصمت والاسترجاع والدعاء للميت ولسائر الأموات قبلهم ولأنفسهم، **وذاك أدب الجنازة**، ولا يتحصل ذلك إلا في حال التفكُّر والاعتبار.

---

(١) من أحكام الجنائز لابن عثيمين، مصدر مذكور.

(٢) المغني لابن قدامة، مرجع مذكور، ص ٣٩٥.

وللمشيعين أن يمشوا أمام الجنازة، أو خلفها، أو عن يمينها، أو شمالها، ويحرصوا على حملها والتناوب على أركانها الأربعة، وقد ورد ذلك في توجيهات نبوية كريمة منها: ما رواه ابن ماجه عن سالم عن أبيه قال: (رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ y يَمْشِيَانِ أَمَامَ الْجِنَازَةِ..)؛ وروى ابن ماجه في سننه عن المغيرة بن شعبة t عن النبي r : "الرَّاكِبُ خَلْفَ الْجِنَازَةِ وَالْمَاشِي مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ"، أما الراكب لعذر فمعذور ولا بأس عليه في الركوب. فعن النبي r في رواية الإمام أحمد: "الرَّاكِبُ خَلْفَ الْجِنَازَةِ وَالْمَاشِي أَمَامَهَا قَرِيبًا عَنْ يَمِينِهَا أو عَنْ يَسَارِهَا".ذلك أنه يُكره الركوبُ في الجنازة من غير عذر، إلا أنه لا بأس بالركوب بعد الدفن. فقد ورد عن **ثوبان**[1] خادم النبي، فيما رواه البيهقي في سننه، أنّ النبي r شيَّع جنازة فأُتي بدابة فأبى أن يركبها، فلما انصرف أُتي بدابة فركبها، فقيل له: فقال: "إن الملائكة كانت تمشي، فلم أكن لأركب وهم يمشون، فلما ذهبوا أو قال عَرَجُوا، ركبت".

❖ ❖ ❖

القبر!!!

شرع الله تعالى إيواء الميت في قبر، وهدى عباده إلى فكرة القبر لاحتضان الميت، واعتباره الحل الأمثل لتكريم المتوفَّى. فإيواؤه تحت التراب، وتركه لمصيره في التحلل بعيداً عن أعين الناس وسيلة سليمة، مردّها إلى النظرة السوية في احترام الإنسان بعد موته. فقد قال الله سبحانه عن الإنسان ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ عبس، **أي بعد أن خلقه في الدنيا ويسر له أمورها وحاجاته منها، خصه بقبر يؤويه ويستره، حيث يدرك هناك مفردات دار البرزخ، ويتعامل مع موجباتها.** والبرزخ، كما هو معلوم، هو الفاصل بين حياتي الدنيا والآخرة، فيكون القبر بذلك الممرَّ الطبيعيَّ

---

(١) **ثوبان** مولى رسول الله r أبو عبد الله بن بجدد من أهل السراة، والسراة موضع بين مكة واليمن، أصابه سباء، ـ أي وقع في السبي فصار عبداً، فاشتراه رسول الله r فأعتقه وقال له: "إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم وإن شئت أن تكون منا أهل البيت"، فثبت على ولاء رسول الله r ولم يزل معه سفراً وحضراً إلى أن توفي رسول الله، فرحل إلى الشام فنزل الرملة وشهد فتح مصر ثم انتقل إلى حمص فابتنى بها داراً ومات فيها سنة ٥٤ للهجرة. قال ابن سعد في الطبقات: وكان ثوبان رجلاً من أهل اليمن،كان من أكثر الناس تأثراً بالنبي حيث إنه حظِي بخدمة النبي فكان قريبًا منه، وعظيم النفع بصحبته.

للآخرة، أو يكون ساحة الدار الفاصلة المؤقتة التي تنتهي مع يوم القيامة والبعث والنشور. قال الله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ طه.

ولما كان القبر للميت بمثابة الدار للحي، كُرِهَ أن يدفن معه آخر أو ثالث أو أكثر إلا للضرورة القصوى. **فلكل حي دار ولكل ميت قبر**[1]، والقبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة، كما قال المصطفى، فيما أخرجه البيهقي وابن أبي الدنيا[2].

وأخرج أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة t عن رسول الله r أنه قال: (الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ، وَيُرَحَّبُ لَهُ قَبْرُهُ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) ويكون ذلك بعد ضيق القبر والسؤال كما يقول القرطبي، ثم قال "وأما الكافر فلا يزال قبره ضيقاً عليه"، ويؤكد القرطبي أنّ ذلك محمول عندنا على الحقيقة لا المجاز، وأنّ القبر يُملأ على المؤمن خضراً، وهو العشب من النبات، وقد عيّنه ابن عمر أنّه الريحان..

في حديث "أكثروا ذكرَ هاذم اللذات"، على ما رواه الترمذي وحسنه، مشاهد مهيبة. فالقبر الذي اختاره الله سبحانه مأوى للميت، نجده يتحرك ويتكلم قياماً بواجبه في التحذير والتبشير، يقول الحديث" "أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلاَّ تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ: أنا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ فَإِذْ وُلِّيتُكَ

---

(١) قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه أحكام الجنائز (مرجع مذكور ص ٣٤٩): (ويحرم فيه دفن اثنين فأكثر إلا لضرورة أي يحرم في القبر دفن اثنين فاكثر سواء كانا رجلين أم امراتين أم رجلا وامرأة).

(٢) هو **الحافظ أبو بكر بن عبد الله البغدادي** الأموي القرشي (٢٠٨ هـ - جمادى الأولى ٢٨١ هـ) (وقد طغى لقبه على اسمه حتى اشتهر به)؛ قال ابن أبي حاتم:«كتبت عنه مع أبي وهو صدوق» وروى عنه كثير منهم: محمد بن إسماعيل البخاري والترمذي والشافعي والذهبي وابن أبي حاتم y أجمعين.

الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ قَالَ فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلى الْجَنَّةِ وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أو الْكَافِرُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ لا مَرْحَبًا وَلا أَهْلاً أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ قَالَ فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ".

فإذا دفن العبد المؤمن (أي المطيع) كما يدل عليه ذكر الفاجر والكافر في مقابله، (قال له القبر) أو ما يقوم مقامه (مرحباً وأهلاً) أي وجدت مكاناً رحباً، ووجدت أهلاً من العمل الصالح، (فإذا وليتك) أي صرت قادراً حاكماً عليك (اليوم)؛ أي هذا الوقت، وهو ما بعد الموت والدفن، (وصرت إلي) أي صرت إلي ووليتك، (فسترى) أي ستبصر أو تعلم (صنيعي بك) من الإحسان إليك بالتوسع عليك، (فيتسع) أي فيصير القبر وسيعاً (له) أي للمؤمن (مد بصره) أي بقدر ما يمتد إليه بصره، ولا ينافي هذا [رواية سبعين ذراعاً]، لأن المراد بها التكثير لا التحديد، ويفتح له باب إلى الجنة أي ليأتيه من روحها ونسيمها، ويشم من طيبها، وتقر عينه بما يرى فيها من حورها وقصورها وأنهارها وأشجارها وأثمارها)[1].

النعيم والعذاب في البرزخ
على الجسد أو على الروح أو على كليهما؟!

هنا، يثور سؤال لا يزال يتكرر، عبر الأزمان، هل العذاب أو النعيم في القبر يقع على الروح أو على الجسد؟ أو على الاثنين معاً؟. وقد علمنا أنّ الجسد يتحلل ويعود إلى أصله الترابي، وتبقى عظامه لفترة زمنية قادمة، بعد أن يكون لحمه وما في جسده من أجهزة قد بلي، وأنّ الروح تصعد إلى باريها، ثم تعود إلى جسدها، وقد تغادره مجدداً ثم تعود. فهي زائرة وليست بمقيمة؟.

إنَّ مثل هذا السؤال وسواه ينطلق من المعايير الحسية التي ألِفَها الإنسان في الدنيا؛ وهو في طرحه للسؤال يستخدم المفردات التي تدل على وقائع محددة يصعب عليه أنْ يدرك سواها. وسواها غيبي لم يطَّلع عليه الإنسان، ولا يدرك ما

(١) ما ورد في تحفة الأحوذي من شرح وتعليق على الحديث في الصفحة ١٣٣ ،المجلد السابع، مرجع مذكور.

فيه، إلا بما أذن به الرحمن. وقد نقل النبي r مجموعة صور عبر مفردات الدنيا، في حين أنها - أي المفردات - أعجز من أن تحيط بذلك الغيب، أو أن تتمكن من تصويره ومن تقديمه إلى (عقل) البشر الأحياء في الدنيا، وهو العقل الذي لم يعتدْ إلا على صورٍ اكتنزها في مُخَيّلته. وبذلك تكون المفردات اللغوية عاكسة لصور معتادة، وكلٌ من الناس يملك هامشاً في التصوُّر قد يتطابق أو يختلف عن الآخر، وذلك يفسِّر كيف أنّ اللّه سبحانه والنبي r قرّبا إلى الناس في الدنيا صوراً عن وقائع غيبية قد نفهمها، أو نحاول تصورها. وقد ننجح في ذلك أو نفشل، إلا أننا نؤمن بها ونسلم، ونعتقد أنَّ القبر برزخ بين الدنيا والآخرة، وأنّ فيه حياة أخرى مختلفة عن الدنيا بمفاهيمها وأساليبها وطرقها ومعطياتها، كما أنّها تختلف عن آخرة يوم الحساب، والتي فيها يلقى المؤمن نعيمه، والكافر والفاسق والمنافق يلقون ما شاء اللّه لهم من عقاب عادل.

إنَّ إيماننا بالغيب هذا يجعلنا نقول، بطمأنينة كاملة، إنّ ما يلقاه المرء في عالم البرزخ يقع على كُلِّيته؛ وكُليتُه جسدٌ وروح. وكما أنَّنا لا نعلم عن الروح إلا قليلا، كذلك لا نعلم كيف يكون اتصالها بجسد بلي وفني، وتفتت واستحال تراباً. فذلك شأن غيبي نعلم حقيقته، ولا نعرف صورته؛ وهي الصورة التي سوف نطلع عليها، وإنما، ونحن نتحسسها ونراها تنسيباً إلى ما بين أيدينا من مفردات لغوية وتصويرية، تشكل لدينا صورة عما يحيط بنا في هذا الكون العجيب.

ذكرنا، من قبل، أنّ الروح لها نوع تعلقٍ بالجسد في القبر، ثم نراها تتركه لتنتقل إلى الأعلى، لتصل إلى السماء السابعة، إن كانت مؤمنة، أو تبقى دون السماء الأولى إن كانت كافرة؛ فلها قدرات التحرك والصعود والهبوط، وتتميز بسرعة هائلة، يصعب على الإنسان في الدنيا حسابها. ثم إنّها تعود وتغادر إلى أن يأتي موعد القيامة الكبرى، فتعود الأرواح إلى أجساد أصحابها، ثم تبعث جميعاً يوم البعث والنشور، لتلقّي الجزاء والحساب الأخير.

وهنا قد يثور سؤال آخر، مفاده: إذا كان ما تقدم صورة أولية عمّا في القبر، وعن علاقة الروح والجسد المقبور، فكيف بمن تمزق إلى أشلاء وتفرقت أجزاؤه وتبعثرت؟ أو بمن أحْرِقَ جسده حتى غدا رماداً ذرَاه أهله وأصحابه في البحار والأنهار، أو وضعوه في قارورة أو علبة أو سواهما،؟ ثم كيف بمن أكلته الأسود والسباع أو الحيتان؟ أليس كل ذلك واقعاً ومشاهداً ومتكرراً؟ فكيف لهذا أن ينعَّم أو يعذَّب وهو لا قبر له ولا حيّز ولا مكان؟

للغيب ضوابط ومعطيات خاصة

انطلاقاً مما قدمنا، ندرك أنّ للغيب ضوابطه ومستلزماته وحيثياته ومفرداته، وقدراته المختلفة في القليل أو الكثير عن مفرداتنا وتصوراتنا الدنيوية. ولنا أن نتصور كل أولئك الذين ذكرناهم من الموتى قد أحرقوا، أو أكلتهم السباع والحيتان، وهم الذين لا يملكون قبوراً.

نحن أهل الدنيا المؤمنين نعتقد يقيناً أنهم ينالون نصيبهم في عالم البرزخ، فبالموت أُدخلوا إلى ذلك العالم العجيب. وبانقطاعهم عن عالم الدنيا خضعوا لمنطق عالم البرزخ، فكل من دخله سرتْ عليه أحكامه. وليس له في ذلك من مفرٍ ولا مهرب. وما مثلُ من لا يملك قبراً إلا كمثل من كان في الدنيا لا يملك داراً، إلا أنه موجود ويأكل ويشرب وينام ويفعل كل شيء من متطلبات الحياة. ولن يقول أحدٌ: إنّ هذا غير موجود في الدنيا، ولا يصيبه هم ولا فرح. فهو مثل الذين لهم الدور والقصور، وكذا من لا قبر له هو موجود في عالم البرزخ، يعذب أو ينعم، أما طريقة ذلك فلا يعلمها إلا الله سبحانه وحده.

إنَّ الله تبارك وتعالى، القادر على كل شيء، يَهُون عليه جمع أجزاء هذا الذي مُزّق إلى قطع وأشلاء، أو ذاك الذي أُحرق وبات رماداً. فالأمر أهون من أن نسأل؛ فقدرة الله سبحانه مطلقة، وقد وضع لعالم البرزخ قواعد وسنناً تختلف أو تتطابق مع ما اعتدنا عليه في دنيانا التي نعيش.

إننا إذ نطبِّق على عالم البرزخ قواعدَ عالم الدنيا، نكون قد أخطأنا خطأ فادحاً، ولزمتنا الحيرة والشك، وربما نصل إلى الكفر، والعياذ بالله. علاوةً على أنّ هذا (التطبيق) خلاف الواقع والمنطق، وخلاف الغيب الذي أطلَعَنا الله عليه أو أطلعنا عليه رسوله الكريم. فلكلٍّ من دار الدنيا وداري الآخرة، مفردات خاصة، وقواعد حياة مختلفة.

حدثنا النبي r على ما رواه **الطحاوي**[1] عن ابن مسعود t قال رسول الله: (أُمِرَ بعَبْدٍ من عباد الله أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة، فامتلأ قبره عليه ناراً، فلما ارتفع عنه أفاق قال: علام جلدتمُوني؟ قال إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره) !!؟

ومن مفردات كلام النبي r المتقدم، نجد أنّ المقبور يتبلَّغ العقوبة، ويدرك أنّ بإمكانه ، وهو المؤمن، أن يدعو ربه ليخفف عنه شيئاً من العذاب، فيدعوه

---

(١) هو أحمد بن محمد، **أبو جعفر الطحاوي**، نسبة إلى قرية (طحا) بصعيد مصر، الفقيه الحنفي، صاحب المصنفات المفيدة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفَّاظ الجهابذة. وُلِد الطحاوي - على أصح الأقوال - سنةَ ٢٣٩ هـ.كان والده من أهل العلم والأدب والفضل، وقد كانت والدته معروفة بالعلم والفقه والصلاح، وقد ذكرها السيوطي فيمن كان في مصر من الفقهاء الشافعية. وبذلك هيَّأ الله للطفل الصغير الأسرة الصالحة، والبيت الصالح، ونشأ في بيئة كلها علم وفضل وصلاح. وتتلمذ على يد والدته الفقيهة العالمة، ثم التحق بحلقة الإمام أبي زكريا يحيى بن محمد بن عمروس، والتي تلقَّى فيها مبادئ القراءة والكتابة، واستظهر القرآن الكريم، ثم جلس في حلقة والده، واستمع منه، وأخذ عنه قسطًا من العلم والأدب، ونهل الطحاوي من معين علم خاله (المزنيِّ)، فاستمع إلى سنن الإمام الشافعي، وإلى علم الحديث ورجاله. عاش الطحاوي في القرن الثالث الهجري في العصر العباسي الثاني، وهو عصر انحلال الخلافة العباسية، وتلقى مبادئ الفقه الشافعي على والده ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة. من اشهر تلامذته الطبراني، أبو القاسم، صاحب المعاجم، والجرجاني صاحب كتاب الكامل في الجرح والتعديل. وله الكثير من المؤلفات، ومنها:أحكام القرآن الكريم (تفسير لآيات الأحكام)، واختلاف العلماء .وهو كتاب ضخم، ورد في مائة وثلاثين جزءًا، كما ذكر المترجمون للطحاوي، اختصره أبو بكر الجصاص، وصحيح الآثار، والسنن المأثورة، والعقيدة الطحاوية. وفيه بيان معتقد أهل السنة والجماعة. أما المفقود من مؤلفات الإمام الطحاوي فهو يصل إلى ثلاثة وعشرين مؤلفًا. قال عنه ابن كثير: "الفقيه الحنفي، صاحب التصانيف المفيدة، والفوائد الغزيرة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة". توفي (رحمه الله) ليلة الخميس في ذي القعدة ٣٢١ هـ ودُفِن بالقرافة، وقبره مشهور بها، وله من العمر ٨٢ عامًا، وخلَّف من الذرية ابنًا واحدًا، هو علي بن أحمد الطحاوي.

ويسأله التخفيف، ثم يسأله ويلح عليه بالسؤال وبالدعاء، والله تعالى يستجيب، حتى خُفِفتْ المائة إلى جلدة واحدة. ثم نرى أن الجلْد، وهو العقوبة المنفذَة في القبر، نار يمتلئ بها القبر حتى (يغمى عليه)، ثم يفيق ويسأل عن السبب الذي عوقب به، فيُعْلم به. فإذا كانت عقوبة الصلاة بلا وضوء ولا طهور، وعدم نصرة المظلوم مع القدرة عليها، ناراً تشتعل في القبر إلى ما يشاء الله، فكيف إذا لم يصلِ أبداً، أو لم يقم بعباداته التي أمره الله بها؟ أو لم يتعبد الله كما أمر؟ بل كيف إذا كان هو ظالمَ المظلوم؟؟.

ونرى أيضاً في هذا الحديث الشريف كيف أنّ (ميتَ الدنيا) (حي في البرزخ) ويتعاطى فيه بتدبر. ويتضح من ذلك أنّ العقوبة يعلمُ بها (حيّ البرزخ) قبل أن تحل به، وهو وإن سأل ربه التخفيف، إلا أنه لا يسأله عن سبب العقوبة، لإدراكه أنه العادل ولا ظلم عنده. ثم بعد التنفيذ يسأل (حي البرزخ) عن السبب، فالجَلد في الدنيا سوطٌ ينزل بالجسد، بينما في البرزخ نار يشتعل بها القبر. وفي الدنيا لا تحل عقوبة بالمجرم إلا أن يُعلم بذنبه ويَثبتَ عليه، وفي البرزخ تنفذ العقوبة أولاً ثم له أن يسأل عن السبب.

وفي مقابل هذه الصورة المخيفة نجد صورة أخرى أنيسة لطيفة. فنرى كيف أنّ سبعين ألفاً من الملائكة استقبلوا سعد بن معاذ t في قبره، وفتِحَت له أبواب السماء، واهتز له العرش؛ ثم كانت ضمته في القبر خفيفة يسيرة، سرعان ما فُرّج عنه، كما في رواية الشيخين .

إنَّ مفردات الإيمان الرائعة تقتضي الإيمان كاملاً بالغيب كل الغيب، وليس الإيمان ببعض والكفر ببعض. وقد مدح الله سبحانه المؤمنين إذ آمنوا واعتقدوا يقيناً أنّ الغيب كائن، ومنه ما في القبر من حياة بأنواعها، حياة عذاب أو نعيم، وما في الجنة والنار، فقال تعالى ذاكراً سمات المؤمنين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ البقرة.

❖ ❖

عودة إلى الحديث عن القبر
كما في سورة عبس

من المفيد هنا الإشارة إلى **دقة البيان القرآني** في الآيات السالفة عن خلق الإنسان وحياته وموته وإقباره. فقد أوضحت الآية ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ أنّ (المُقبِر هو الله تعالى لأنه صيَّره ذا قبر)[1]، بينما يطلق على الدافن القابر، أما الإقبار فأنْ يتهيأ للميت قبر.

(استخدم القرآن كلمة (ثُم) خلال الحديث عن فترات ومراحل الخلق والحياة، أما عندما تحدث عن موت الإنسان فقد استخدم (الفاء) (فَأَقْبَرَهُ). **والفاء المعقّبة هذه تدل على إيجاب المبادرة إلى تجهيزه وتغييبه في قبره بالسرعة الممكنة**، كما توحي الآية ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ بتلمُّس الامتنان للخالق المبدع، بأن (جعل له قبراً فغيّبه فيه، وأمر بدفنه تكرُمةً له وصيانة عن السباع، والإقبار جَعْلُكَ للميت قبراً ...، والمعنى: الامتنان لله بأنه جَعَل للإنسان موضعاً يصلح لدفنه، وجعله بعد الموت [متماسكاً] بحيث يُتمكن من دفنه. **ولو شاء لجعله يتفتت مع النتن** ونحوه[أي فور موته] مما يمنع من قربانه، أو جعله بحيث يُتَهَاونُ به، فلا يُدْفَن كبقية الحيوانات. فقد عُرف بهذا أنَّ أول الإنسان **نطفة مَذِرة**[2]، وآخره **جيفة قَذِرة**، وهو فيما بين ذلك **يحمل العذرة**[3]، فما شرَّفه بالعلم إلا الذي أبدعه وصوره، وذلك موجب لأن يشكره لا أن يكفره)، وأما قوله (أنشره) أي بعثه من قبره كما كان في دنياه، بزيادة أنه على تركيبٍ قوي لا يتهيأ فيه فراق الروح الجسد)[4].

---

(١) من أحكام الجنائز للعثيمين، مرجع مذكور ، ص ٣٠ .

(٢) **مذرة:** قذرة، رائحتها كرائحة البيضة (لسان العرب).

(٣) يريد الغائط الذي يلقيه الإنسان (لسان العرب).

(٤) (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للإمام برهان الدين البقاعي،. من الجزء الثامن صفحة ٣٢٩ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥، **وبرهان الدين البقاعي** (٨٠٩-٨٨٥) هو إبراهيم بن عمر البقاعي، نزيل القاهرة، ثم دمشق.ولد سنة ٨٠٩ هـ بقرية في البقاع، ونشأ بها ثم تحول إلى دمشق، ثم فارقها ودخل بيت المقدس، ثم القاهرة، وقرأ

إنّ ما تقدم لا ينسينا أنّ اللّه تعالى باهى بابن آدم المطيع ملائكتَه، ونصَّ على أنّه خلق بني آدم وكرّمهم بالخلْق ونعمه الكثيرة ومنها العقل، وجعل فيهم النبوة، ومنحهم الحياة والمسؤولية والتوبة والندم والرحمة والهدى، وهو عطاء لا يماثله عطاء. ومن نتيجته جنات تجري من تحتها الأنهار، بينما العاصي والكافر لهما عذاب أليم.

وفي كلمة جامعة لأنس بن مالك t أخبر بها أصحابه فقال: (**ألا أخبركم بيومين وليلتين لم يسمع الخلائق بمثلهما: أول يوم** يجيئك البشير من اللّه: إما برضا اللّه وإما بسخطه، **ويوم تقف** فيه بين يدي اللّه تأخذ فيه كتابك، إما بيمينك وإما بشمالك، **وليلة يبيت الميت في** قبره لم يبت ليلة قبلها مثلها، **وليلة صبيحتها يوم القيامة** ليس بعدها ليلة).

❖ ❖

القبر بين الشق واللحد

والقبر شقّ في الأرض يحتضن جسدَ الميت. ويُسنُّ في القبر تعميقُ قعره إلى القامة أو نصفها، ويمكن أن يكون فيه لحد[1]. **واللّحد شقّ في الجدار القبلي الأيمن للقبر**، ويفرّغ ترابه فيتشكل فيه حجرة، تستوعب جسد الميت. وبذلك يكون التراب قد أحاط به من ثلاث جهات: فوق وتحت وعن يسار، وتغلق الفتحة عن يمينه، بعد إيوائه (على جنبه مستقبلاً القبلة بوجهه ويضع [الدافن]

ودرس في الفقه والنحو، وفي القراءات، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران، وأصبح من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف، ومن أمعن النظر في كتابه في التفسير،يدرك انه من الجامعين بين علمي المعقول والمنقول. لكن كان من علماء عصره من أنكروا عليه النقل من التوراة والإنجيل، وأغروا به الرؤساء، وقد ألف رسالة يجيب بها عنهم إلى أن حكم له القاضي الزيني بن مزهر بإسلامه وعذره. من كتبه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر،عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، في علمي الحساب والمساحة، مختصر في السيرة النبوية والثلاثة الخلفاء، وكانت وفاته في ١٨ رجب سنة ٨٨٥ هـ، ودفن خارج دمشق من جهة قبر عاتكة.

(١) أصل اللحد الانحراف وهو الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، وقيل الذي يحفر في عرض القبر.

تحت رأسه لَبِنة أو حجراً أو شيئاً مرتفعاً كما يصنع الحي)[1]، بقصب[2] أو لبن أو حَجَر. يقول الإمام ابن قدامة في المغني: "ومعنى اللحد، أنّه إذا بلغ أرض القبر، حفرَ فيه مما يلي القبلة مكاناً يوضع الميت فيه، فإن كانت الأرض رخوة جَعَل الحجارة شبه اللحد... ويُدنى - أي الميت - من الحائط لئلا ينكبَّ على وجهه، وسُنِد من ورائه بتراب لئلا ينقلب)[3]. ولقد اختار الله تعالى لنبيه r الدفن لحداً[4]، وكان r قد قال: **(اللَّحد لنا والشق لغيرنا)، فأهل مكة كانوا يدفنون موتاهم شقاً في قبورهم، بينما أهل المدينة كانوا يلحدون، وقد انحاز النبي r إلى الأنصار بأن دُفن لحداً، وبوضع القصب على لحده. وهو ما يحبه المهاجرون، فيكون قبر النبي قد جمع استحباب الأنصار والمهاجرين بآن واحد. وهذا من توفيق الله وإكرامه لنبيه r .**

❖ ❖

---

(١) المغني، مصدر مذكور، ص ٤١٥. ويعني ذلك إضافة شيء من تراب أو حجر تحت رأسه بحيث يعلو رأسه عن جسمه.

(٢) المغني مصدر مذكور ص ٤١٥.

(٣) المغني مرجع سابق، ص ٤١٥ وأضاف صاحب المغني عن الإمام أحمد (ما أحب أن يجعل في القبر فراش ولا مخدة)، واستحباب القصب أنه جعل على لحد رسول الله لأن الشعبي قال: (جعل على لحد النبي قصب فإني رأيت المهاجرين يستحبون ذلك).

(٤) جاء في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (الحكمة في اختياره - أي النبي - اللحد على الشق لكونه أستر للميت، وانحيازاً للأنصار، فإنه قال لهم: (المحيا محياكم والممات مماتكم)، فأراد إعلامهم بأنه إنما يموت عندهم، ولا يريد الرجوع إلى بلده مكة، فوافقهم أيضاً في صفة الدفن، واختار الله له ذلك)، ويمكن القول إن أفضلية اللحد لكونه يضم الميت داخل الأرض، إذ إن جزءاً من الأرض لم يحفر فيبقى فوق الميت، فيكون التراب يضمه من ثلاث جهات، والجهة الرابعة يُنصب فيها اللّبِن نصباً، بينما في الشق تضم الأرض الميت من جهة واحدة من تحته، فقد يكون الجنبان من اللبن، كما اللبِن فوقه أيضاً. على أن طبقة الأرض وتكوينها يرجحان في القبر جانب الشق أو اللحد وكلاهما جائز، وأكثر المسلمين اليوم على الشق دون اللحد، وقد يكون الشق أفضل في الأرض التي لا تتماسك مع اللحد. وفي تحفة الأحوذي: (إذا دعت الحاجة إلى الجمع بين جماعة في قبر واحد يلحدون). وعن أفضلية اللحد ورد في العُرف الشَّذي شرح صحيح الترمذي: أنّ اللحد كالحجرة ففيه الشرف والتعظيم). انتهى. واللحد يحتاج إلى مساحة أكبر من حالة الشق، قد تبلغ ضعف مساحة الشق الذي هو القبر، فللوصول إلى اللحد لا بد من الشق ثم يحفر في جداره القبلي. وهذا ممكن في البلدان الوسيعة أما في مقابر المدن والأمصار الكبيرة فيصعب تحققه.

القبر بين التسنيم والتجصيص والكتابة عليه

وسواء دفن الميت شَقّاً أو لحداً، فإنه يوضع له غطاء حجري أو من قصب أو من لبن[1] قرب اللحد، أو على ارتفاع من الجسد في الشق، ثم يردم التراب المأخوذ من الحفرة، ثم يرفع من التراب على وجه الأرض مقدار شبر، وهو مع الردم الأول ما يستهلك التراب الذي حفر. وذلك تمييزاً للقبر عن سواه، ضمن رغبة توفير الحماية والكرامة للميت، ويعلو التراب الظاهر على القبر قدر شبر وهو التسنيم. وقد أورد البخاري في صحيحه عن **سفيان التَّمار**[2] **(أنه رأى قبر النبي r مسنماً)**[3]. ولا بأس برشِّ التراب الظاهر على القبر بالماء لكي لا يندرس. كما أن النبي **r وضع الحصباء على قبر ولده إبراهيم**، ولا شك أنّ الحصى من شأنها تثبيت التراب فلا تذروها الرياح، أو تسقطها الأمطار، فيُحفظ القبر، ولا يندرس.

جاء في حاشية ابن عابدين "واليوم اعتادوا التسنيم **باللبن** صيانة للقبر عن النبش، ورأوا ذلك حسنا)، وقد قال النبي **r** : (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن). وقال صاحب الحاشية وهو من أئمة المذهب الحنفي، بالتطيين مع أنّ أبا حنيفة قال بكراهيته!! وذلك ما يؤكد مرونة الفقه إزاء القضايا الظنية.

---

(١) اللَّبِنَة: التي يُبْنَى بها، وهو المضروب من الطين مُرَبَّعاً، واللَّبِن التي يُبْنَى بها الجدار؛ والتَّلْبينة حَساء يعمل من دقيق أو نخالة ويجعل فيها عسل، سميت تَلْبينة تشبهاً باللَّبَن لبياضها ورقتها؛ ولُبْنٌ ولُبْنَى ولُبْنانٌ: جبال، قال ابن الأعرابي: قال رجل من العرب لرجل آخر لي إليك حُوَيِّجَة، قال: لا أَقْضِيها حتى تكونَ لُبْنانِيَّة أَي عظيمة مثل لُبْنانٍ، وهو اسم جبل!!(لسان العرب) ولبنان اليوم دولة عربية غرب سوريا وشمال فلسطين.

(٢) **سفيان بن دينار التمار** أبو سعيد الكوفي ثقة من الطبقة السادسة في التابعين.

(٣) **السنام** هو سَنامُ البعير والناقة: أَعلى ظهرها، والجمع أَسْنِمَة، وسَنِمَ سَنَماً، فهو سَنِمٌ: عَظُمَ سَنامُه، وقد سَنَّمه الكَلأُ وأَسْنمه. وقال الليث: جمل سَنِمٌ وناقة سَنِمة ضخْمة السَّنام. وسنام كل شيء: أَعلاه؛ ومَجْدٌ مُسَنَّم: عظيم. وسَنَّم الشيء وتَسَنَّمه: علاه. وأَسْنم الدخانُ أَي ارتفع. وقوله تعالى: ومِزاجُه من تَسْنِيم؛ قالوا: هُوَ ماء في الجنة سمِّي بذلك لأَنه يَجْري فوق الغُرَف والقُصور. ويقال للشريف سَنِيمٌ مأْخوذ من سنام البعير، ومنه تَسْنِيمُ القُبور. وقَبْرٌ مُسَنَّم إِذا كان مرفوعاً عن الأَرض. وكل شيء علا شيئاً فقد تَسَنَّمه. وتَسْنِيمُ القبرِ: خلاف تَسْطيحِهِ. والقبر المسنم هو الذي يعلو وسطه طرفيه.

ويعطي بُعداً لتغيُّر العادات. فتحريم رفع القبور ظن[1]، وهو ما يساعد على استيعاب تدرج العادات. علاوة على ذلك فقد رُفع قبر النبي r شبراً. .فعن أبي بَكْرٍ النَّجّاد مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ (أنّ النبي r رُفِعَ قَبْرُهُ مِنْ الأَرْضِ شِبْرًا، وَطُيِّنَ بِطِينٍ أَحْمَرَ مِنْ الْعَرْصَةِ) نيل الأوطار للشوكاني والعرصة موضع واسع لا بناء فيه.

ومن متممات التسنيم وضع شيء عليه كعلامة له، ومنها كتابة اسم الميت على القبر. وقد قال علماء بكراهية ذلك ونهوا عنه، وورد في حاشية ابن عابدين تعليقاً على النهي عن الكتابة على قبر الميت: (لا بأس بالكتابة إلخ)، (لأن النهي عنها، وإنْ صح، فقد وُجِد الإجماع العملي بها، ذلك أن محل هذا الإجماع العملي على الرخصة فيها ما إذا كانت الحاجة داعية إليه في الجملة، ونقل عبارة "المحيط" بقوله: وإن احتيج إلى الكتابة، حتى لا يذهب الأثر ولا يُمتهن فلا بأس به، فأما الكتابة بغير عذر فلا. كما أنه يكره كتابة شيء عليه من القرآن أو الشعر أو إطراء مدح له ونحو ذلك)[2]. وعندما توفي الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ قبر في (مقابر قريش في القاهرة)، يقول النووي عن قبره (وقبره بمصر عليه من الجلال، وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام). وقد تقدَّم ذكر قبره والشّعر المكتوب عليه في ترجمته ص ٧٤.

ونقل العلامة محمد بن صالح العثيمين (في كتابه أحكام الجنائز ص ٣٤٨) عن شيخه عبد الرحمن بن السعدي رحمه الله (المراد بالكتابة ـ أي المنهي

---

(١) أحكام الجنائز للعثيمين، ص ٥٧.

(٢) حاشية رد المحتار ص ٢٣٧. من جهة أخرى فقد رأيت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ في طبعته الأولى بدار الكتب العلمية بيروت المجلد الرابع ص ٥٩٠، تحت عنوان (أبيات وجدت مكتوبة على القبور)، ذكرها الإمام الغزالي وهي مختارات رائعة في الوعظ من الموت والحث على العودة إلى الله، وعلق عليها الإمام أن هذه الأبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت) وقصدنا هنا الإشارة إليها لكون الإمام ـ رحمه الله ـ لم ينكر الكتابة على القبر بل أثنى عليها. إضافة إلى أننا نجد مثل ذلك في مشاهد قبور كثير من علماء ودعاة قدامى ومحدثين في مختلف الأمصار، غير أنّ فريقاً من الأئمة يقول بكراهيتها.

عنها ـ ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من كتابات المدح والثناء، لأن هذه هي التي يكون بها المحظور، أما التي بقدْر الإعلام فإنها لا تكره) .

وعلى هذا، وللاستدلال على موضع القبر، ولحفظه ولدفن من مات بعده من أهله، يكون **من المستحسن أن يُعْرَف القبر أنه لفلان**، وبذلك أجيز وضع حجر أو نحوه عنده لمعرفته، وقد فعله النبي r في قبر عثمان بن مظعون t لما رواه الْمُطَّلِبِ قَالَ: (لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، أُخْرِجَ بِجَنَازَتِهِ، فَدُفِنَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ r رَجُلا أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجَرٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَمْلَهُ، فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ r وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، قَالَ كَثِيرٌ قَالَ الْمُطَّلِبُ قَالَ الَّذِي يُخْبِرُنِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ r قَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى بَيَاضِ ذِرَاعَيْ رَسُولِ اللَّهِ r حِينَ حَسَرَ عَنْهُمَا ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ وَقَالَ أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إليه مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي).أبو داوود في سننه، كما أنّ ذلك يُيسر على من أراد زيارته أن يقصده ويقف عنده.

إذاً، **فلا مانع من كتابة اسم المتوفى على قبره**، إذا ما تكاثرت القبور وتشابهت، فلا يعرف الأهل قبر ميتهم. وفي حال جهالة القبر قد يتعرض للنبش، أو قد يُدفن فيه سواه، الأمر الذي تنشأ معه دواعي الخصومات بين الناس. ولا شك أن إزالة أسبابها خير من تبرير منعها..(ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح) و(إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما) كما في القواعد الشرعية..بالإضافة إلى أن **فعل النبي r بوضع الحجر لتعليم قبر ابن مظعون، ورش الحصى على قبر ابنه إبراهيم، يشيران إلى إمكانية إدخال تعديل مقبول على القبور لحماية القبر من انهيار سنامه، وبعثرة ترابه وحصاه**، في البلدان التي يكثر مطرها وتشتد رياحها، بحيث لا يثبت سنام قبر ولو كان عليه حصى، كما هو حال بلاد الشام وكثير من بلدان العالم.

❖ ❖

القبر يُعلّم بغير الحجر؟

ومما يمكن قوله هنا، إن إحكام التراب المسنَّم يمكن أن يجري، في البلدان المطيرة، بغير الحصى، ويُعلم بغير الحجر، كشيء هو أيضاً من جنس

الأرض والتراب والحصى والحجر. فمثلاً الرخام[1] وهو من جنس الأرض، قد يعتبر في هذا الشأن، ويُرجى أن يكون مقبولاً لحماية القبر وصون سنامه الترابي، كما يمكن كتابة الاسم عليه من غير خوف اندثاره. وما أوردناه آنفاً قريب من قول الحاشية الآنف الذكر (واليوم،أي زمن الكاتب، اعتادوا التسنيم باللبن صيانة للقبر، وهو حسن لما رآه الناس حسناً)، وليس فيه ضرر، إن شاء الله، ونرجو أن يكون موافقاً لروحية فعل النبي r وسنته الشريفة المنتقاة. وقد سئل الإمام أحمد عن تطيين القبور فقال: (أرجو أن لا يكون به بأس)، ورخص بذلك الحسن والشافعي، وروى أحمد بإسناده عن نافع عن ابن عمر أنّه كان يتعاهد قبر عاصم بن عمر، وقد توفي ابن له وهو غائب فقدم، فَسَألنَا عنه فدللناه عليه، فكان يتعاهد القبر، ويأمر بإصلاحه)[2] بينما نهى عمر بن عبد العزيز أن يُبنى على القبر بآجُرّ. والآجُرّ تراب أحمر يُشوى، فكرهوا أن يكون على القبر شيء مسّته النار. ولما كان الرخام من جنس الأرض، ولم تمسه النار، فيكون مقبولاً بخلاف الآجرّ، والله أعلم.

❖ ❖

القبر بين رخاوة التربة وإقبار أكثر من واحد

ذكر ابن عابدين في الحاشية (**أنّ حفر القبر فرض كفاية، إن أمكن، إجماعاً**. ومفاده أنّه لا يجزئ دفنه على وجه الأرض ببناء عليه[3] [أو في بناء]، ولا

---

(١) **الرخام** هو صخر كلسي متحول يتكون من الكالسيت النقي جداً (شكل بلوري لكربونات الكالسيوم) له العديد من الأغراض والاستخدامات، وقد تكوّن تحت ظروف نادرة من الضغط والحرارة الهائلين في جوف الأرض. تشتهر عدة دول في إنتاجه منها، فلسطين ،تركيا، إسبانيا، البرازيل وإيطاليا التي تعد في المرتبة الأولى. كما تطلق كلمة رخام على الصخور الجيرية المتحولة، والأحجار الجيرية الصلبة والأحجار الجيرية المتبلورة. وتوجد في مصر أنواع مختلفة من الرواسب الجيرية تابعة للعصور الجيولوجية المختلفة، وتغطي مساحات كبيرة من صحرائها، (موقع المهندسين العرب على النت).

(٢) المغني مصدر مذكور، ص ٤٢٢.

(٣) من عجائب هذا القرن ما تناقلته الأخبار عن اتخاذ المباني الشاهقة لوضع الموتى في طوابقها العديدة. انظر تفصيل الخبر في هامش صفحة ١٥٢ من هذا الكتاب.

يدفن اثنان في قبر إلا لضرورة، ولا يحفر قبر لدفن آخر، إلا إن بَلِيَ الأول، فلم يبق له عظم. إلا أن لا يوجد[أي أن لا يوجد مكان إلا ذاك القبر]، فتُضمّ عظام الأول ويُجعل بينهما حاجز من تراب). وأشار إلى أنّه لا بأس بالدفن بالتابوت إن كانت الأرض رخوة أو عند الحاجة، وإلا يُكره). مع الإشارة إلى أنّه لا يُلقى تحت الميت شيء، ومع التأكيد على أن من السنّة أن تكون أرض القبر تراباً. لذا، فإنْ كان الدفن في التابوت لرخاوة الأرض وللضرورة جاز. والأحسن أن يُفرش التابوت بتراب أيضاً. كما ورد في "المغني"، أنّه يمكن استخدام اللبن أو الحجر للأرض الرخوة بما يقرب من صورة اللحد. ولعل هذا أفضل من التابوت الخشبي، إذ إن الفقهاء كرهوا الخشب في القبر.

❖ ❖

لكل إنسان قبر ...نعم ولكن!!

في الأصل، يجب أن يكون لكل إنسان قبر مخصوص، لا يدفن فيه سواه، تأكيداً على شخصيته وحُرمته، حتى وإن صار الميت تراباً في القبر، يكره دفن غيره في قبره، لأن الحرمة باقية، وإن جمعوا عظامه في ناحية، ثم دفن فيه غيره، فيكره، إن كان يوجد موضع فارغ، لكن عندما كثُر الناس، وبخاصة في المدن والأماكن المأهولة، صعب ذلك، وأصبح فيه مشقة كبيرة، والمشقة تجلب التيسير، **فكان الجواز في دفن غيره في قبره إذا ما بلي**، إذ لا يمكن على ما قال صاحب الحاشية، أن يُعدّ لكل ميت قبر لا يدفن فيه غيره، لا سيما في الأمصار الكبيرة[1].

ولعل في اختيار أن يكون **لكل إنسان قبر خاص، إشارة إلى استقلال هذا الفرد، فقد خلق لوحده، ثم عاش في مجتمع متشابك العلاقات، فاكتسب الخير والشر، وخرج بوفاته وسجِلُّه حافل بما اعتقد وعمل، ثم كان مصيره إلى الصندوق الترابي، هو الحفرة المظلمة التي لا مفر منها، مستسلماً إلى مصير معاكس لما بدأ في رحم أمه**. فهنا كان نطفة فمضغة فجنين تحرك بعد نفخ الروح فيه، ثم خرج خَلْقاً آخر، له وجوده، وشخصيته وذاتيته، واسمه ونسبه، ودوره في حياة طالت أو قصرت، غير

(١) حاشية رد المحتار، مرجع مذكور المجلد الثاني، ص ٢٤٦ .

أنها تاريخه، وترجمة لمختلف لحظات عمره. أما هناك في القبر، فيعود وحيداً بجسده، بعد أن انسلخت عنه روحه، ليتدرّج في التحلّل، ثم يتحول إلى الجِبِلّة البشرية الأولى، إلى التراب. وإن كانت الروح تذهب وتعود إلى "ترابه" تساكنه فيه!!

وقد ذهب أئمة الفقه إلى تحريم الدفن في قبر واحد لاثنين فأكثر إلا للضرورة، كما فعل المسلمون عندما دفنوا شهداء أحُد. غير أنّ بعض العلماء قال بأن الكراهة هذه هي كراهة تنزيهية، أي لا يعاقب فاعلها، ويثاب تاركها. كما ذهب آخرون إلى **أن إفراد كل ميت في قبر أفضل، والجمع ليس بمكروه ولا محرم. وترك الأفضل ليس بمنهي عنه** [1].

ويشير "القبر"، إن حكى، أن هذا الإنسان، وإن دفن وأصبح تراباً، فإنه يبقى ذا استقلالية خاصة، حتى ولو ضُمَّ رفاته في زاوية قبره، ودُفِن فيه سواه، فيبقى "مكانه" في القبر الذي أُسْكِنَه "قبراً مستقلاً"، كمن سكن في دار غيره بعد أن رحل عنها. فالدار للأوَّلين والآخرين، **وكلٌّ في استقلال تامٍ عن الآخر، حتى لو أن أكثر من واحد دفنوا في قبر واحد، في وقت واحد، ووضع بين كل منهم تراب كفواصل بينهم، أو كانوا في لحود عديدة في قبر واحد**. فلكلٍّ في القبر مكان، يبقى فيه بالاستقلال ويُسأل لوحده، ويحامي عنه عمله الصالح فينجو، أو يصدقه فعلُه المشين فينبو به إلى عذاب ورؤىً ومشاهدات، أقلها أنه يرى ما في الجنة من نعيم فيهِشُّ له، أو يَرى مقعدَه من النار فيحزن ويألم. وهكذا إلى أن تقوم الساعة. نسأله تعالى السلامة والعافية.

من فضائل الشهيد والميت في سبيل الله

من المتفق عليه أنّ للشهيد منزلة عالية عند اللّه لقوله تعالى: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ». وهناك أحاديث

(١) عن أحكام الجنائز، مرجع مذكور، ص ٣٤٩.

صحيحة تذكر بعض المزايا والفضائل للشهيد منها: أنّه "يتمنّى أن يرجع إلى الدّنيا فيُقْتَل عشر مرّات لما يرى من الكرامة » ومنها أنّه يغفر له في أوّل دفعة، ... ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار...، ويشفع في سبعين من أقاربه»

غير أن الشهيد في سبيل الله ليس من يقتل في الحرب والجهاد فحسب، وإنْ كان هو أمثلهم وأشدهم ميزة، **فمن عمل لله والتزم بدين الله وهجر السوء وجاهد هوى نفسه، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونافح عن دين الله، وجاهد بقوله ولسانه ويده، فهو وشهيد الحرب شريكان فيما وعد الله**. فقد روي عن أنس أن النبي r قال: (المقتول في سبيل الله تعالى، والمتوفى في سبيل الله بغير قتل هما في الخير والأجر شريكان) كما ذكر الرازي في تفسيره الذي عقّب على الحديث بقوله: (ولفظ الشركة مُشْعِرٌ بالتسوية) وروي أيضاً عن النبي r (أنّ أصحاب النبي قالوا: يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك [أي كان موتنا على الفراش لا في ساحات الحرب]. فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ **الحج** .

ولئن كان للشهيد مزايا وفضائل كما رأينا، فإن للمؤمن الملتزم بالعمل في سبيل الله والمخلص فيه لله، شأن كريم يَقْربُ به من مقام شهيد القتال سواء في الآخرة أو ما قبلها في عالم البرزخ .يقول الله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وهذا مدخل رضي في القبر، كما في الجنة. والقبر هو المدخل الأول للميت بعد انتهاء حياته، أكان شهيداً أو ميتاً على الفراش. وذلك بلا ريب من فضل الله إذ جعل للمؤمن المتوفى "في سبيل الله" ولو على فراشه، درجات من درجات الشهادة الكاملة، في القبر أو في جنات الخلد. ذكر القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ **الإسراء** .قولاً لابن عباس t يشرح فيه الآية: (أدخلني القبر مدخل صدق **عند الموت** وأخرجني **مخرج صدق عند البعث**).

وتبقى الآية ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ تحمل من البشائر ما يجعل المسلم مطمئناً إذا مات ولو على فراشه، ومطمئناً إذا أُدخل قبره وأُهيلَ عليه التراب، ومطمئناً إذا بُعِثَ ليقف أمام ربه الدَّيان. فهو دائماً في عيشة رضية، وحسبُهُ أنّ الله وَعَد، ووعدُهُ صِدْقٌ بادخالهم ﴿مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ وهو وعد يلبي رغبات من مات "في سبيل الله" حتى يرضى، مزداناً بالقبول والرضوان. ولعمري انّ هذا لأروع ألوان التوفيق!!.

ورد في تفسير القرطبي: (أنّ للمقتول [في سبيل الله] زيادة فضل [على من لا يقتل ومات على فراشه وإن كانت حياته ومماته في سبيل الله] بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أي الجهاد أفضل ؟ قال: (من أهريق دمه وعقر جواده). فعقَّب القرطبي: وإذا كان من أهريق دمه وعقر جواده أفضل الشهداء عُلِمَ أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول).

وهناك فائدة لافتة ذكرها القرطبي في تفسير الآية ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ أن سليمان بن عامر قال: كان فضالة برودس [جزيرة رودس] أميراً على الأرباع [المجموعات المقاتلة والمهاجرة] فخرج بجنازتيْ رجلين: أحدهما قتيل [أو شهيد] والاخر متوفٍ [أي ميت عادي]، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته، فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل ! فوالذي نفسي بيده ما أبالى من أي حفرتيهما بعثت اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الحج .

المدافن العامة

الأصل أن يكون الدفن في المدافن العامة في البلد. لكن كما قد يكون في القبر أكثر من ميت، ضمن شروط محددة، **كذلك يمكن أن يكون الدفن في غير مقابر البلد، وضمن شروط القبر وصفاته، والدفن وتوابعه**، إلا ما خُصّ به الشهداء، فهؤلاء يدفنون بثيابهم في أماكن مصرعهم، تكريماً لهم وتشريفاً للأرض التي شهدت بلاءهم، كما أنّ جروحهم تنزف يوم القيامة: اللونُ لون الدم والرائحة رائحة المسك، ويا لها من منزلة وكرامة!!

لكن من الراجح أن الآراء الفقهية المختلفة لا تلزم في حصر دفن الميت في المقبرة العامة[1]، وإنما نجد النص على وجوب دفنه ومواراته في التراب. وصحيح أن الهدْي المُتَّبع زمنَ النبوة هو دفن من مات من الصحابة في البقيع، إلا أن ذلك لا يمنع من غيره، ولا نستدل على هذا بدفن النبي في حجرة عائشة، لأنه خاص به، كما قال أكثر العلماء. وللحديث الذي رواه أبو بكر الصديق t : (إنّ الأنبياء يُدفنون حيثُ يموتون)، ولكننا نستدلُ على ذلك بطلب أبي بكر وعمر أن يُدفنا إلى جانب النبي ـ أي خارج البقيع ـ ، وهما مَنْ قال النبي r في حقهما وحقِّ غيرهما: (...عَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ).ابن ماجه كما أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت قد قالت لعبد الله بن عمر الذي جاءها موفداً من أبيه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، يستأذنها بدفن أبيه إلى جانب صاحبيه محمد r وأبي بكر t : (كنت أريده [أي مكان القبر قرب النبي وأبيها أبي بكر] لنفسي ولأوثرنّه اليوم على نفسي)[2] إضافة إلى إجماع الصحابة على جواز فعلهما.وفي ذلك دليل على جواز الدفن في غير المقابر من غير كراهة، وإنْ كان الأوْلى أن يكون فيها لا في البيوت أو حدائقها . ذلك ـ كما قال الإمام أحمد ـ لأنه أقل ضرراً على الأحياء من ورثته، وأشبه بمساكن الآخرة، وأكثر للدعاء له والترحم عليه [3] .

❖ ❖

(١) دفنُ الميت في غير المقابر جائز، أما إذا كان الدفن في داخل المسجد، فالدفن يقع في دائرة التحريم، أما الدفن خارجه فالأمر مختلف. ولكشف المسألة يقتضي تحديد حدود المسجد أولاً ويمكن القول انها مكان الصلاة، وحدوده. وهي كل مساحة لا يجوز للجُنُب والحائض المكوث فيها، ويخرج منها الحدائق التابعة له مثلاً، فالدفن فيها مباح كما سنرى. أما داخل المسجد فيرجح تحريم الدفن للأحاديث الكثيرة التي تنهى عن ذلك. فإذا كان القبر في غير معاني التعظيم ولا هو أمام المصلين، والمسجد قائم لم يُبنَ على القبر أو إليه ومن أجله، بل إن القبر خارج حدود حرم المسجد، وكانت وصية الميت دفنه في تلك البقعة استئناساً بفضائل ما في جوار المسجد من خير، جاز والله تعالى أعلم. ويُستأنس على ما تقدم بما أخرجه السيوطي في الجامع (إن قبر إسماعيل في الحجر) عند الكعبة المشرفة. ووجه الاستئناس أنّ القبر إذا لم يكن معظماً ولا مقصوداً بذاته لم تترتب عليه مفاسد اعتقادية، بعكس القبور والمشاهد المتخذة مساجد، فالحكمة ــ كما يقول الألباني ــ تقتضي التفريق بين النوعين، وهذا ما جاءت به الشريعة، فلا تجوز التسوية بينهما. **والدفن في الجوار أمرٌ مشاهَد في ملحقات عدد من المساجد في العالم دُفِنَ فيها علماء وأعيان لم يُفتتن بها أحد. نذكر منها قبوراً كانت أو لا تزال في الحدائق والملحقات في مسجديْ المنصوري وتينال في طرابلس لبنان وسواهما كثير فإنْ كان في السابق الخوفُ من اتخاذ القبر في ملحقات المسجد للتبرك سبباً في كراهية الدفن في ملحقات المسجد سداً للذرائع إلا أن الخوفَ في الزمن الحاضر بات معدوماً.**

(٢) إحياء علوم الدين، مصدر مذكور، ص ٥٧٩.

(٣) ذكره ابن عروة في كتابه (الكواكب الدراري).

الجريدة والآس على القبر!!

ومن العادات، في بلاد الشام مثلاً، وضع جريدة أو آس على القبر، على أمل أن يخفّف الله بهما عن الميت ببركة تسبيحهما، لما في الأخضر من نوع حياة، وتشبُّهاً بفعل النبي r عندما وضع جريدة خضراء على قبرين، رجاء أن يخفف الله عذاب صاحبيهما[1] بخلاف اليابس. ومن هنا كره (البعض) قطع النبات الرطب والحشيش من المقبرة دون اليابس (ما دام رطباً يسبح الله تعالى فيُؤنِس الميتَ وتتنزل الرحمة)[2]، (ويكره قطعه إن نبت الحشيش بنفسه، ففيه تفويت حق الميت من الانتفاع بتسبيح الأخضر، على ما ذكرت الحاشية. كما يُكره الرعي في المقبرة، وقيل بعدم جوازه[3]،وقد أخبر الله سبحانه أنّ كل ما في الكون من مخلوقات يسبحه ويقدسه، ولكننا، نحن البشر، لا نفقه تلك التسابيح[4]

---

(١) البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ r بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا) وهناك خلاف بين العلماء هل هذا الفعل خاص برسول الله r أم يُستحب فعله لكل واحد؟.

(٢) حاشية رد المحتار ص ٢٤٥ .

(٣) من كتاب أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الله السحيباني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٦هـ

(٤) أعلن **د. سمير الحلو** من الأردن وهو طبيب متخصص في طب الأعشاب على موقع فضائية الجزيرة على النت في ندوة الشريعة والحياة التي أقيمت في ٢٠/٧/ ٢٠٠٣. أنه قد أجريت في مصر دراسة معمقة، لمعرفة تأثير الكلام على النباتات، وهي محاولة لافتة في سبر أغوار النبات، بعد دراسات على جوانب الراحة والقلق في الإنسان إنطلاقاً من مستويات الديسبل والضجيج !!! فقد تم إحضار خمس نباتات قمحٍ ووُضِعَ إلى جانب كل نبتة تسجيل صوتي وكان نصيب إحداها تسجيلاً قرآنياً والثانية كلاماً عربياً عادياً والثالثة موسيقى والرابعة تسجيلاً لكلمات سب وشتم للنبات والخامسة لا شيء. والنتيجة اللافتة للدراسة أنّ التي شُتمت ماتت، والتي سمعت الموسيقى انتعشت بزيادة قليلة، ونمتْ التي سمعت الكلام العربي، بينما زادت نمواً عن باقي النباتات، تلك التي اختصت بتلاوة قرآنية، بنسبة ٧٠% عن باقي النباتات أما الخامسة التي استمعت إلى هدير آلة التسجيل، أي لا شيء، فقد كان نموها نمواً عادياً. ومما لا ريب فيه، أنّ هذه الدراسة اللافتة تشكل أرضية صالحة لمزيد من الدراسات والتأملات. فقد يتسع المجال إلى تعمق أكبر في طبيعة النباتات، ومدى إمكانية تأثرها بالمحكيات البشرية. فضلاً عن أنّ ما شكلته التلاوة القرآنية من آثار مدهشة، قد تكون مدخلاً لفهم ما للغة النبات، ولو كان بسيطاً، وصدق الله القائل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ **الإسراء** .وسننشر هذه التجربة بتفاصيل أخرى في كتابنا "الوجه الآخر من الحياة والصحة والمرض والشفاء" وهو قيد الانجاز إن شاء الله.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ **الإسراء**.

ذلك أننا **نحن الأحياء مقيدون بدرجات في السمع، فإن تدنت عن حد معين من الديسيبل، وهي وحدة السمع،لم يعد بإمكاننا السمع، وعدم سمعنا لتلك الذبذبات لا يعني انعدامها أو هي غير موجودة**، بل بسبب النقص في قدراتنا وهو الذي منعنا من الالتقاط، وبالتالي السمع. كما أنّ للسمع عندنا، نحن البشر، محدوداتٍ وخاصياتٍ تتعلق بطبائع الأصوات، ولا يستطيع السمع الإنساني أن يتجاوز حدوده، وهذا لا يعني أنّ ما هو خارج الحدود غير موجود، بل هو موجود ولكنَّ سَمْعَنا دونه غطاء!! وبذلك نعجز عن إدراك "لغة" تلك الكائنات، وقد نصبح بالموت قادرين على سماعها وفهمها، فهناك الروح تتعاطى مع ملائكة النعيم والعذاب، كما تتعاطى مع سائر الأرواح، **فأيسر منه أنْ يسمع الميت ويصغي إلى تسبيح ما في الكون من مخلوقات، وهي التي كانت تسبح، وهو في الدنيا، إنما كان لا يتمتع بقدرات الالتقاط** !!! وليس ذلك على الله بعزيز.

على أنّ العلامة ابن صالح العثيمين قال: (إنّ من البدع غرس الأشجار في القبور)،[1] وقد ساق الحكم في معرض ذكره تحظير نصب الخيام على القبور، فنقل عن ابن عمر **y** أنّه رأى خيمة على قبر فقال: لمَ؟ قالوا نظلُّه، فقال: (دعوه يظلله عمله). وقال أيضاً، نقلاً عن أحد تلاميذ الإمام أحمد: (وسمعت أحمد سئل عن القراءة عند القبر؟ فقال: (لا). ولا يشرع وضع الآس ونحوها من الرياحين والورود على القبور، لأنه لم يكن من فعل السلف)[2].

وقياساً على الخيام جاء منع بناء القباب على القبور، خاصة إذا كانت للتفاخر والمباهاة، فيكون إثمها، إن وجد، على بانيها وليس على الميت. وقد حاجج المدافعون عن القباب والأضرحة بقولهم: إنّ قبر النبي **r** قد بُني عليه قبة كبيرة، ولو

---

(١) أحكام الجنائز ص ٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٤.

كان بناؤها حراماً ما بنيت أو ما بقيت، أو ما أبقاها المسؤولون عبر العصور، بخاصة بعد أن تمكَّن السعوديون، وهم من الملتزمين بمذهب محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، من توحيد الجزيرة العربية، وأزالوا كل بدعة ومخالفة.

صحيح أنّ بناء قبة قبر النبي r وصاحبيه تمَّ في عصور متأخرة، في عهد السلطان المنصور قلاوون[1] في سنة ٦٧٨ هـ، بعد أن آل إليه حكم السلطنة في مصر، إلا أنه لم يُنكَر عملُهُ من علماء عصره، ولم تجر أية محاولة لنزع القبة. وأجمع المسلمون بعد بنائها على احترامها وتقديرها، بل أصبحت رمزاً للمسجد النبوي الشريف. والله أعلم.

❖ ❖

لن نتوقف هنا حول ما طرأ على قبور المسلمين من شكل ظاهر، وقد أصبح على مر الزمن رسماً متوارثاً، يعلو أو ينخفض من بلد إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، وغدا تقليداً مضطرداً في أكثر بلدان المسلمين. كما لن نتحدث عن عادات الأمم والشعوب، وعن أديانهم التي ارتضوها في حرق الأجساد ونثر رمادها، أو ذرّه في الهواء، أو جعلِه في مياه الأنهار والبحار، أو في تحويل المقابر إلى مبانٍ ضخام فيها ألوان الترف، .حيث يتم الدفن بوضع الميت في تابوت يوضع في غرف تسمى مدافن، في طوابق عدة تعلو إلى عشرات الأمتار وكأنها فنادق[2] .

نبقى، ضمن إطار البحث الذي نحن في شأنه، وهو المآل الذي يؤول إليه الإنسان في قبره بعد الموت.

---

(١) انظر سيرة حياته وجهاده وطرده للتتار والصليبيين من بلاد الشام وتحرير طرابلس الشام في كتابنا (عودة الذاكرة إلى تاريخ طرابلس والمنطقة) الصادر سنة ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨م. عن دار الإيمان وهو منشور على موقعنا الالكتروني"الكلمة الطيبة" .

(٢) نشرت جريدة الشرق الأوسط في ١٩ /١٠/ ٢٠١٠ عن مقبرة عامودية في البرازيل، لها طوابق بارتفاع ١٠٨ أمتار تطل على بهو، هو أشبه ببهو فندق حيث تعزف موسيقى الكمان العذبة بلا نهاية في كل طبقاتها. وتصل تكلفة موقع الدفن فيها إلى ما يتراوح بين ٦ آلاف إلى ٢١ ألف دولار لمدة ثلاث سنوات.

الفصل الثاني عشر:

نوافذ مفتوحة على عالم البرزخ

بعد أن يُوارى الميت التراب، وقد تبعه ماله وأهله وعمله، يبقى عنده عمله، بينما يعود إلى الدنيا أهله وماله، وهو ما حدَّث به رسول الله. فعن أنَس بْنِ مَالِكٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ r : (يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ) متفق عليه. ومَنْ من الناس مبرأ في عمله ولا سيِّئة عليه؟! ومَنْ منهم لا يحتاج إلى طلب الرحمة من أبناء الدنيا أهله وإخوانه وأصحابه، برجاء أنْ يقبلهم الله، وهم في الدنيا، فيحيط أمواتهم بوافر رحمته وعظيم جنانه؟! فإن كان رسول الله r ،وهو الذي قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يستغفر ربه في اليوم والليلة أكثر من مائة مرة، ويتعوَّذ من عذاب النار ومن فتنة القبر، **فكيف بنا، نحن سائر المسلمين؟!!! ...ألا نحتاج إلى عمل مقبول، وذنب مغفور، وإلى رب كريم ودود يَرْحم عباده بأخلص أعمالهم، وطول استغفارهم حال حياتهم، ثم يبقي لهم نوافذ مفتوحة على عالم برزخهم، يدخل منها إليهم دعاء أحبابهم من أهل الدنيا، من ولدٍ وزوجٍ وجار وصاحبٍ وصديقٍ وأخٍ صادق الوعد أمين، وصدقاتٍ جارية تتوالى على قبورهم صُنعت لهم أو كانت بفعلهم حال حياتهم، تنشُر عليهم البركات في دارٍ هي بين دارَيّ الدنيا والآخرة!!!.**

إنّ ما يقدمه الأحياء للأموات أمر غاية في الأهمية والثواب، حسبُه أنّه تواصل متجدد بين من هم في الدنيا وبين من ذهب منها. وهي وإن كانت أنواعاً مختلفة من دعاء، وعبادة، ونسك، وصدقة، إلا أنها تأتي بسياق إفادة الأحياء والأموات بآن معاً، حتى الدعاء الخالص للميت، يجد الداعي فيه راحة في نفسه، فتختلط روحانية الدعاء بروح الداعي، فيتحصل عنده الاطمئنان، ويوقن أن دعاءه يفيد ميته بإذن الله، وقد جهد له بالدعاء، علاوة على أن الملائكة تؤمِّن على دعائه وتقول: ولكَ

مثل ذلك. وهذا حق. فكيف بصدقة جاريةٍ فعلها الميت إذ كان حياً، أو أنشأها أهله ومحبُّوه عن روحه، ألا تُهَلُّ عليه - إن قُبلت - خيرات كثيرة، وتشرق عليه بها أنوار مباركة؟! حتى إنّ الميت - كما أخبرنا الصادق الأمين r - يجد ذلك عنده، فيسأل من أين لي هذه المكرمات؟ فتجيبه الملائكة الموكلة به: هذه من أب أو أم أو ابن أو صديق أو أخ لك في الله، فيغتبط ويُسَرّ. فقد روي عن النبي r أنه قال: **(الميت كالغريق في قبره ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها)**[1].

ولئن كان عمر الإنسان محدوداً بما قدّره الله عليه من أيام أو شهور أو سنين، لا يُقدم أجله ولا يتأخر، بل يموت في الأجل المرسوم. إلا أنّ النبي r قد بشّرنا بأنّ المرء الصالح يُنْسَأ له في أجله بذكر طيب له وبدعاء مجيد، ضمن مفهوم الذكر الحسن للمؤمن التقي عبر ذريته الصالحين، إذ لا تموت نفس حتى تستكمل أجلها. فالميت، في قبره، يتلمَّس الزيادة، ويدركها بروحه الطيبة، فيجد دعاء من هو من ذريته أو ممن أحسن إليهم في دنياه، أو من صدقته الجارية منه تأتيه بثوابها أرتالاً أرتالاً، تُتابع ما استمرت في الدنيا. ويكون ذاك الميت في غاية السرور والفرح. فعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: ذُكِرَ زِيَادَةُ الْعُمُرِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ r، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ r :"لا تُؤَخَّرُ نَفْسٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمُرِ: الذُّرِّيَّةُ الصَّالِحَةُ يَرْزُقُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ، فَتَدْعُو لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَلْحَقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ الْعُمُرِ" **رواه الطبراني في المعجم الكبير وابن أبي حاتم في تفسيره**. وهو حديث كما ترى يعضد ما قدمناه، من أنّ أطباقاً من نور تحملها الملائكة تقدمها إلى الميت المعني، فأكرِمْ بها من بشارة طيبة مباركة، وعندئذ ما أروع القبر!!

---

(١) العاقبة في ذكر الموت، تأليف أبو محمد، عبد الحق بن عبد الرحمن الأندلسي، المعروف بابن الخراط (٥١٠ - ٥٨٢ هـ. ١١١٦ - ١١٨٦ م) ، محدث، حافظ، بارع، مجود، علامة ، فقيه، خطيب، مشارك في الأدب والشعر واللغة، إصدار مكتبة دار الأقصى/ الكويت، ط أولى ، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م

وذكر ابن أبي الدنيا عن بشار بن غالب قال: (رأيت رابعة العدوية في منامي، وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لي: يا بشار هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من الحرير، قلت: وكيف ذاك؟ قالت: هكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستُجيب لهم، جُعل ذلك الدعاء على أطباق مخمّرة بمناديل الحرير ثم أُتي به الذي قد دُعي له من الموتى وقيل هذه هدية فلان إليك).

وأورد الإمام الرازي في تفسيره (ج١/ص ١٥٦) تعليقاً على الآية ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أن عيسى u (مرّ على قبر فرأى ملائكة العذاب يعذبون ميتاً، فلما انصرف من حاجته مرَّ على القبر [ذاته] فرأى ملائكة الرحمة معهم أطباق من نور، فتعجب من ذلك، فصلَّى ودعا الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى، كان هذا العبد عاصياً، ومذ مات كان محبوساً في عذابي، وكان قد ترك امرأة حبلى فولدت ولداً وربّته حتى كبر، فسلمته إلى الكتّاب فلقَّنه المعلم بسم الله الرحمن الرحيم، فاستحييت من عبدي أن أعذبه بناري في بطن الأرض وولدُه يذكر اسمي على وجه الأرض) فتأمل!!!

❖ ❖

نافذة من عالم البرزخ على أهل الدنيا

في صفحة ٩٧ من هذا الكتاب، نقلنا عن شيخ الإسلام ابن تيمية حوار الأموات في عالم البرزخ وتزاورهم وأسئلتهم عن أهل الدنيا، بما رواه الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي r أنه قال: "إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ تَلْقَاهَا أهلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، كَمَا يَتَلَقَّوْنَ الْبَشِيرَ فِي الدُّنْيَا، فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ يَسْتَرِيحُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ. قَالَ: فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُونَهُ مَا فَعَلَ فُلانٌ وَمَا فَعَلَتْ فُلانَةُ، هَلْ تَزَوَّجَتْ؟؟ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الرَّجُلِ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُ، فَيَقُولُ: أَيْهَاتَ قَدْ مَاتَ ذَاكَ قَبْلِي، فَيَقُولُونَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، ذُهِبَتْ بِهِ إلى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ فَبِئْسَتِ الأُمُّ وَبِئْسَتِ الْمُرَبِّيَةُ، قَالَ: وَإِنَّ

أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذَا فَضْلُكَ وَرَحْمَتُكَ فَأَتْمِمْ نِعْمَتَكَ عَلَيْهِ، وَأَمِتْهُ عَلَيْهَا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِمْ عَمَلُ الْمُسِيءِ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُ عَمَلا صَالِحًا تَرْضَى بِهِ عَنْهُ وتُقَرِّبُهُ إِلَيْكَ".

ومن مفهوم الحديث، نجد أنّ الأموات في عالم البرزخ من المؤمنين، بعد أن تُعْرض عليهم أعمال أهلهم في الدنيا والإخوان والأصحاب، لا يسرون أو يفرحون أو يستبشرون بخيرهم فحسب، بل أيضاً يدعون الله سبحانه بأنْ يُتمَّ نعمته على من وُفّق للخير منهم وأن يميته على تلك النعم. أما المسيئ، فيسألون اللّهَ له أن يلهمه العمل الصالح، حتى يرضى عنه ويقربه إليه.

وهكذا نجد أنّ التبادل بين عالمي الدنيا والبرزخ قائم دائماً ومتواصل. فأهل الدنيا يرسلون الهدايا إلى أمواتهم، ويدعون لهم ويتصدقون على نيتهم، وأهل البرزخ يفرحون لهم، ويدعون لهم أيضاً بالسداد والتوبة والقبول.

ولعمري، إنّ هذا التواصل ليكشف جوانبَ مضيئةً من الحياتين: الدنيا والبرزخ، وأنهما حلقتان مترابطتان بين مجموعات تعيش في فترات زمنية في الدنيا، تقابلها مجموعات في عالم البرزخ، والرابط بينهما صدق الدعاء إلى الله سبحانه، وتمني الخير لمن في الحياة المقابلة. ولعلَّ الدعاء المخلص من الجانبين يعطي معنى غزيراً عميقاً، لا يجده إلا من ذاقه، ويؤكد عمق التواصل الإنساني بين الناس الذين لا زالوا على قيد الحياة، وأولئك الذين تركوا الدنيا والتحقوا بعالم البرزخ، فهم فيه في حياة من نوع ولون جديدين. كما يؤكد، ما ذهبنا إليه، **من أنّ عالمي الدنيا والبرزخ متجاوران، ويبقيان كذلك إلى نهاية الحياة الدنيا وموت سائر الخلائق**، ومن ثم نفخة البعث والنشور، وأنّ لكلٍ قواعد وأحكاماً. وإننا، وإن كنا نعرف أحكام الدنيا وقواعدها، فإننا لا نعرف، ولا يمكن أن نعرف عن حياة البرزخ العجيبة إلا ما كشفه النبي r، وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

لعل بعض الناس يستهول هذا الأمر، ويقول: "نضع الميت في القبر ونهيل عليه التراب، ونبقى عنده قليلاً ونزوره بين الحين والآخر فلا نسمع صوتاً، ولا نرى عنده ولا من حوله من أهل القبور أية حركة أو صوت، وقد نفهم أنّ الموتى يبعثهم الله ليوم الحساب، ولكن يبقى من غير المفهوم أن يكون في القبر تواصلٌ ما قائم ومستمر بين أهل الدنيا وأهل البرزخ؟" .

ويمكن مجادلة هؤلاء بالتي هي أحسن. فضلاً عن أن النبي الصادق الأمين حدثنا عن ذلك، ونحن به مؤمنون، وبما حدّث مصدقون. فنشير إلى أن عالمنا اليوم زاخر بكثير من الظواهر التي تعطينا مَثَلاً وحجة.

فأنتَ إذا ما نظرت إلى الفضاء، فوقك ومن حولك، لا ترى فيه شيئا مميزاً مختلفاً يُلفت نظرك، في حين أصبح بمثابة ساحة أو مسرح يعجّ بالصور والأصوات الفائقة للعد أو الحصر.

فهناك مليارات الصور والأصوات تنتقل إلى بصرك وأذنيك عبر جهاز خاص، فإنْ فقدت الجهاز فقدت تلك الصور والأصوات. إذاً فإن عدم قدرتك على الالتقاط والرؤية والاستماع لا يعني أنها غير موجودة في الأثير والفضاء، بل السبب في عدم تحسس آثارها متعلق بك، وكل ما في الأمر أن الجهاز اللاقط لديك غير موجود، بينما أجهزة الإرسال لا تزال تعمل، وترسل إلى الفضاء مليارات المليارات من مقاطع الصور وذبذبات الأصوات. فأنت محاط بما في الجو من صور وأصوات وسواها، غير أنك لا تحس بها ولا تراها إلا إذا تجهزتَ بوسائلَ قادرةٍ على الالتقاط وإعادة البث إليك.

ومثل ذلك الروح،مع التأكيد على أنّ ما يجري في القبور وفي عالم البرزخ خارج عن إمكاناتنا المحسوسة من جهة التواصل معه. فنحن البشر الأحياء لا نملك أجهزة الالتقاط والاطلاع، ومن رحمة الله بنا أنه لم يُعطنا تلك الوسائل، ولو مُلِّكْناها لفقدت حياتنا وظيفتها المناطة بها، وسقطت خارج ساحة العمل التي أرادها الله لنا.

نافذةٌ واحدةٌ أعطيتْ لرسول الله r ، أطلَّ منها ويطلُّ عبرها أناسيُّ الدنيا على عالم البرزخ والآخرة. فهو النبي الخاتم. وهو وإنْ كان بشراً إلا أنه مُلِّكَ ما لا نملكُه نحن سائر البشر. فقد وهبه الله تبارك وتعالى قدرات، وحياً أو مشاهدة، مكنته من رؤية معالم متنوعة من عالم الغيب، سواء في البرزخ أو في الجنة أوالنار ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ الجن؛ فحدثنا عنها وجهد بما أوتي من جوامع الكلم، ليطلعنا على مشاهدها، فيفهم أحدنا منها بقدر ما يملك من قوة التخيل أو مفردات البيان، أو شفافية الروح وصفاء النفس، لينعكس ذلك الفهم إيماناً جازماً وأعمالاً صالحة.

إنّ أحاديث النبي r وتوجيهاته، في مسائل القبر والبرزخ والسؤال والعذاب والنعيم حقائق ساطعة. صوّرها لنا النبي r وأنبأنا عنها وقربها إلى أفهامنا وعقولنا، وكان ذلك منه r على سبيل كشف ملامح من أسرار الحياة وعوالمها. فإنْ كنا لا نملك قدرة الاطلاع المباشر على حقيقة تلك العوالم، فلدينا القدرة على الاطلاع عبر تخيل مفردات المعاني، مما يجعل الصورة الذهنية، عن تلك المسائل، أقرب ما تكون إلى مضامين الحقيقة. غير أنَّ تخيلنا هذا يبقى ضمن المدركات البشرية الخاصة بكل منا، علماً أنها لن تستطيع الوصول، بحال من الأحوال، إلى مطابقتها مطابقة تامة. كاستحالة التقاط الصور والأصوات من الفضاء من غير حيازة وسائل إدراكها. ومن لطف الله U بنا أنّه لم يملكنا ذلك كما ذكرنا، وهو ما عبّر عنه النبي r حين قال عن عذاب القبر وما فيه: "لَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ U أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ" رواه الإمام أحمد عن أنس t فتأمل!!

❖ ❖

ما تقدم صحيح وسويّ، إلا أنه لا يُسقط المقولة الأساس، وهي أن الإنسان يُحصّل في أخراه، ما قدمت يداه حال حياته في دنياه. وعندما يخرج من الحياة ويمسي في عالم البرزخ، يجد، كما قدمنا، عمله ولا يجد أهله ولا جيرانه ولا أقرباءه ولا إخوانه ولأصحابه. بل يجد نفسه فرداً وجهاً لوجه مع واقعه الدنيوي

السالف. وهي نتيجة عبرت عنها العالمة الفقيهة **أم الدرداء**[1]، فقد ذكرت إلى نبيط السعدي المعروف بـ "هزَّان"، كما روى الإمام أحمد في الزهد، فقالت: (يَا هَزَّانُ[2]، أَلا أُحَدِّثُكَ مَا يَقُولُ الْمَيِّتُ إِذَا وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّهُ يُنَادِي: يَا أَهْلاهُ، يَا جِيرَانَاهُ، وَيَا حَمَلَةَ سَرِيرَاهُ، لا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْنِي، وَلا تَلْعَبَنَّ بِكُمْ كَمَا تَلَعَّبَتْ بِي، فَإِنَّ أَهْلِي لَمْ يَحْمِلُوا عَنِّي مِنْ وِزْرِي شَيْئًا، وَلَوْ حَاجُّونِي الْيَوْمَ عِنْدَ الْجَبَّارِ لَحَجُّونِي، ثُمَّ قَالَتْ أم الدَّرْدَاءِ: الدُّنْيَا أَسْحَرُ لِقَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَمَا آثَرَهَا امرؤٌ قَطُّ إِلا أَصْرَعَتْ خَدَّهُ) . يعني أذلَّته في النهاية البئيسة .

❖ ❖ ❖

ضمة القبر والسؤال فيه:

ولا عجب أن يكون يومُ ولوج الميت دارَ البرزخ "القبر" ثقيلاً شديداً عليه، ذلك أنه يُسأل فيه عن الأمور المفصلية في الحياة، وهي الإيمان بالله وبالنبي أو بالرسول الذي بُعِث في زمنه، وبالكتاب الذي أُنْزِلَ إليه.أما بالنسبة للناس في عهد محمد r وما بعده إلى قيام الساعة، فيحصر السؤال بمحمد r ، وعما جاء به من الحق والعبادات وأفعال الخير والأعمال الصالحة، وبالقرآن.

---

(١) **أم الدرداء** السيدة العالمة الفقيهة، هجيمة وقيل جهيمة الأوصابية الحميرية الدمشقية وهي أم الدرداء الصغرى لتميزها عن الصحابية أم الدرداء الكبرى التي توفيت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، روت علماً جما عن زوجها أبي الدرداء وعن سلمان الفارسي وعائشة وأبي هريرة y... وعرضت القرآن وهي صغيرة على أبي الدرداء وطال عمرها واشتهرت بالعلم والعمل والزهد.ومات عنها أبو الدرداء وخطبها معاوية وكان لها جمال وحسن، قال عثمان بن حيان سمعت أم الدرداء تقول إن أحدهم يقول اللهم ارزقني وقد علم أنّ الله لا يمطر عليه ذهباً ولا دراهم وإنما يرزق بعضهم من بعض فمن أعطي شيئاً فليقبل فإنْ كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة وإن كان فقيراً فليستعن به، وحجت أم الدرداء في سنة إحدى وثمانين (انظر تاريخ دمشق).

(٢) هو **نبيط السعدي من أهل سِنْجَار** (تاريخ دمشق)؛ وسنجار تُعدُّ من أقدم المدن العريقة في التاريخ، اقترن اسمها باسم أحد أحفاد نبي الله إبراهيم u وكان اسمه (سنجار بن مالك) الذي وطأ وأنشأ عليها المدينة، وتقع سنجار على مسافة ١٣٠ كلم في الشمال الغربي لمدينة الموصل، وهي لا تبعد عن الحدود السورية أكثر من ٥٠ كلم، وتعتمد في حياتها العامة على الزراعة بأنواعها وتمتاز بأراضيها الخصبة وأبرز ما يلاحظ الزائر في سِنجار جبلها الشاهق الذي يرتفع ٤٨٠٠ قدم ويمتد في عمق الجزيرة لأكثر من ٥٠ ميلاً وفيه الينابيع الجوفية والسطحية وعيون الماء البارد العذب وفيه أعظم وأوسع وأطول القنوات المائية في العالم.

ما نعرفه يقيناً، أنّ الملائكة المولجين بالسؤال يمارسون لوناً من ألوان التوضيح، إلى الحد الذي يكاد يصل إلى درجات التمحيص الكبير للإنسان في أول عهده بالقبر، أو ما سمّاه النبي r بالفتنة؟ ولذلك سُمّي الملاك الممارس لها بالفتّان، وقانا الله فتنته وثبتنا بالقول الثابت!.

وحدَّث النبي r عن هذه المرحلة الصعبة بمجموعة كبيرة من الأحاديث الشريفة، تدور كلها حول مختلف مفاصل هذا الدخول الصعب في دار البرزخ العجيب. وقد حاكى النبي r أسلوب القرآن في تقريب المعاني إلى عقول البشر، باستخدام ألفاظ اللغة ومفرداتها، مما يقرب المعنى إلى عقل الإنسان المخلوق المهيأ للدنيا لا لعالمي القبر والآخرة. وبالتالي، يصعب على الإنسان أنْ يتصور ما سيكون. ولما كان إدراك الوصف كاملاً استحالةً مطلقة، فلا بد، عندها، من تقريب الصورة ولو بالقليل القليل، ومنه المُوفي بالغرض في التذكُّر والاعتبار. فحسبنا نحن أهل الدنيا أن نعيش همَّ القبر في وحشته، وفي يومه الأول بما حدثنا به النبي الصادق الأمين r فنشحذ الهمم، ونجعل الدنيا طاعة لله ولنبيه ولدينه. ففتنة القبر، وإنْ كانت معها ضمة شديدة أليمة لا ينجو منها أحد، إلا أننا نطمع أن تُخفف عنا في قبورنا، وواهبُ الرأفة والحنان لنا في دنيانا، لن يضنّ برحمة منه علينا في قبورنا، ولا بعد بعثنا، فهو خير وأرحم الراحمين.

أصيب **سعد بن معاذ**[1] **t** في غزوة الأحزاب، وقضى إلى ربه بعد أن حكم على يهود بني قريظة. فعَنْ جَابِرٍ **t** سَمِعْتُ النَّبِيَّ **r** (يَقُولُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ) **البخاري في صحيحه**، وقال ابن عمر: دخل رسول الله **r** قبره فاحتبس [أي بقي فيه زمناً ما]، فلما خرج، قيل: يا رسول الله! ما حبسك ؟ قال: (ضُمَّ سعدٌ في القبر ضمة فدعوتُ الله أن يكشف عنه). **مصنف ابن أبي شيبة.** وروى **الطبراني** عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ **r** يَوْمَ دُفِنَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى قَبْرِهِ [أي إلى قبره]، قَالَ: "لَوْ نَجَا أحد مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ لَنَجَا سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَلَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ رُخِّيَ عَنْهُ".

وللسيد محمد التميمي شرح طيِّب في أمر ضمة القبر، مما يلقي ظلالاً أمينة على تلك الضمة التي لا مفرَّ منها. فقد قال: (**ضمةُ القبر إنما أصلها أن الأرضَ أمُّهُم**، ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، **فلما رُدّوا إليها، وهم أولادها، ضمّتهم ضمَّةَ الوالدة إذا غاب عنها ولدها ثم قدِم، فمن كان مطيعاً ضمته برفق**، ومن كان عاصياً ضمته بعنف سُخْطاً لربّها عليه. وقد أخرج البيهقي في الشعب [وسواه عند الحافظ السيوطي] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إنك منذ حدثتني بصوت منْكَر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعني شيء، قال: "يا عائشة **إنَّ أصوات منكر ونكير في سماع المؤمنين كإثمد** [الكحل] **في العين، وإن**

---

(١) **سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري**، صحابي من أهل المدينة، سيد الأوس. أسلم على يد مصعب بن عمير **t** الذي أوفده الرسول **r** للدعوة في المدينة قبل الهجرة، وقال لبني عبد الأشهل: (كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تسلموا) فأسلموا فكان من أعظم الناس بركة في الإسلام وأقام مصعب بن عمير في داره يدعو الناس إلى الإسلام. كان سعد يكسر الأصنام. ولما هاجر النبي **r** آخى بينه وبين سعد بن أبي وقاص. وفي غزوة بدر استشاره في مكان المعركة وشهد أحُداً والخندق وروي أنه مرَّ على أمه والسيدة عائشة بنت أبي بكر وعليه درع له خرجت منها ذراعه وفي يده حربة وهو ينشد: «لا بأس بالموت إذا حان الأجل» فقالت أم سعد: «الحق يا بني قد والله أخرت» فأصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله (عرق من وسط الذراع) وبقي سعد حياً إلى أن حُكِّم بمصير يهود بني قريظة بناء على طلبهم فحكم عليهم فقال له النبي **r**: «لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله، فلما قُتِل آخر رجل منهم انفجر الدم من عرقه» واحتضنه النبي **r**: «فجعلت الدماء تسيل على رسول الله وجعل أبو بكر وعمر يبكيان ويسترجعان» وتوفي على إثرها **وكان له من العمر ٣٦ عاماً.** حضر رسول الله تغسيله ودفنه، ولما وضع في قبره كبر رسول الله وكبَّر المسلمون حتى ارتج البقيع. فقال **r**: «تضايق القبر على صاحبكم وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا سعد»، ثم فرج الله عنه».

ضغطة القبر على المؤمن كالأم الشفيقة يشكو إليها ابنها الصداع، فتغمز رأسه غمزاً رفيقاً [كالكبس الرقيق على الرأس باليد]. **ولكن يا عائشة ويلٌ للشاكّين في الله كيف يُضْغطون في قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة**" عافانا الله منها.

❖ ❖ ❖

"محاماة" في القبر عند السؤال

من أروع نتائج إيمان المسلم والتزامه بأحكام دينه، أنّه يلقى بعد موته، بدءاً في قبره، مَنْ يحامي عنه ويحميه بكل قوة وتفاعل. فقد حدّث النبي **r** عن ذلك فقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ [أي الميت بعد دفنه] خَفْقَ نِعَالِهِمْ [نعال المشيِّعين] حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً كَانَتِ الصَّلاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصَّوْمُ عَنْ شِمَالِهِ، وَفِعْلُ الْخَيْرَاتِ وَالْمَعْرُوفُ وَالإِحْسَانُ إلى النَّاسِ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلاةُ: لَيْسَ قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: لَيْسَ مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ شِمَالِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ: لَيْسَ مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ وَالْمَعْرُوفُ وَالإِحْسَانُ إلى النَّاسِ: لَيْسَ مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ وَقَدْ مَثُلَتْ لَهُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، فَيُقَالَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ؟ يَعْنِي النَّبِيَّ **r**، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، فَصَدَّقْنَا وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، وَعَلَى هَذَا حَيِيتَ، وَعَلَى هَذَا مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ **U**: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ بَابًا إلى النَّارِ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلى النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ **U**، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَيُقَالُ لَهُ: افْتَحُوا لَهُ بَابًا إلى الْجَنَّةِ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُقَالُ: هَذَا مَنْزِلُكَ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، فَيُعَادُ الْجِلْدُ إلى مَا بَدَأَ مِنْهُ، وتُجْعَلُ رُوحُهُ فِي نَسَمِ طَيْرٍ تَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ؛

وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيُؤْتَى فِي قَبْرِهِ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَلا يُوجَدُ شَيْءٌ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَلا يُوجَدُ شَيْءٌ، فَيَجْلِسُ خَائِفًا مَرْعُوبًا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ

الَّذِي كَانَ فِيكُمْ؟ وَمَا تَشْهَدُ بِهِ؟ فَلا يَهْتَدِي لاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ r ،فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ كَمَا قَالُوا ،فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا حَيِيتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ U : وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ،فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلى الْجَنَّةِ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلى الْجَنَّةِ ،فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ لَوْ أَنْتَ أَطَعْتَهُ، فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وثُبُورًا ،ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: افْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلى النَّارِ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِليها ،فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ، فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وثُبُورًا" رواه أبو داوود عَنْ أبي هُرَيْرَةَ t .

ومن قوله r نكون قد لمسنا ورأينا كيف تكون عبادات المسلم وفعاله الطيبة سياجاً حامياً عنه في قبره، وكيف أنّ مهمِلَها والمقصر فيها والممتنع عنها جحوداً أو تقصيراً أو كفراً، لا محاماة عنه ولا دفاع، فتتولى أمره في قبره ملائكة العذاب، ما امتد عالم البرزخ في الزمان إلى أن يُبعث.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ r قَالَ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وتحدث أحد الشعراء في هول ذلك الانتقال المخيف، عن أول ليلة في القبر فقال:

واللهِ لو عاشَ الفتى في عمرِهِ	ألْفَاً من الأعوام مالِكَ أمرِهِ
متنعماً فيها بكلِّ لذيذةٍ	متلذذاً فيها بسُكْنى قصرِهِ
لا يعتريهِ الهمُّ طولَ حياتِهِ	كلا ولا تَرِدُ الهمومُ بصدرِهِ
ما كان ذلك كلُّه في أن يَفِي	فيها بأول ليلةٍ في قبرِهِ

وقانا الله شر تلك الليلة وسائر زمن القبر، وأعاننا على ما فيه من فتنة وبلاء، وجعلنا من السعداء الآمنين.

❖ ❖ ❖

ومهما يكن من أمر السؤال في القبر وما يليه من عذاب أو نعيم... فإنّ أمراً آخر يبدأ للتو في القبر، الساتر لأعين الناس عما يجري فيه من تحلل للجسد وهو تحلل لا مناص منه ولا مفر، فإنّ هذا الجسد إلى البلى سائر وصائر!!! حتى ولو حُنِّط بمواد قد تبقى الجثة شكلاً مع فناء أكثرها، وبخاصةٍ ما ينزعونه منه، كامل مفردات بطنه وقلبه وكليتيه ورئتيه فهذه جميعاً إلى الأرض أو الحرق وكلاهما تحولها إلى تراب!!

مليارات اليرقات يأكلن الجسد!!

قال ابن زياد لعمر بن عبد العزيز t : (يا أمير المؤمنين لقد رأيناك قبل أن تتولى الملك وأنت في المدينة في نعمة وفي صحة وفي عافية، فما لك قد تغيّرت؟ فبكى عمر حتى كادت أضلاعه أن تختلف، ثم قال: يا ابن زياد كيف لو رأيتني في القبر بعد ثلاثة أيام، يوم أجرَّد من الثياب، وأوسَّد التراب، وأفارق الأحباب، وأترك الأصحاب؟ كيف لو رأيتني بعد ثلاث؟ والله لرأيت منظراً يسوؤك...). وفي رواية أخرى **للطبراني**: (كيف بك يا محمد لو رأيتني في القبر بعد ثالثة وقد وقصتْ عيناي على وَجْنتي [أي سقطت على خدي]، وسال فمي قيحاً، ورمى رأسي أشدُّ تغيُّراً؟).

وفي زماننا وضع باحثون وأطباء في الطب الشرعي[1] جدولاً بالمراحل التي يمر بها الجسد في قبره تحللاً وتفسخاً، بفضل ملايين الميكروبات والجراثيم التي تهاجم الجسد، سواء كانت فيه أصلاً أو زحفت عليه مما يحوزه التراب منها. وما إن تنتهي تلك "الدوييات" من عملها الصعب، وقد بلغت المليارات بعد إنجاز مهمتها بنجاح، حتى يأكل بعضها بعضاً ثم تنفجر وتموت.

---

(١) يراجع في هذا كتاب الطب الشرعي للدكتور أحمد سليمان وكتاب الميكروبات وكرامات الشهداء للدكتور عبد الحميد القضاة، الأردن الطبعة الأولى،١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣. وانظر ما كتبه ولدنا مؤمن رحمه الله في باب مقالاته بعنوان "وهب الأعضاء نداء إلى الأحياء" من كتابنا (حروف الوفاء في فقد الأبناء) .

يبدأ التحلل بعد مضي ٢٤ ـ ٣٦ ساعة على وفاة الإنسان بظهور بقع خضراء في البطن، كما يظهر كثير من الأوعية الدموية في جلد البطن والصدر، بينما تكون "الحشرات" قد انجذبت إلى الجسد بفعل رائحة لا يشمها الإنسان الحي. فتسارع تلك الحشرات إلى وضع آلاف البيض في ثقوب الجسد وثناياه، وسرعان ما تتحول إلى يرقات صغيرة بيضاء بطول ١ ملم، لتصبح بعد غذائها من الجسد ١ سنتم. وعندئذ تضع بيضها، ثم تموت لتتجدد الدورة بتوالد يرقات بيض، مستكملةً تفسخ الجسد وتآكله. وبعد يومين إلى خمسة أيام من الوفاة يظهر الزبد المدمَّى من الفم والأنف، وينتفخ البطن والوجه والجسم بالغازات، وتشتد الرائحة الكريهة. وبعد ٥ أيام إلى ١٠ تسقط مقلة العين والجلد الأخضر الهش، والأظافر والشعر. وتتكاثر اليرقات حول الفم والأنف وأعضاء التناسل، ثم تتحلل الأنسجة. وبعدها يهترئ الرحم عند النساء، لوجوده في الجسد بمكان بعيد عن الميكروبات، وهو آخر ما ينتهي من الجسد، بعد القلب والكليتين والمثانة. أما العظام فتدخل مرحلة التفتت مع مرور الزمن، باستثناء عظمة في نهاية العمود الفقري، هي عصيّة على التفتت والإذابة أو التكسير. فقد قال النبي r "وَلَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه مسلم عن أبي هريرة t .

استثناءان من التحلل: الأنبياء والشهداء

استثناءان وحيدان من قاعدة التحلل والتفسخ لأجساد البشر والمخلوقات: **أحدهما**: خصّ الله به أنبياءه ورسله. فعن **أوس بن أوس**[1] قال: قال رسول الله r : "إِنَّ اللَّهَ U حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ" رواه الإمام أحمد في مسنده. **وثانيهما**: الشهداء الصادقون، وقد يُلْحَق بهم بعض حفظة كتاب الله الكريم. ولا غرابة في ذلك، إذ إن الميكروبات التي في أجساد هؤلاء المستثنِيْن، وهي مخلوقات حيّة، تلتزم بأمر الله، فقد حرَّم سبحانه على الأرض وما فيها من ميكروبات و "دويبات" أكل أجساد الأنبياء وكذلك الشهداء، وقد

(١) هو أوس بن أوس الثقفي، صحابي لم يترجم له، روى له أصحاب السنن الأربعة عدداً من أحاديث صحيحة من رواية الشاميين عنه، توفي في دمشق.

وصفهم تعالى بالأحياء. إذ إنّ تلك المخلوقات العجيبة القادرة على عمليات القضم للأجساد، مأمورة بأمر الله ومطيعة له، فإنْ أمرَها تعالى بعدم مس جسد نبي أو شهيد فعلت، وحُقَّ لها أن تفعل، فهو خالقها وواضع خاصيتها، وحين يشاء يمنعها مما وهبها. كحال نار إبراهيم وسكين إسماعيل، إذ فقدت الأولى خاصية الإحراق، والثانية خاصية القطع. كما أنّ النبي سليمان u مات وظلّ متكئاً على عصاه زهاء سنة، ولم يقع أرضاً إلا بعد أن أنهت الأرَضَة نخر عصاه، مما يعني أنّ ميكروبات جسده الطبيعية والبالغة الملايين الملايين، كما الأرَضَة وحشرات البيئة لم تفعل بجسده شيئاً. في حين لو أنّ بشراً آخر مات واقفاً لهوى أرضاً من فوره، ولبدأت ميكروبات جسده وبيئته بفعلها الآكل ولفاحت رائحة الجسد المنتنة !!!

ولا غرابة في ذلك ولا بما بما هو أشد ، وقد أتى الماء على قبور شهداء أُحُد قرب المدينة المنورة، فكُشِفَ بقاء أجسادهم فكانت كما يوم استشهدوا، وكان قد مضى عليهم تسع وأربعون سنة. وما تغيّر فيهم شيئ سوى رائحة المسك التي فاضت منهم!!!. فأمر معاوية t - وقد وقع ذلك في أيامه -، بنقلهم إلى حيث هم اليوم، بحضور أبنائهم أو أهلهم إن وجدوا. وكم من شهيد مكرَّم عند ربّه، وفي أماكن مختلفة من بلدان العالم، على مرِّ الزمن، كُشف قبره فكان على حاله التي دُفِن عليها، وعلى ذلك شواهد عديدة[1] .وليس ذلك بكثير، والأمر أمر

---

(١) ذكر الحافظ **ابن كثير** في كتابه البداية والنهاية قال: في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن قتلى أحد حُملوا من مكانهم فنادى منادي رسول الله r : أن ردوا القتلى إلى مضاجعهم، وروى **البيهقي** عن جابر بن عبد الله قال: لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استُصرِخنا إليهم فأتيناهم فأخرجناهم، فأصابت المسحاة قدم حمزة [ابن عبد المطلب عم الرسول r]فانبعث دما وفي رواية ابن إسحاق عن جابر قال: فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس. وذكر **الواقدي** أن معاوية t لما أراد أن يجري العين نادى مناديه من كان له قتيل بأحد فليشهد، قال جابر: فحفرنا عنهم فوجدت أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه فأزيلت عنه فانبعث جرحه دما، ويقال إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك y أجمعين، وذلك بعد ٤٦ سنة من يوم دفنوا. اقرأ (عبد الله عزام)، في كتابه كرامات الشهداء في جهاد الأفغان، إصدار المجتمع/جدة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥. ومنها ما رواه عن قائد عسكري في منطقة بكتيا في أفغانستان واسمه عمر حنيف قال: (لم أر شهيداً واحداً متغير

الله تبارك وتعالى بأن يأمر سبحانه مختلف أجهزة الجسد، بما فيها كتلة الميكروبات، بالتوقف عند النقطة التي وصلت إليها في أجساد الأنبياء والشهداء وحفظة القرآن المرضي عنهم، عند لحظة الموت أو الاستشهاد، أو يأمر سبحانه بتعطيل خواصها، وبذلك يبقى الجسد كما كان عليه لحظة استشهاده حياً لا يمسه السوء ولا البلى ...أو ما أشبه مما هو في علم الله الذي وسع كل شيء.

عُزَيْر وأصحاب الكهف يؤكدان الاستثناء

وكما كان للأنبياء والشهداء ميزات لافتة، حتى بعد وفاتهم، كذلك ثمة أحداث كبرى وقعت تحدَّثَ عنها القرآن الكريم، وكشفت لوناً آخر من السنن المقررة لجميع الخلق إلا من استثناه الله سبحانه وتعالى، فخصه بما تجاوز تلك السنن أو بما خالفها. ومن تلك الأحداث: أصحاب الكهف الذين ضرب الله عليهم النوم سحابة ٣٠٩ سنوات (والله أعلم كم لبثوا)، ولما أفاقوا ظنوا أنهم باتوا يوماً أو بعض يوم. وقد مكَّن الله سبحانه أجسادهم لتحتفظ بحيويتها فتبقى كما هي فقال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ الكهف.

وواقعة أخرى جرت لعُزَيْر u ورد ذكرها في سورة البقرة ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ وهذان الحدثان، المعجزتان يشيران إلى تقريب المعنى، فيما قدمناه، من الاستثناء على فناء الأجساد بعد الموت.

الجراثيم في الجسد

تساعد الإنسان على الحياة وتأكله عند الممات

قد تأتي مقولة البعض هنا اعتراضاً، أو استيضاحاً: لماذا معاملة الجسد ـ جسد الإنسان العادي ـ بهذه الطريقة القاسية، وهو مكرم من ربه في الدنيا، وقد

الجسم أو منتن الرائحة، ولم أر شهيداً واحداً نهشته الكلاب، رغم أنها نهشت قتلى السوفييت. ولقد كشفت عن ١٢ قبرا بنفسي بعد سنتين أو ثلاث ولم أجد واحداً متغير الرائحة وكان أحد المجاهدين عاشقاً للجهاد واسمه عمر يعقوب، استشهد وكان يحتضن الرشاش، فحاولنا أخذه منه فلم نستطع. وقفنا برهة نتدبر الأمر ثم خاطبناه: أبا يعقوب نحن إخوانك فإذا به يفك الرشاش لنا)!!. فتأمل.

حرم العدوان عليه وتوعدّ فاعله بالعقاب الأليم؟ أفيكون بعد موته طعمة لمليارات الميكروبات والدويبات؟ والجواب بسيط: لو أنّ الجسد لم يتآكل لتعذّر التدافن، وربما العيش أيضاً لأن الأرض كلها تصبح قبوراً، ولامتنع على الإنسان الحي أن يسكن الأرض. ولئن سلط الله سبحانه الميكروبات والحشرات على جسد الميت، فإنه سلط عليها الموت فور الانتهاء من المهمة الشاقة تلك، فيغدوان معاً الآكِلَة والمأكول إلى طريق الفناء والتحلل!!! ثم ان ذلك التسلط والافناء هو الطريقة الأسلم لتحلل طبيعي دون تدخل من بشر آخرين. فالأحياء الدقيقة في جسد الإنسان الحي، على جلده وفي أمعائه، تبلغ ملايين المليارات[1]. وهي لا تموت بموته، بل تجد نفسها أمام ساحة مكشوفة، تغزو وتهاجم دون مدافع ولا ممانع، فقد كانت تلك الساحة من قبل محكومة بجهاز المناعة، وهو جهاز يمثله ملايين الملايين من كريّات الدم البيضاء، الحراس الأمناء، ضد كل ميكروب وافد. لكن بعد أن مات صاحب الجسد مات معه جهاز دفاعه فأصبح الجسد ساحة مميزة للبكتيريا الضارة وغيرها من اليرقات، وهي إذ تقوم بمهمتها لا تدري أنّ غذاءها من جسد صاحبها سيمنحها حجماً هو عشرة أضعاف حجمها الحقيقي. كما قدمنا ـ مما يجعلها تنتهي هي أيضاً بالموت المحتوم إلى جانبه أو فوقه وفي حيز واحد.

وهناك معنى آخر، وهو أن الإنسان الذي يزهو بصورته ويُعجب بجماله أو جمال آخرين، مع ما للجمال من أثر، والله جميل يحب الجمال، إلا أن هذا الجسد الحي يضم ملايين الملايين من الميكروبات النافعة والضارة بتوازن مدهش، تعينه على حياته، وبموته تحوّله إلى مائدة شهية. بينما هي في الحقيقة تقوم بمستلزمات إفناء سائر أجزاء جسده لتفنى بعده، ما عدا العظام التي تواجه التفتت عبر زمن مقدر.

❖ ❖ ❖

(١) يقول العلماء: إن الميكروبات التي تعيش على جلد الإنسان تبلغ ما بين ١ ـ ٥ مليون في سم٢ الواحد، وإن كل غرام واحد من فضلاته يضم أكثر من مائة ألف مليون جرثومة، وفي اللعاب أكثر من مائة مليون جرثومة لكل ملم٣.

الفصل الثالث عشر:

التعزية سنّة ومشاركة

شرع الإسلام تعزية المصاب بفقد الحبيب والعزيز، وحثّ عليها. فقد روي عن النبي r أنه قال: "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلاّ كَسَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه ابن ماجه في سننه عن محمد بن عمرو بن حزم t .

والعزاء لغة: الصبر، والتعزية التصبير بذكر ما يُسلّي المصابَ، ويخفف حزنه، ويهون عليه مصيبته. فهي إذاً التقوية على تحمل المصيبة، ومن خلال الحضّ عليها تتضح معاني الأخوة في الله، وتتجلى في أبهى صورها. فالمحزون ليس وحيداً أسير حزنه وألمه، بل ثمة أحبة وأصدقاء وإخوة متحلقون حوله، يُذكّرونه بالأجر العظيم جزاء صبره، داعين الله تبارك وتعالى بإعظام الأجر له والرحمة لفقيده. وكم من محزون سمع حديثاً عن المصطفى r وقت مصابه، فإذا بنار حزنه تخمد، وإذا بقلبه يطمئن، وإذا بروحه تفيض رضاً بقضاء الله. فلا عجب بعد ذلك أن يكون للمعزي مثل أجر المصاب، ففي الخبر (من عزّى مصاباً فله مثل أجره) فضلاً عن حلل الكرامة يكسوها له الله يوم القيامة!!!

والصبرُ مثلُ اسمهِ مُرٌّ مذاقتُهُ لكنَّ عواقبَهُ أحلى من العسلِ

وحسب عواقبه أنّ الله سبحانه تعهد للصابرين بأجر عظيم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ الزمر. لكن على المعزِّي أنْ يختار ما يتناسب مع الموقف، فيتخير الألفاظ ويهون المصيبة، لا أن يهيج المُعزى والمصاب، حتى ولو كانت تلاواته قرآنية واستشهاداته بأحاديث نبوية، أو ما هو مأثور من أقوال الصحابة

والعلماء والشعراء. وقد رُوي أنه (لما خرج الناس لدفن عقيل بن علي بن عقيل، ابن أحد الفقهاء الحنابلة، وكان هذا الولد طالب علم جيداً، قام رجل وصاح بأعلى صوته: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ يوسف. فزجره والد الميت ابن عقيل رحمه الله، وقال: القرآن نزل لتسكين الأحزان، لا لتهييج الأحزان، وكلامك هذا يهيج الأحزان)[1].

ويُعزَّى أهلُ المصيبة كبارُهم وصغارُهم، ذكورُهم وإناثُهم، إلا الشابة من النساء فيعزينها النساء ومحارمها.

والتعزية. كما قال العلماء. تُؤدّى بأي لفظ يُخفف المصيبة، ويحْمِل على الصبر والسلوان، والأفضل الاقتصار على الوارد في السنة، ومنه ما أرسل به النبي r إلى ابنته التي يحتضر ولدها فقال: (إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَمُرْهَا أنْ تصبر وتَحْتَسِبْ) متفق عليه. وعزَّى النبي r رجلاً فقال: (رحمك الله وآجرك)، كما روي عن أحد الصحابة أنّه قال: (أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ورحم الله ميتك).

ويجيب المعزَّى بـ (رحمكَ الله وآجرك) أو(يرحمك الله ويأجرك) أو أن يقول (آجرك الله). وليس على المعزَّى حرج ولا تعيين، فله أن يرد بما شاء من الألفاظ، كأن يقول:(جزاك الله خيراً)، أو (أعظم الله أجركم)، أو(استجاب الله دعاءكم)، أو (شكر الله سعيكم) وغيرها مما يشعر أنه تقبَّل التعازي والمواساة. فعن ابن قدامة ـ رحمه الله ـ تعالى، أنه يمكن أن يقول المعزَّى:(استجاب الله دعاك، ورحمنا وإياك).

وإذا كان المُعزَّى غير مسلم عزَّاه المسلم بقوله (أخلفَ الله عليك).

---

(١) من كتاب أحكام الجنائز، مرجع مذكور، ص ٨٢.

أما **المصافحة** فليست سنة في التعزية ولا التقبيل أيضاً، وإنما المصافحة عند الملاقاة، فإذا لاقيت المصاب وسلمت عليه وصافحته فهذه سنة من أجل الملاقاة لا من أجل التعزية.

وعزَّى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب t **الأشعثَ بن قيس**[1] في ابنه فقال: (إن تحزنْ فقد استحقت منكم الرّحِم، وإن تصبر ففي الله خلفٌ من ابنِك، إنك إن صَبَرتَ جرى عليك القدرُ وأنتَ مأجور، وإنْ جزعتَ جرى عليك وأنت مأثوم (**كنز العمال**).

وكان عمر بن عبد العزيز وقد عُزّيَ في ابنه عبد الملك فقال: "إن الموت مرقدٌ كُنّا وطَّنا أنفُسَنا عليه، فلما وقع لم نسْتَكرهْه" **رواه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن المبارك**[2] t .

---

(١) **الأشعث بن قيس** بن كندة لأنه كند أباه النعمة أي كفره، وكان أبداً أشعث الرأس فغلب عليه، له صحبة ورواية، وأصيبت عينه يوم اليرموك، عن أبي وائل قال لنا الأشعث : فيّ نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ **آل عمران**، وعن إبراهيم النخعي قال ارتد الأشعث في ناس من كندة فحوصر وأخذ بالأمان فأخذ الأمان لسبعين ولم يأخذ لنفسه فأتى به الصديق فقال إنا قاتلوك لا أمان لك فقال تمن عليّ وأسلم قال ففعل وزوجه أخته فروة بنت أبي قحافة رواه أبو عبيد في الأموال. توفي سنة أربعين وزاد بعضهم بعد علي t بأربعين ليلة ودفن في داره وقيل عاش ثلاثاً وستين سنة وقال محمد بن سعد مات بالكوفة والحسن بها.

(٢) **عبد الله بن المبارك** عالم وإمام مجاهد مجتهد في شتى العلوم الدينية والدنيوية.له عدة مؤلفات منها كتاب الزهد. ولد في عام ١١٨ للهجرة في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وكانت أمه خوارزمية فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومئة وأخذ عن بقايا التابعين وأكثر من الترحال والتطواف إلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة والإنفاق على الإخوان وتجهيزهم معه إلى الحج، وعاش إلى سنة ١٨١ هـ حيث توفي في خلافة هارون الرشيد في مدينة هيت بمحافظة الأنبار بغرب العراق وقبره معلوم وقد شيد الناس على قبره مقاماً وجامعاً مع أنه t ضد المقامات على القبور!. وقد فجر مجهولون قبره ومقامه سنة ٢٠٠٥ إلا أنّ الأهالي أعادوا بناءه لمكانته في قلوب الهيتاويين والأنباريين عموماً!. من أقواله وحكمه: (الدنيا سجن المؤمن، وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط). وسئل عن قول لقمان لابنه: (إن كان الكلام من فضة فإن الصمت ذهب)، فقال: (معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب)!! وكان المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه؟.

وقال العلامة **ابن العثيمين**[1]: (من أصيب فَعَزِّهِ، ومن لم يُصَبْ فلا)، وضرب مثلا في ذلك فقال: (إذا قدّرنا أنّ هناك ولداً شريراً قد آذى أباه، ثم مات، فإذا بوجه أبيه تبرق أساريره، ويقول: الحمد لله الذي أراحنا منه، فهذا **لا يُعزّى)**، قال العلماء: إذا أصيب الإنسان ونسي مصيبته لطول الزمن، فإننا **لا نعزيه**؛ لأننا إذا عزيناه بعد طول الزمن، فهذا يعني أننا جددنا عليه المصيبة والحزن).

كما أنّه لا بأس **بتعزية أهل الفقيد، وإن كان عاصياً بانتحار** أو غيره، كما ذكر العلامة الشيخ ابن باز رحمه الله في فتاويه، وتُستحبُّ لأسرة مَنْ قُتِل قِصاصاً، أو حدّاً، كالزاني المحْصَن. وهكذا من شرب المسكر حتى مات بسبب ذلك، لا مانع من تعزية أهله فيه، ولا مانع من الدعاء له ولأمثاله من العصاة بالمغفرة والرحمة، ويغسل ويصلى عليه، لكن لا يصلي عليه أعيان المسلمين مثل السلطان والقاضي ونحو ذلك، بل يصلي عليه بعض الناس من باب الزجر عن عمله السيء. أما من مات بعدوان غيره عليه فهذا مظلوم، يصلى عليه ويدعى له إذا كان مسلماً)[2].

ولا بأس في **اصطفاف أهل الميت** قرب قبره لتلقي تعازي الناس بعد دفنه مباشرة.

ومدة التعزية ثلاثة أيام بعد الدفن على التقريب لا التحديد، وتكره بعد الثلاثة على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، إلا المرأة فإنها تحد على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام. أما إذا كان المعَزِّي أو المعَزَّى مسافراً وحضر فلا مانع عندئذ من التعزية. والله أعلم.

---

(١) أحكام الجنائز مرجع مذكور، ص ٣٦٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن باز رحمه الله برقم ١٢٥٣٠ .

وفي صدر الإسلام كان لا يُجلس للتعزية، إلاّ أنّ بعض فقهاء الأحناف قالوا: (**إنّه لا بأس بالجلوس في غير المسجد ثلاثة أيام للتعزية**، شرط عدم ارتكاب محظور كشرب الدخان، أو عدم الإنصات إلى القرآن إذا ما تلي، أو المكوث حتى يقدم لهم الطعام من أهل الميت، أو كما ذكر الحنابلة (أن يجلس إلى أهل الميت مَنْ عزى مرة، أو يستديم المعزي الجلوس زيادة كثيرة على قدر التعزية) وفي هذا نظر، فهي عادات تتعارض مع مفهوم التعزية وما شُرعت له. **أما إرهاق أهل الميت بإطعام المعزِّين فهو من مكروهات التعزية**، فحسب هؤلاء ما نزل بهم، فلا يصح أن يُشغلوا بتقديم الواجبات للمعزِّين منعاً للإحراج والغلبة، وعكسه ما سنّه النبي r أن يُقدَّم لأهل الميت الطعام، لا أن يقدِّموا هم الطعام لسائر المعزين. فقد جاء أهل الميت ما يشغلهم كما قال النبي r (اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم). وقد اعتبر الفقهاء قيام أهل الميت بالإطعام مكروهاً (كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت بعد دفنه من النياحة) والنياحة منهي عنها[1].

(١) استقرت العادة في زماننا أواخر القرن العشرين، وفي هذا القرن الـ ٢١ ،على جلوس أهل الميت في قاعات عامة معدة لاستقبال الناس، حيث يغدون إليهم في القاعة المعلن عنها ليومين في الثاني والثالث، وفي وقت ما بين العصر والمغرب. وقد يكون هناك أكثر من ميت، فيجلس أهل كل ميت في قاعة من قاعات البلد، وهي بصورة عامة موزعة على مناطق مختلفة في البلدة الواحدة تبعاً لاتساعها، وقد كانت التعزية سابقاً تؤدَّى في بيت الميت، أو في بيت أحد أهله أو جيرانه، غير أنّ ضيق البيوت وارتفاع البنيان وصعوبة الوصول إلى المبنى المقصود أدى ذلك كله إلى اتخاذ القاعات وقبلها الناس واستقرت عادتها. ولا شيء في ذلك بإذن الله. لكن ما نشير إليه إلى أن الجلوس إلى التعزية لتقبلها من المعزّين أدى بصورة فعلية إلى انصراف الناس عن حضور الجنازة والصلاة عليها إلا من أدرك لزومية حضورها، مقتنعاً بتأدية العزاء في أحد يوميه الثاني أو الثالث كما أن الناس حاضري الجنازة يعزون أهل الميت بعد الدفن في المقبرة وهو السنة الصحيحة، غير أنهم يعودون للتعزية مرة ثانية وثالثة، وغدا ذلك عادة إذ إن أهل الميت ينتظرون حضور المعزين إليهم حيث هم ويغتبطون إذ حضر المعزي مرة ثانية وثالثة في الأيام الثلاثة ويعتبرون ذلك من الحب والاحترام مع أن هذا خلاف السنة، من جهة أخرى، تستقر عادة إطعام الطعام بعد الدفن وفي يومي الثاني والثالث في البيوت أو في مطاعم كبيرة يحضرها أهل الميت وأصدقاء الأهل وأصحابهم وأصبح هذا جزءاً من أعمال العزاء وواجباته.

وليست المشكلة في الجلوس لتقبُّل التعازي، فذلك أمر فيه تيسير على المعزِّي والمعزَّى، لكنها تثور عندما يجتمع الناس في أيام أخرى، **كالأسبوع والأربعين**[1] والسنوية، ليدعوا للميت، فيجددوا التعازي، أو يعقدوا ما يسمى بالختمة، وهي قراءة أجزاء القرآن فتكتمل من مجموعهم، وقد صدر عن اللجنة الدائمة للفتوى في المملكة العربية السعودية أنّه: (لا نعلم دليلاً لا من الكتاب ولا من السنة يدل على مشروعية قراءة أي سورة من سور القرآن في مكان ما أو في سكن الميت. ولا نعلم أحداً من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين نُقل عنه ذلك. والأصل منعه لقول النبي r : (مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) **متفق عليه**، أما الاجتماع والدعاء له فإنّ الدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف، ولم يثبت عن النبي r أنه دعا لصحابته على جنازة ما، بعد الفراغ من الصلاة. والثابت عنه أنّه كان يقف عند القبر، بعد أن يُسوّى على صاحبه، ويقول "استغفروا لأخيكم فإنه الآن يُسأل". ومما تقدم يُعلم أنّ الصواب عدم الدعاء بصفة جماعية بعد صلاة الميت وأن ذلك بدعة).

وعقّب **الشيخ ابن باز** رحمه الله على الفتوى بقوله: (فادعوا لميتكم كلٌّ واحد منكم بمفرده، ولا بأس بالدعاء له في الصلاة وخارج الصلاة في أوقات الإجابة، كثلث الليل الأخير، وآخر ساعة من عصر يوم الجمعة، وبين الأذان والإقامة وغيرها، وأخلصوا له في الدعاء، وعندما يكون الدعاء بينكم وبين الله تشعرون بخشوع فيه وإخلاص لا تجدونه في أدعية المجاملات التي يفعلها الناس جماعياً أمام أهل الميت).

ثم إن العلاّمة ابن باز، رحمه الله، في الفتوى رقم ١٢٥٥٢، قال: (وأما مجرد الثناء على الميت عند ذكره أو مرور جنازته أو للتعريف به بذكر أعماله الجليلة ونحو ذلك مما يشبه رثاء بعض الصحابة لقتلى أحد وغيرهم فجائز).

---

(١) ذكر العلامة ابن باز رحمه الله في فتاويه أن ذكرى الأربعينية عادة فرعونية.

غير أنّ هذه الفتوى، على ما نحسب، عامة في كل ما أخذ شكل العادة فتصبح متبعة عند الناس، كأن يجمع أهل من مات لهم عزيز وأصحابهم في موعد محدد، بعد مرور أربعين يوماً، فيقرأون عن روحه القرآن، ويذكرون الله سبحانه، ويصلون على النبي r وآله، وينشدون ويمدحون، وربما تحدَّث أحدهم مذكِّراً بمزايا الميت وهول الموت، يبتغي من ذلك حض الناس على العودة إلى الله والمزيد من التمسك بأحكامه .

أما إذا ما اجتمع القوم في وقت غير معتاد أو في مناسبة ما، فذكروا الميت، وأثنوا عليه، ودعوا له، وأخذوا من موته الصبر، فنظن أنّ ذلك ليس بمكروه ولا بدعة. **وهذا رسول الله r كان يذكر أقواماً ماتوا، فإذا به يغتنمها فرصة لنصح وتذكير أصحابه،أو الدعاء لأولئك الموتى**، حتى إنه قبل وفاته r بأيام قليلة خرج على الناس وصلى وخطب بهم، وذكر أهل أحُد وشهداءه، فدعا واستغفر لهم، وذكر من أمرهم ما ذكر، ثم أوصى المهاجرين بالأنصار وعاد إلى بيته ليشتد عليه مرضُه حتى غمر. وفق رواية ابن اسحاق، كما رأينا، في فصل الاحتضار، والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع عشر:

الصبر عند مصيبة الموت

بعد الحشرجة، سواء كانت بعد مرض أو فجاءة، يكون الموت الكامل، وانقطاع علاقة الميت بالحياة الدنيا، وتسقط معه كل حقوقه كإنسان في الدنيا، وتنشأ له حقوق جديدة بكونه ميتاً، وتنتقل حقوقه الخاصة إلى ورثته، كما تنتقل سائر متعلقات ذمته...

وطبيعي بعد تأكد النهاية، أن تتفاعل أجواء الحزن عند أهله ومَنْ حوله، وقد يكون الانفعال شديداً بالبكاء أو الصراخ المنهيّ عنه.

دخل رسول الله r على **أبي سلمة**[1]، وقد شُقَّ بصره [أي جمد] فأغمضه ثم قال: "إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ"[2] فَقَالَ: "لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ" ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ افْسَحْ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ" **رواه الإمام أحمد في مسنده.**

---

(١) **أبو سَلَمَةَ** أخو رسول الله r من الرضاعة، وهو أول من هَاجَرَ إلى الحَبَشَةِ ثم عاد منها ودخل مكة بجوار أبي طالب، ثُمَّ هَاجَرَ إلى المدِيْنَةِ، وَشَهِدَ بَدْراً وجُرِحَ بأحُد وأقام شهراً يداوي جرحه وخرج بسرية إلى بني أسد، وَلَهُ أَوْلاَدٌ منهم صَحَابَةٌ: كَعُمَرَ، وَزَيْنَب وسلمة وعمر ودرة وزينب. وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَوْجَتِهِ أم سَلَمَةَ، تَزَوَّجَ بِهَا النَّبِيُّ r ورَوَتْ عَنْ زَوْجِهَا أبي سَلَمَةَ القَوْلَ عِنْدَ المصِيْبَةِ (إِذَا أَصَابَتْ أَحَدَكُمْ مُصِيْبَةٌ، فَلْيَقُلْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُوْنَ، اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيْبَتِي، فَأْجُرْنِي فِيْهَا، وَأَبْدِلْنِي خَيْراً مِنْهَا). وَكَانَتْ تَقُوْلُ: (مَنْ خَيْرٌ مِنْ أبي سَلَمَةَ؟)، وَمَا ظَنَّتْ أَنَّ اللهَ يُخْلِفُهَا فِي مُصَابِهَا بِهِ بِنَظِيْرٍ له، فَلَمَّا فُتِحَ عَلَيْهَا بِسَيِّدِ البَشَرِ، اغْتَبَطَتْ أَيَّمَا اغْتِبَاطٍ. توفي t كَهْلاً، فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ أو أربع للهِجْرَةِ.

(٢) فضجّ ناس من أهله [أي بعد أن أعلمهم النبي r بموت أبي سلمة، ويبدو أنّ بعض الحاضرين راح يدعو على نفسه تحسراً على أبي سلمة وهو ما يتلفظ به بعض الحزانى عادة في مثل هذه المواقف الحرجة].

وعلى هذا، فلا يملك أحدٌ للميت شيئاً إلا الدعاء، وهو حق له علينا، فالموت حق، وعلينا تقبله بمزيد من التسليم لأمر الخالق العليم؛ والتسليم هذا لا يعني أن الفراق ليس بصعب وشديد وقاسٍ على الأحبة، وإنما هو تقدير عال للحزن على فقد من مات، إلا أنّ الإيمان بأنَّ نفساً لن تموت حتى تَستكمل أجَلَها ورزقها، وأنّها تنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، وأنّ بعد الفراق لقاءً لا فراقَ بعده، وأنّ الميت سبق أحبته وسيلقاهم، وأنّه إنما لبى دعوة ربه، وما كان له أن لا يقبلها ولا يستطيع. ومن كان حوله وإن بكاه، فعليه ضبط حركة البكاء، والعودة إلى مرافق الإيمان والتسليم، مهما كان الجرح غائراً وموجعاً؛ فتلك المعاني تضعه في منهل الصبر، وحسب الصابر أنّ الله يحبه ويبشره ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ البقرة. وفي حديث عَنْ **أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ t** رواه البخاري قَالَ: "مَرَّ النَّبِيُّ **r** بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي. قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِيُّ **r** . فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ **r** ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى".

ولمثل هذه الساعة الصعبة، **علَّمنا الإسلام الحنيف آداباً في الحزن**، فللعين والقلب أن يبكيا، وبكاؤهما حالة طبيعية بامتياز، لكن على صاحبهما الباكي أن يلتزم الانضباط بالحدود، فلا شدّ للشعر ولا تمزيق للثياب، ولا لطم للخدود ولا ضرب للأجساد، ولا ارتماء على الأرض أو تمريغ الوجوه...، بل صبر واصطبار ونزول عند حكم مالك الجسد والروح، فمن أعطى حُقَّ له أن يأخذ، وقد أخذ، وعلينا أن نقبل بردِّ الوديعة، لكوننا لا نملك شيئاً لمنعها، فقد عجز الأطباء، وحار العلماء منذ أن كان الإنسان والمخلوقات عن حجب الموت، فلا مال ولا جاه ولا ولد ولا سلطان ولا فداء مهما كان، كل ذلك ولو بُذل، ما منع موتاً أو أخّره، ولا أعاد ميتاً و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۝١٨٥﴾ **آل عمران**. و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ **الرعد**.

أما لو صبرنا، ووضعنا جَزَعَنا في دائرته الإيمانية الإنسانية على ما ابتلانا به الله عز وجل، وهو حق، لَنِلْنَا الرضا والرضوان أمام هول الفجيعة، وما أعظمهما! بل لعلهما يكبحان جماح النفس، فيذكّرانها بالارتباط العميق بالعلي القدير، ويفتحان لها نوافذ عريضة تدلُّها على النهاية التي سنؤول إليها يوماً ما في الزمن الآتي!! **وهناك قد نلقى الأحبة المفارقين قبلنا كما نلتقي من يموت بعدنا!!**

وصدق الله القائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البقرة. وروى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب **t** قال: (نِعْمَ الْعِدْلانِ وَنِعْمَ الْعِلاوَةُ). والعدلان المثلان، فالصلوات عِدْل، والرحمة عِدْل، والعلاوة هي من الزيادة في الخير ثواباً). أما قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ففيه ملاذ وهداية. وقال **علقمة بن عبد الله** في الآية: (هو الذي أصابته مصيبة فرضِيَ، وعرف أنّها من الله)، . فصبر والتزم بسُنَّة المصطفى **r** .

.فما أجمله من قول تتفاعل فيه الرحمة، لتصل إلى عمق المضامين، وإلى قمم المفاهيم الربانية الخالدة!. فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ ترجمةٌ مناسبة رائدة في وقت صعب وشديد، وفي قولها هداية وهدية من الله لأهل الميت وإخوانه، وتوفيق باتباع سبيل الله في مصيبة الموت إذ حلَّت، وبترديدها يشعُّ الإيمان من جديد، وينطلق التسليم لله سبحانه، وبذلك يكون الله **U** قد استجاب لنا لما نطلبه منه دوماً في فاتحة كتابه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾. وصراط الله المستقيم عند المصيبة، ومنها الموت، التسليم والصبر. ثم إنه سبحانه جامِعُنا يومَ الدين، وهو اليوم الذي ينقلب فيه المؤمنون بعضهم إلى بعض ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ **الانشقاق**، فيعود الأهل والأحباب للقاء من جديد، يرفلون بسعادة عظيمة ونعيم أبدي. وما ذلك إلا للمؤمن الذي يُوفَّى أجره بغير حساب، بينما غير المؤمن، فلعله في دنياه ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ **الإنشقاق**. والسرور هنا معناه، أنّه كان

في أهله غافلاً لاهياً، لا يفكر في العواقب، ولم يكن يبالي بالآخرة، لذلك لن ينقلب إليهم إنْ كانوا مؤمنين، وإن كانوا غير ذلك فهو وهُم جميعهم في العذاب المقيم. وهكذا علينا أن نصبر، وأن نلوذ بحمى الله، وأن نحمده وندعوه؛ فهو الربُّ البَرُّ الرحيم سبحانه.

لكن ما قدمناه قد يصعب على صنف من البشر الالتزام الكامل به، وهن النساء وقد عُرفن بالنوح ومظاهر الجزع المختلفة. فمن المعروف أنّ النساء أشد جزعاً وأقل صبراً، وأكثر ارتكاباً للمنهيات المتعلقة بأحكام الموت. بيد أنّه إذا ما وجدت بينهن امرأة فقيهة متزنة أو رجل شديد، وذكّرهنّ بكراهية ما يفعلن ودعاهن للحوقلة والاسترجاع، تجدهن يتجاوبن مع ما ذُكّرن به، ويدركن أنَّ الله سبحانه هو الذي قدَّر وهو الذي أخذ وهو المالك لكل شيء.

ومع ذلك فإنّ المرأة تبقى أشدّ عاطفةً من الرجل وأكثر انفعالاً، وأقرب إلى الدموع وألصق بالحديث المختلط بالبكاء، فذاك من طبعهن، خاصة إن كان الميت عزيزاً عليهن.

وإذا كان هذا في النساء عامة، فكيف إن كانت المحزونة في مقتبل العمر، وقد فقدت عزيزاً مؤثّراً في حياتها، أو تذكرت عزيزاً فقدته، أو أرادت أن تتضامن مع قريبة لها محزونة؟ لا ريب أنّ قدرتها كأنثى، أشد في النياحة حتى دون رياء ولا تصنع. فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تحدثت وفق إحدى الروايات المأثورة عنها في لحظة وفاة رسول الله r، والذي كان رأسه في حجرها، فنجدها تتصرف بشكل يتنافى وتعاليم النبي r، فتلتدم مع النساء وتضرب وجهها حزناً عليه. واللافت في الرواية أنها، وهي تذكر الحادثة الأليمة، تؤكد أنّ ما فعلته كان بسبب صغر سنها و"سفهها". فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن **عائشة** رضي الله عنها: (ماتَ رَسُولُ اللَّهِ r فِي بَيْتِي وَيَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي) وفي رواية أخرى عن **عبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ** قال: (سمعت عائشة رضي الله عنها تقُولُ: مَاتَ رَسُول اللَّهِ r بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي وَفِي دَوْلَتِي، لَمْ أَظْلِمْ

فِيهِ أَحَدًا ، فَمِنْ سَفَهِي وَحَدَاثَةِ سِنِّي أَنَّ رَسُول اللَّهِ r قُبِضَ وَهُوَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ وَضَعْتُ رَأْسَهُ عَلَى وِسَادَةٍ، وَقُمْتُ أَلْتَدِمُ مَعَ النِّسَاءِ وَأَضْرِبُ وَجْهِي) **مسند الصحابة في الكتب التسعة. وقال شعيب الأرناؤوط:حديث حسن.**

إنّ لساعة الموت ثقلها الواضح على أهل الميت وإخوانه وأصدقائه، وقد يتصرف بعضهم بشكل عفوي ومؤثر، خاصة عند الشباب والشابات واليافعين، في مناسبة موت والد أو والدة أو زوج أو ولد أو أخ أو أخت، حتى غدت تلك الانفعالات أمراً مبرراً اجتماعياً، وإن كانت مخالفة للمفهوم الشرعي، خاصةً إذا رافقت الحزنَ مظاهرُ الصراخ الشديد والصياح العنيف، وضرب الوجه وتمزيق الثياب، وهو ما يعرف بحالات النياحة الشديدة. وقد يصدر ذلك أو بعضه من بعض النساء وإن كنّ ملتزمات دينياً، ومدركات لمخالفة أفعالهن للشريعة الغراء!!!.

ولا يُفهم فعل السيدة عائشة رضي الله عنها، وما أوردته فيما روته تبريرها اللطم والنياحة، بل العكس هو الصحيح، فهي عَزَتْ فعلَها إلى تصرف غير واعٍ منها، وقد عاشت لحظات وفاة النبي، فكأنها أرادت أن تطلب من بنات جنسها، عبر الزمان والمكان، وجوب الانتباه لئلا يقودهن سفَهٌ أو صغرُ سن إلى مخالفة نهي النبي r ، بل عليهن الالتزام وضبط النفس، وأنْ يكون هواهنّ تبعاً لما جاء به القرآن والسنَّة.

كما أن في حديث رسول الله، عندما زار البقيع ووجد امرأة عند أحد القبور تبكي، وهو ما اطلعنا عليه آنفاً، ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنّ المرأة عموماً تتمتع بعاطفة الحزن أضعاف ما عند الرجال؛ والرسول r نهى المرأة لكنها رفضت مقولته، فلما أدركت أنه النبي الكريم عرفت حجم خطئها مرتين : مرة في بكائها الشديد عند القبر، ومرة أخرى لعدم التزامها نهي النبيّ r .

وفي **ثواب الصبر** على المصيبة ما يهوِّنها على المصاب، لقوله r (مَا أَصَابَ الْمُسْلِمَ مِنْ مَرَضٍ وَلا وَصَبٍ وَلا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمَّ يُهِمُّهُ إِلاَّ يُكَفِّرُ اللَّهُ U عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ). وقال r :"عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ اللَّهَ وَصَبَرَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ حَتَّى يُؤْجَرَ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إلى فِيِّ امْرَأَتِهِ" رواهما الإمام أحمد في مسنده. فكيف بالمصيبة العظمى مصيبة الموت؟ لا شك، أنّ للمصاب أجرَ الصبر، وهو أجر كبير، حسبه فضلاً وقدراً قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ الزمر. ويكفيه عنواناً تفوح منه رائحة الجنة، والمثال على ذلك قول النبي r عن ربه في الحديث القدسي: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَا مَلَكَ الْمَوْتِ قَبَضْتَ وَلَدَ عَبْدِي، قَبَضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا قَالَ؟ قَالَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، قَالَ: ابْنُوا لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ" رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري t . فما أعظمه من أجر، وما أكرم المعطي الوهّاب.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس عشر:

في ذكر الجنة والنار

ما يتميز به القرآن والسنة الشريفة، أنّهما في أكثر المواضع التي تُذكر فيها الجنة، يأتي عقبها ذكر النار، والعكس صحيح. والأمر نفسه يتكرر عند ذكر المؤمنين أهل الجنة، والكافرين أصحاب جهنم. وهو أسلوب متبع في غالب القرآن والسّنَّة. ومن خلال ذلك نستكشف نظرية التقابل في القرآن والحديث، بين الجنة والنار، وهي أسلوب تربوي علمي بديع، يُمكّن المرء من الربط والضبط بين المصيرين النهائيين في الحياة الآخرة. فيسلك المرء بعدها في الدنيا خير المسلكين، ويقود نفسه ومجتمعه إلى حيث الأمان في الدنيا والآخرة[1].

تقريب أحوال الآخرة بمقاييس دنيوية

وتختلف الحياة الآخرة، مضموناً وشكلاً، عن الحياة الدنيا، وقد قرّب الله سبحانه لنا ذلك بالمقاييس اللغوية التي اعتدناها، والتصورات التي ألفْناها. وحتى في هذا، نجد صعوبة في تخيل ما يُوصف لنا من نعيم أو عذاب، فذلك ما لا يتوازى مع ما أدركناه في الدنيا...

ومع أن اللغة العربية وسيلة تعبير دقيقة، بل لعلها أبلغ اللغات من حيث دقة التعبير والتصوير، إلا أنها تبقى دون القدرة على إكمال رسم الصورة بأبعادها وحقائقها لدى مختلف الناس وطبقاتهم، فالكلمة وإن كانت صورة وخيالاً، إلا أنها في القضايا المغيّبة خاصةً، يصعب فيها التصوُّر أو التخيُّل لرؤية صادقة في أمور الغيب في القبر وفي النار والجنة، إلا بالقدر الذي يأذن الله به جل ثناؤه.

والآن تخيلْ، وصفَ أدنى بيتٍ قدْراً وأصغرِه حجماً في الجنة، وهو قصر يُعطى لرجل له في قدميه نور لا يتجاوز ومضات خافتة، وبسبب ضعف نوره تراه

(١) هو مشروع كتاب أرجو أن يوفقني الله لإخراجه إنه سميع مجيب.

يسقط على الصراط حيناً ويقف حيناً. ثم تصوّر - إن استطعت - كيف تكون قصور مَنْ كان نوره قد غمر جسمه كاملاً فمرَّ سريعاً. ثم انتقِلْ إنْ تمكنت، مع تدرّج الخفوت إلى الكتفين فاليدين فالفخذين فالقدمين. ومع تدرج النور هذا، يتدرج صاحبه بالتجاوز على الصراط!! أما ما هذا البيت الصغير الذي يُعطى لصاحب النور الأقل؟ فإننا نجد وصفه العجيب المدهش في حديث النبي r بقوله: (دُرَّة، مُجَوَّفَة سَقَائِفُهَا، وَأَبْوَابُهَا، وَأَغْلاقُهَا، وَمَفَاتِيحُهَا مِنْهَا تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إلى جَوْهَرَةٍ عَلَى غَيْرِ لَوْنِ الأُخْرَى فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرُرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفُ أَدْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرْآتُهُ وَكَبِدُهُ مِرْآتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ عَنْهَا إِعْرَاضَةً ازْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَعْرَضَتْ عَنْهُ إِعْرَاضَةً ازْدَادَ فِي عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا: وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتِ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتَ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، فَيُقَالُ لَهُ: أَشْرِفْ، قَالَ: فَيُشْرِفُ، فَيُقَالُ لَهُ: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ يَنْفُذُهُ بَصَرُهُ) الطبراني في المعجم الكبير وابن أبي شيبة في المصنف، أي المدى الذي يصل إليه بصره، وهو ما يفسح المجال في تخيّل الاتساع العجيب لقصرٍ هو مُلك أدنى مسلم مرتبةً يُدخِلُه الله سبحانه الجنة، فما بالُكَ بالأهم والأكبر من المسلمين والمسلمات!!.

فإذا كان هذا أبسطَ البيوت وما فيها، فكيف يكون للمنعَم عليهم من خَلْقِ الله أعلاها ؟ ذلك ما وصفته آيات قرآنية وأحاديث نبوية كريمة وكثيرة.

❖ ❖

أما عمّا في الجنة فنقول اختصاراً:

في الجنة أنهار من لبن وعسل وماء وخمر، غير أنَّ لبنها لا يتغير طعمه، ولا يخرج من بطون الأنعام كالبقر والغنم والإبل، كما العسل مصفى لا يخرج من بطون النحل، والماء لا يأسن، والخمر لا غول فيها ولا تسكر.. وحصباء أرض

الجنة زبرجد، وترابها ياقوت، وحُورُها عُرُب أتراب مقصورات في الخيام، لم يطمثهن إنس ولا جان، والإنسان هناك لا يبول ولا يتغوط، بل يرشح كرشح المسك، لا زمان يحده، ولا يدب أو يكبر، بل هو في درجة ثابتة عمراً وصورة، أما العمر فهو في سن ثلاث وثلاثين، وأما الصورة ففي أحسنها مطمئن آمن، يُلهَم التسبيح والتهليل والتكبير كما يُلهم النفَس، كل ذلك وسواه يجعل من الجنة خلقاً لا يحده العقل البشري؛ ففيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال الله تعالى عنها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ السجدة. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ الزخرف.

أما عذاب النار فغرام

وعكسُ حال المؤمن حالُ الكافر الشقي، فإنّ له في جهنّم معيشة ضنكاً. فبعد دار البرزخ الشديد حيث عاش عذاباً مستمراً أليماً، ورأى فيها موقعه من النار، الذي سيؤول إليه جزاء كفره وسوء أعماله، فيتخبط محاولاً الخروج فلا يقدر، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ الهمزة .ثم يبقى في العذاب الأليم، فلا موت بعده، وهو الموت الذي كان يكرهه في الدنيا، بات، بعد أن ذاق عذاب جهنم، أمنية تتعلق بها نفسه، ولا يحصل عليها بأية طريقة أو سبيل، فجهنم تحبط أمانيه، وهي مآبه ومصيره ليس له عنها انفكاك ولا مخرج، ولا يموت فيها ولا يحيا، بل هو العذاب الدائم المستمر. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ النبأ. وهكذا تكون له جهنم مصيراً ومآباً ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ الفرقان ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ طه. حتى إنَّه يتمنى، وهو يستعيد شريط حياته في الدنيا، لو لم يُخلق، ولم يتعرف على نعيم الدنيا الذي أنكر فيه المنعِم، ولم يُعِد الفضل إلى صاحبه الأكبر خالقه وخالق النعم، فيعض على شفتيه أنْ فاته القطار، ثم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ النبأ. أي يا ليته بقي تراباً ولم يتحول بالماء

المهين إلى إنسان دبّ على أرض الدنيا، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ الفجر.

وكذا أمر الفاسق أو الظالم أو المنافق في يوم الحساب الصعب والشديد، فيغرق فيه بعرقِه إلى ما فوق رأسه أو دونه إلى كتفيه، أو إلى صدره أو بطنه أو فخذيه أو ركبتيه أو ساقيه أو قدميه، ثم بعد الحساب يُقذف في الجحيم ودركاتها؛ وكلما نضجت جلودهم بدلهم ربهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، ويُسقون ماءً حميماً يقطع أمعاءهم. ولعل أقل الناس عذاباً في جهنم، ذاك الذي توضع أسفل قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه. ففي صحيح البخاري روى **النُّعْمَانِ ابْنِ بَشِيرٍ**[1] عن النبي **r** أنه قَالَ: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ).

ولك أن تتصور، إن استطعت، شدة عذاباتها وما تخلّفه من آلام؛ وحسبها تعريف المؤمنين لها وهم يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ الفرقان، والغرام هنا شدة الحب والوَلَه بالمحبوب؛ فجهنّم مولعة بأهلها، تلازمهم بالحرق وتوابعه من ألوان العذاب، ولا تتركهم أبداً. والأفظع من ذلك كله، أنَّه إذا قيل لها هل امتلأتِ من الكفار والعصاة من الإنس والجنّ؟ أجابت: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ ق، فهي تحبُّهم حباً جماً، ولا تزال تتلمّظ إلى الكثير الكثير منهم؛ فبئس الدار هي وبئس المقام، ذلك كله جزاء "موافق" لمنْ سمع كلام الله، وقد أرسل له الأنبياء فكفر، وسار على غير نهجه الذي أراده للبشر ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ الإسراء. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣﴾ النحل.

---

(١) **أنصاري خزرجي**، يكنى أبا عبد الله. أحد صحابة الرسول، وكان أول مولود ولد في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا فأتت به أمه (أخت عبد الله بن رواحة) تحمله إلى النبي **r**، فبشرها بأنه سيعيش حميدًا، ويقتل شهيدًا، ويدخل الجنة. تمتع بمنزلة كبيرة بين الصحابة، وولاّه معاوية الكوفة وأكرمه، ثم تولى حمص وبعد وفاة يزيد بن معاوية بايع النعمان لابن الزبير فتنكر له أهل حمص، فخرج هارباً فتبعه خالد بن خليّ الكلاعي فقتله سنة خمس وستين للهجرة.

قد تتخيّل حال هؤلاء الذين كفروا ربَّهم، في عذاباتهم التي أُخبروا بها وسَخروا منها، إذا ما قرأت ما رواه أبو هريرة t عن رسول الله r حين قال: "ضِرْسُ الْكَافِرِ أو نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أحد وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ"، ويرفع الحديث أبو هريرة بالقول: "مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ" على رواية الإمام مسلم في صحيحه والعياذ بالله.

ويكفي هذا تصوراً عن جهنم. وجهنم اسمُ عَلَمٍ لجميع دركات النار، وهي بالمرصاد لكل جبّار عنيد، ولكل من كفر بخالقه ومانحه نعمة الحياة، ومع ذلك حدثنا الباري U عنها وعن دركاتها لكيلا يكون للناس بعد ذلك حجة أو عذر: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢﴾ النبأ، وقال عن نارها: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ المعارج. وفي سرادقها ومائها قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ الكهف ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ محمد. ولسُرَادق النار أربعة جُدُر، كل جدار يبعد عن الآخر مسيرة أربعين سنة، كما روى الترمذي عن ابن المبارك، وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة t أنه قال: قال رسول الله r :(ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، ـ أي نار الدنيا تكفي ـ قال: (إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً)، أي إنّ حرّ جهنم ضوعف سبعين مرة.

ولقد زخر القرآن الكريم عموماً بأوصاف جهنم، حتى تكاد تراها عياناً، فتدفعك تلك الأوصاف دفعاً حثيثاً للاستعاذة بالله منها، وسؤاله إبعادك ومن تحب عنها، وتنتهي تلاوتك لتلك الآيات وقلبك لا يزال يرتجف خوفَ أن تكون من أفرادها.

ولنا بعد ذلك أن نتخيّل أيضاً جهنم ونارها واتساعها وسلاسلها وزقومها كيف تكون؟، وما فيها من عذاب مما أخبرنا به العزيز الجبار، رحمة منه بنا، حيث بيّن لنا ما في النار من سموم ولهب، وما فيها من عذابات لا تنتهي، فيبتعد

الخلق عن طريقها ويعبدون الله حق عبادته، بعد أن أدركوا، أو بعد أن أوضح لهم الله الغفار الجبار، أنّ بعد الحياة موتاً، وبعد الموت بعثاً، وبعد البعث حساباً، وبعد الحساب جنة أو ناراً.

وجاء النبي r رحمة مهداة للناس في كل زمان ومكان من بعد بعثته الكريمة، فكان الأحرص على بذل غاية الجهد لمنع الناس من التدافع إلى النار وعذابها "الغرام". فهو r إذ يرى الناس يسيرون إلى النار بعجلة واضحة بسبب أفعالهم وانحرافاتهم الفكرية والعقدية، ويتدافعون إليها، فيسارع هو ليحجزهم ويمنعهم من الوقوع فيها. وتلك حركة رائدة شبهها النبي r بأنه ممسك بثيابهم يشدها عليهم جاذباً لهم دون النار، فيما هم يحاولون التملص منه، ثم التدافع فيها. وقد نقل عمر بن الخطاب t تلك الصورة عن النبي r فيما رواه **ابن أبي شيبة في مصنفه** أنّه قال: "إنّي ممسكٌ بحُجْزكم[1]، هلمّوا عن النار، وتَغْلِبُونني تقاحَمُون[2] فيها تقاحمَ الفراش والجنادب[3]، وأوشكُ أنْ أرسلَ حُجزكم". وفي رواية أخرى عَنْ أبي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r أنه قال: ".. إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَالدَّوَابُّ تَتَقَحَّمُ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَوَاقَعُونَ فِيهَا" رواه الإمام أحمد في مسنده. لكنّ للإمساك نهاية تعبِّر عنها كلمة (أُوشك)، وهي تكشف حركة التفلُّت والتملُّص من جهة، والشدة والتلهُّف لمنع التهافت من جهة أخرى، ولا بد في النهاية من حسم الموقف، فإما أن يؤدي الإمساك إلى الحيلولة دون السقوط، وإما نجاح التفلّت للتقاحم، كما هو شأن الفراش والجنادب أمام النار. وتبقى كلمة (أوشك) في الحديث الشريف أكثر تعبيراً وتحذيراً، وفيها من الإيحاءات ما يجعل حرص النبي r في أبهى صوره وحلله. وتكشف، بصدق،

---

(١) **الحجز:** ج حجزة وهي مجموع الثياب عند الصدر. أو مكان عقد الإزار والسراويل. (٢) **تقاحمون:** تتدافعون وتتقدمون إليها. (٣) **الجنَادِب:** جَمْع جُنْدَب، وهو نوع من الجرَادِ، وقيل هُو الذي يَصِرُّ في الحرّ.

كيف أنّ النبي r بالناس رؤوف رحيم وعليهم حريص، كما أنها تلخص حركة ممانعته r وشدة تحذيره، وعظيم ترغيبه وترهيبه لهم، ووضاءة بيانه وصدق نصائحه، ليكون الناس حقاً وصدقاً عبادَ الرحمن، وبذلك يمنعون أنفسهم من النار خاصة، وهم يدعون ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ الفرقان..غير أنّ كثيراً من الناس يخالفون الطريق السويَّ ويغالبون، فلا يتبعون النهج الذي أمر النبي به وأوصى، فيكونون يومئذ كالفراش المبثوث يتساقطون برؤوسهم في الهاوية، لقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ القارعة.

نسأل اللّهَ سبحانه أن يصرف عنا عذابها، ويبعدنا عنها بهدايته لنا في الدنيا، وبتثبيتنا على الإيمان والعمل الصادق المخلص، ثم بعفوه ورحمته وكرمه، وكان الله عفواً رحيماً.

❖ ❖ ❖

للإيمان بالله، في الآخرة، ميزة كبرى

وللإيمان باللّه سبحانه ميزة رائعة لا نظير لها، منبثقة عن رحمةٍ من الله الرحمن الرحيم جل وعلا، . فلو أنّ صاحب الإيمان كان فاسقاً في الدنيا خطّاءً مذنباً، واستحق بذنوبه النار، فبعد أن يدخلها ويُعَذّب لما استحق، تتداركه رحمة الله، تأتيه بغتة، فتخرجه من جهنم إلى الجنة ليُخلّد فيها. فليست جهنم بدار خُلدٍ لمن كان في قلبه ذرّة من الإيمان. فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي r أنّ اللّه U يقول لملائكته: (....انْظُرُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ. قَالَ فَيُخْرَجُونَ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زِنَةُ قِيرَاطٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ قَالَ: فَيُخْرَجُونَ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ قَالَ: فَيُخْرَجُونَ مِنْ النَّارِ، فَيُطْرَحُونَ فِي نَهَرٍ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَوَانِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبُّ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ).

غير أنّ هذا الخير الفياض والنتيجة الطيبة لا يُقلّلان من شأن النار الرهيبة التي اطلعنا على جوانب منها، بل يرفعان من شأن الإيمان بالله وحده لا شريك له، إذ إنّ الله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزمر. وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء. إنّ هذا الفهم العميق، وإنْ فتح الباب وسيعاً للمؤمنين المذنبين العاصين في أن تتداركهم الرحمة، إلاّ أنّ عليهم كما على المؤمنين الملتزمين التحسّبَ لمخاطر الانزلاق. فالنفس غيرُ مأمونة؛ قد يقودها عصيانها أو أخطاؤها إلى الإشراك بالله، فتستحق الخلود في النار.

ومن أجل هذا طلب الله من عباده الخطائين أن يتوبوا وأن ينيبوا إليه ويتبعوا طريقه ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الزمر.

نرى المرء يفر، في الدنيا، من عذاب يسير، وإنْ كان شديداً، إلا أنه يبقى يسيراً بالنسبة لعذابَي القبر والنار. فكيف لا يأبه لذانك العذابين الرهيبين؟! نجد مثل هذا الخوف في نفس سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الحجر، فرَّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي r فسأله، فقال له يا رسول الله، أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فوَ الذي بعثك بالحق نبياً لقد قَطَعت قلبي، فأنزل تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ الحجر. فهدّأت الآية الكريمة روع سلمان والمؤمنين y أجمعين، دون أن تزيل عنهم الخوف من جهنم، بل فتحت لهم أبواب الرجاء، وبيّنت سعة رحمة الله تعالى.

ومن هنا، ندرك كيف ولماذا حببَ إلينا النبيُ r سؤالَ الله الجنة والاستجارة من النار؟ فذلك أدعى إلى تأصيل حب الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل. فعن أنس بن مالك t كما رواه الترمذي في سننه قال: قال رسول الله r :

"مَنْ سأل اللّه الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة، ومن استجار باللّه من النار ثلاث مرات قالت النار اللهم أجِرْه من النار".

وروى **السيوطي في الجامع** عن أبي سعيد وأبي هريرة **y** عن النبي **r** أنّه قال: (إذا كان يومٌ حارٌّ ألقى اللّهُ سمعَه وبصرَه إلى أهلِ الأرضِ، فإذا قال الرجلُ لا إلهَ إلا اللّهُ، ما أشدَّ حرَّ هذا اليومِ! اللهم أجِرني من حرِّ جهنمَ، قال اللّهُ لجهنمَ إنَّ عبداً من عبيدي استجار بي مِنْ حرِّك وإني أشهدُك أني قد أجرتُه منك. وإذا كان يومٌ شديدُ البردِ ألقى اللّهُ سمعَه وبصرَه إلى أهلِ الأرضِ فإذا قال العبدُ: لا إلهَ إلا اللّهُ ما أشدَّ بردَ هذا اليومِ! اللهم أجِرْني من زَمْهَرِيرِ جهنمَ! قال اللّهُ لجهنمَ: إنَّ عبداً من عبيدي استجار بي من زمهريرِك وإني أشهدُك أني قد أجرتُه. قالوا: وما زمهريرُ جهنمَ؟ قال: بيتٌ يُلْقَى فيه الكافرُ فيتميزُ من شدةِ بردِهِ بعضهم من بعض).

الفصل السادس عشر:

تذكُّر مصيبة الموت وفقْد الولد

إن كان الموت مصيبة كما سماه الله تعالى، فليس في تذكُّره من عيب، ولا يدل ذلك على ضعف المصاب. لا، بل على قوة صبرٍ واحتساب أمرِ الله. فإنْ ذَكَر "المصيبة"، للاعتبار ولإغناء حياته بمعاني "الممر"، أثيب وأُجر. فكيف إذا ذَكرَ أنّ لهذا الممر نهاية يُفضي منها إلى المقر الدائم؟ وفي هذا التذكر فوائد عديدة، ذكرها رسول الله r. فقد رُويتْ عنه أحاديث تجعل لتذكر المصيبة أجراً لافتاً بشرط ارتباطه بالاسترجاع، وهو النطق بـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ البقرة.

وخلال ذلك تظهر فوائد كثيرة، منها ما يجعل المألوم مرتاحاً مطمئناً؛ فالآية السالفة تشير إلى نزول صلوات من الله ورحمة على المصاب المسترجع، وبذلك يحوز أجر المصيبة، يوم وقوعها، ما ذكرها واسترجع. فهو إذ صبَرَ وتجلد عند وقوعها، فاز بأجرها. ولا غرو في ذلك، فإن استعاد ذكراها ودأب على الاسترجاع بصبر كان له من الأجر بعدد التذكر والاسترجاع. وفي كل مرة تتأكد في نفسه معانٍ جديدة اقتبسها من المصيبة، وراح يسلكها في مفاهيمه وعمله، تُزينها صلوات من الله ورحمة، وإعلان منه سبحانه بالهداية والرشاد. وهو إعلان يتجدد معه الإيمان، ويزيد في الالتجاء إلى الله والاستمساك بحبله وبهديه. فأكرِمْ بها من ذكرى! وإنْ كانت شديدة على النفس، وحسبها أنها مصيبة!![1].

---

(١) قضى سبحانه بأن مات ولدي د. مؤمن ولما يبلغ الأربعين ربيعاً هجرياً في عام ١٤٢٨هـ٢٠٠٨م أي ما قارب من العمر الثمانية والثلاثين سنة وبضعة أشهر شمسية، وكنت قد بدأت بكتابة هذه (المقدمة) لكتابي الآخر (حروف الوفاء في فقد الأبناء) لكن الله سبحانه أراد أن يجعل (المقدمة) كتاباً خاصاً بالموت وهو الذي بين يديك. وهذا التحول من (مقدمة) إلى كتاب كان أحد

١. أخرج ابن أبي الدنيا عن **شهر بن حوشب**[1] قال: قال رسول الله r : (ما من مسلم يذكرُ مصيبته وإنْ قدُمَتْ إلاّ جدّد الله له أجرها).

٢. وأخرج أيضاً عن النبي r : (مَن استرجع بعد أربعين سنة، أعطاه الله ثواب مُصيبته يومَ أُصيبَها) أي ولو بعد أربعين سنة أو خلالها لمرات عدة. والله أعلم.

٣. وأخرج أحمد وابن ماجه، والبيهقي في الشعب عن الحسين بن علي y قال: قال رسول الله r : (من أصيب بمصيبة (وفي رواية فذكر مصيبته) وأحدث استرجاعاً، وإنْ تقادم عهدها، كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب).

٤. وروى ابن أبي الدنيا، عن رجل تذكر ابناً له مات فقال شعراً:

حبيبٌ حَلَّ في دار اغترابِ ... مَحِلّةَ غيرِ مرجُوِّ الإيابِ
وكيفَ أطيقُ أنْ أنسى حبيباً ... يقطِّعُ ذِكْرُهُ بَرْدَ الشَّراب
ألا لا لستُ ناسِيه ولكن ... سأَذْكُرُهُ بصبرٍ واحتساب

وقال أيضاً: كان لبني العباس مولى يقال له الوزير بن عبد الله، وكان قد عَمَّر حتى فقد ماله وولده، فلم يبق له إلاّ ابن واحد يقال له إبراهيم، فكان إبراهيم يَقْرُوه ويرفُق به، والشيخ شبيه بالوَلَد - أي يحتاج للخدمة والعناية -، فمات ابنه، فأخذ الجيران في مصلحته، حتى إذا أصلحوا شأنه وحملوا سريره وخرج يَهْرُج قُدَّام الجَنازة، فلمَّا انتهوا به إلى شفير القبر ضَرَبَ بيده إلى كفِّه، ثم قال:

الأسباب الذي أحّر إصدار كتابي الثاني المشار إليه في فقد الأبناء وقد أنهيته منذ ما يقارب السنة من تاريخه. وما نرجوه من الله أن يتقبل منا العملين، ويجعل مثل ثوابه لولدي مؤمن ولوالدَيْ ولجميع المسلمين آمين.

(١) **شهر بن حوشب أبو سعيد الأشعري** الشامي مولى الصحابية أسماء بنت يزيد الأنصارية، كان من كبار علماء التابعين وقرأ القرآن على ابن عباس وعرض القرآن عليه سبع مرات، وذكر البخاري أنه أقرأ من قرأ القرآن، وأتى على شهر بن حوشب ثمانون سنة وكان يعتم بعمامة سوداء طرفها بين كتفيه وعمامة أخرى، قد أوثق بها وسطه،. ومن مليح قول شهر "من ركب مشهوراً من الدواب ولبس مشهوراً من الثياب أعرض الله عنه وإن كان كريماً"، قال الزركلي: "من فَعَله ليعز الدين ويرغم المنافقين ويتواضع مع ذلك للمؤمنين ويحمد رب العالمين فحسن. ومن فعله بذخاً وتيهاً وفخراً أذله الله وأعرض عنه وقيل: شهر لا يشبه حديثه حديث الناس كان مولعاً بزمام ناقة رسول الله. وقيل: مات سنة ١١١هـ. (الأعلام للزركلي).

يـا مَـن لعـينٍ أبـادَ الدَّهـر قُرَّتَهـا ومَـن لـسمعٍ رمـاهُ الـدَّهرُ بالـصَّمَمِ
بُـدِّلْتُ مِـن فرحـي الماضـي بـه تَرَحـاً وعـادَ عهـدُ أبـي إسـحاقَ كـالحُلُمِ
ما ضَرَّ مَن قال يبْري الوجدُ صاحِبَه وقـد بقيـتُ ووجْـدي لـيس بـالأَمَم

من هنا نفهم، كيف أنّ النبي r قد حرص على تشجيع المصاب بفقد الولد، وحضَّه على احتسابه عند ربه. أما طلبُ النسيان من والدين أصيبا بولدهما فليس بالأمر السهل أو الممكن، إلا أن النبي r رفع هذا التذكّر إلى مرتبة عالية، رابطاً إياه بالاسترجاع، ليتأكد معناه في نفس المحزون بالاحتساب. وللاحتساب شروط، منها أن يرضى بقضاء الله وقدره، وأن يصبر على ابتلائه ويسترجع؛فإنّ في الاسترجاع أنساً في النفس وراحة في القلب لا يدركهما إلا من عرفهما. وحسبُ المحتسب ولده الصالح، أنْ كان احتسابه مُثقِلاً ميزانه، إذ يَعْدِل، في وزنه، أجرَ بعض معاني التوحيد، وتمجيد الخالق المبدع الرحيم.

عن **أبي سُلمى**(١) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ r قَالَ: " بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ" **رواه الإمام أحمد في مسنده.**

وعلى هذا، فإنّ استذكار المصيبة خلق إسلامي رفيع، يتضمن ربط الحاضر بالماضي، كما أن تذكرَ ألوان المصائب فيه نفع للمستقبل، فهي قد مضت، وستمضي أيضاً كل مصيبة أخرى. وليس أمام المُصاب إلا أن يصبر ويسلم أمره لله حقاً وصدقاً، وأنه ومصابه لله، وأنهما يعودان إليه سبحانه وسيلتقيان عنده.

---

(١) يقال اسمه حريث يكنى **أبا سُلمى**، راعي رسول الله r قيل:شامي .روى عنه أبو سلام الأَسود، عن عباد قال: حدثني أبو سلمى راعي رسول الله r قال: سمعتُ النبي r يقول : "من لقي الله U، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وآمن بالبعث والحساب، دخل الجنة". قلت: أَنت سمعت هذا من رسول الله r فأدخل إصبعيه في أذنيه وقال:سمعت هذا منه غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، ولا أَربع). وروى الفضل بن الحسين، عن عباد قال: بينا أنا بالكوفة، إِذ قيل: هذا رجل من أَصحاب رسول الله r ، وكان خادماً لرسول الله فناداه رجل يكنى أَبا مسعر، فقال: يا عبد الله، كنت خادماً لرسول اللّه؟ قال: نعم، كنت أَرعى له. فقال: أَلا تحدثنا ما سمعته منه؟ قال: بلى وذكر الحديث. **بخ:** كلمة تقال لاستحسان الأمر وتعظيم الخير، سُلمى: ضبطه ابن الفرضي بالضم، وهو الصحيح .(راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة).

وذاك تصور يجعل إيمانَ وصبرَ منْ أصيبَ أكبرَ من هول المصيبة وشدتها، باعتباره قد أسلم نفسه إلى الكبير القوي المتعال.

إنّ عِظمَ الأجر في فقد الولد يجعل المرء في حالة صبر أنيسة، وقد تحولت المصيبة عنده إلى نعمة يحس بإيقاعاتها السليمة، حتى لو كان الولد شاباً أقرب ما يكون إلى الكمال، ثم فجأة يُفْتَقَد!! ولعل أروع مثل يضرب في هذا الشأن قول **أبي مسلم الخولاني**[1] وقد أصيب بولده:

(لأنْ يُولدَ لي مولود يُحسِنُ اللّه نباته حتى إذا استوى شبابُه، وكان أعجبَ ما يكون، إلاّ قبضه اللّه مني، أحبُّ إليَّ مِنْ أن تكون لي الدنيا وما فيها) أخرجه أبو نعيم في الحلية. وذلك لعظيم الأجر في فقدان الولد، خاصةً وقد استوى شبابه وقوي عوده، وكان في شبابه حائزاً على إعجاب والده، فإذا به يفقده بالموت.

ولا ريب أنّ مثل هذا الأمر من الصعوبة بمكان، وقد مررت به شخصياً بفقد ولدي مؤمن ـ رحمه اللّه ـ، بعد أن استوى وبلغ أشدَّه. وفقْدُه مصيبةٌ بكل ما في الكلمة من معنى. وأبو مسلم الخولاني لا يماري في ذلك، وقد ظهر عدم مرائه في قوله (إذا استوى شبابه وكان أعجب ما يكون)، إلا أنه، وقد كان يدرك عِظَم الأجر عند الصبر، سلا عن مصابه، واعتبر أن تلك المصيبة غدت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها من نعم الحياة. ذلك أن الوصول إلى رضا اللّه ومحبته ورحمته أمر عظيم، وأنَّ الولد، وقد وفّاه اللّه أجله الذي كتبه له، قد بات سبيلاً مُعبّداً إلى اللّه.

ومما لا شك فيه أن فهم المصيبة على هذا النحو قد يُنهي عَبَرات المصاب، لا بل يجد فيها ما يوصله إلى مبتغيات حياة الآخرة له ولمن فقده كأفضل ما

---

(١) **عبد الله بن ثوب الخولاني**، تابعي، فقيه، عابد، زاهد، أصله من اليمن، وصفه الذهبي: بريحانة الشام. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر توفي بدمشق سنة ٦٢ هـ (٦٨٢م) وقبره في داريا.

تكون، وإن كان هذا الفضل عبر "مصيبة" كبيرة أليمة هي موت الولد. فعلى مرارتها، تصبح تلك المصيبة المشحونة بالمعاناة المرة، وعداً محققاً من الله خالق الوالدين. بينما هم، أي الأبوان المصابان والابن الذي وقعت فيه مصيبة الموت، قد وقاهم الله سبحانه فتنة الدنيا ومفاجآتها: الولد بموافاته الآخرة، والوالدان أنِ احتضنهما الإيمان، وقبلا بأمر الله، ورضيا بقضائه وقدره؛ فيكون الأجر بذلك كبيراً، والنفس مطمئنة. ويدرك المصاب الصابر أنّ صلوات الله تتنزل عليه، ومعها رحمته التي تُثلج الصدر وتهدئ روْع القلب وتُهنئ النفس.

❖ ❖ ❖

تذكر الموتى

ومن قبيل الحضّ على أخذ الاعتبار تذكُّر الموتى. ففي تذكرهم خير كبير، يدرك معه الإنسان أنّه اليوم في الدنيا وغداً تحت التراب... اليوم لحم وعظم ودم، وغداً جسد بالٍ مهترئ وعظام نخرة وتراب مبعثر، اليوم يتحرك، وغداً هامد لا حراك له.. اليوم يتكلم ويعمل ويفرح ويحزن، وغداً لا عمل ولا قول، بل اطمئنان بما قد عمل في دنياه، أو ألم متواصل لأعمال سيئة ارتكبها في حقبته العمرية المنصرمة. وهكذا تتكون لدى زائر القبور عبرة متجددة، وفكرة متوثبة، ودرس بليغ يختصر الدنيا والبرزخ، ويهيئه لدخول عالم الآخرة الأبدية.

زيارة القبور وزيارة النساء لها

كان العرب في أول بعثة النبي r قريبي العهد بالجاهلية، وما فيها من شرك وعادات لا يقرها الإسلام، بما في ذلك أمور القبور وتعظيمها، فنهى رسول الله r عن زيارتها. ثم لما تأصَّل الإيمان، وعرف الناس أنّ الموت انتقال إلى البرزخ، ثم إلى دار الآخرة الأبدية، عقلوا واطمأنوا والتزموا بالشرع قرآناً وحديثاً، فكان أن جاءت مرحلة إباحة الزيارة، بل رفعِها إلى مرتبة السُّنية والاستحباب المفيد. فعن النبي r أنه قال: (إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ).الإمام أحمد عن علي t .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t قال:(زَارَ النَّبِيُّ **r** قَبْرَ[1] أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ)..

وفيما **رواه الإمام الترمذي في سننه عن ابن عباس t** أن النبي **r** بعد أن أجاز زيارة القبور، كان يقوم بها من حين لآخر، ويُقْبِلُ بوجهه على القبور ويقول: "السلام عليكم يا أهل القبور.يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالإثر".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي **r** يقول: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنّا إنْ شاء الله بكم لاحقون.اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد" [2]**رواه الإمام مسلم في صحيحه**. وفي رواية له أيضاً عن أبي هريرة **t** : (السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ).

قال ابن القيم في كتابه الروح: (تواترت الآثار عن السلف بأنَّ الميت يعرف زيارة الحي له، ويستبشر به. ويكفي في هذا تسمية المسلِّم عليه زائراً، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً، فإن المزُور، إذا لم يعلم بزيارة من زاره، لم يصح أن يقال: زاره. هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم. وكذلك السلام عليهم أيضاً، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال؛ وقد ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه).

وقال أيضاً: (كان النبي **r** إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها والترحم عليهم والاستغفار لهم. وذهب بعض أهل العلم، إلى أنّ الرخصة تشمل الرجال والنساء، غير أنّ بعضهم كرَّهها للنساء، وذلك "لقلة صبرهن وكثرة جزعهن).

---

(١) كان قبر أمه بالأبواء، فمر به عام الحديبية، ويروى أنه زار قبرها في ألف مُقنّع، أي: في ألف فارس مغطى بالسلاح.

(٢) شجر عظام وهو العوسج ،واحدته الغَرْقَدَة وقيل لمقبرة أَهل المدينة: بقيع الغرقد لأَنه كان فيه غرقد، والعوسج: شجر كثير الشوك، واحدته عوسجة، وهو ضُرُوب: منه ما يثمر ثمراً أَحمر يقال له المُقَنّع، فيه حُموضة؛ وهو مُدَوَّرٌ كأَنه خرز العقيق.

وفي الواقع نجد عدداً من الأحاديث الدالة على **إباحة زيارة النساء للمقابر**. فعندما ماتت **رقية** رضي الله عنها بنت رسول الله ودفنت، قعد رَسُولُ اللَّهِ r عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ وَفَاطِمَةُ إلى جَنْبِهِ تَبْكِي فَجَعَلَ النَّبِيُّ r يَمْسَحُ عَيْنَ فَاطِمَةَ بِثَوْبِهِ رَحْمَةً لَهَا) **الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس**. وهو ما يستدل به على جواز زيارة النساء للمقابر، كما جواز البكاء. وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قلت: كيف أقول لهم [أي لأهل القبور] يا رسول الله؟ قال: "قولي: السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَلاحِقُونَ" **أحمد في مسنده**. فيستفاد من مضمون الحديث إجازة النبي r لعائشة والنساء بزيارة القبور، إذ علمها الدعاء لهم.

كما ورد في عمل اليوم والليلة لابن السُّني عن ابن مسعود t أنه r كان إذا دخل الجبانة يقول: (السلام عليكم أيتها الأرواح الفانية! والأبدان البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا، وهي بالله مؤمنة؛ اللهم أدخل عليهم رَوْحاً منك وسلاماً مِنا) **أخرجه السيوطي في الجامع، وقال عنه الألباني: ضعيف**. ويمكن الدعاء به كونه من فضائل الأعمال.

وهكذا فإنّ زيارة القبور مباحة للنساء والرجال، لما رُوِيَ عن **عبد الله بن أبي مُلَيْكَة**[1]، "أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن[2] فقلت لها: أليس كان نهى رسول الله r عن زيارة القبور؟ قالت نعم.كان نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها"[3].ذلك أن الزيارة من أجل التذكير بالآخرة، وهو أمر يشترك

---

(١) اسمه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة القرشي كنيته أبو بكر رأى ثمانين من أصحاب النبي r كان من الصالحين والفقهاء في التابعين والحفاظ والمتقنين مات سنة سبع عشرة ومائة واسم أبي مليكة زهير.

(٢) دفن عبد الرحمن بن أبي بكر في الحُبْشي وهو مكان يبعد عن مكة ستة أميال.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي وقال: تفرد به بسطام بن مسلم البصري.وقال الذهبي: صحيح.

فيه الرجال والنساء، وليس الرجال بأحوج إليه منهن. وهي أيضاً للدعاء للميت، وفي ذلك يشترك الفريقان، ولا يُعرف في أيهما تكون الإجابة.

ويصح القول: إنَّ ما ورد في منع الزيارة للنساء، كحديث أبي هريرة t : "لعن رسول الله زوارات القبور" رواه الإمام الترمذي في سننه، كان قبل إعادة حلّها من قِبَل رسول الله r ، وقد علق الإمام ابن قدامة قائلاً: إنه منسوخ. وقال: (والنهي المنسوخ كان عاماً للرجال والنساء) ثم أورد رأيين في ذلك، أحدهما بقاء الكراهية للنساء والآخر جواز الزيارة، وقد انتصر ـ رحمه الله ـ إلى الرأي الأخير معللاً ذلك بعموم قوله r عن أنس ابن مالك t : "كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا) رواه الإمام أحمد في مسنده. فيدخل في عمومه الرجال والنساء"[1].

وفضلاً عما تقدم، فإن زيارة عدد من الصحابيات للبقيع وسواه من القبور دليل على أن نهيهنَّ عن زيارتها قد رفع برفعه للرجال،وأنهنَّ يحتجن للاعتبار بالموت كالرجال، إنْ لم نقل أكثر، .لقوله r :(إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً) الإمام أحمد في مسنده.عن أبي سعيد الخدري t .

لكن ذلك كله مرهون بشروط، كالحشمة والقدرة على التزام الأدب في الزيارة، لجهة البكاء من غير رفع الصوت، وعدم التبرج، وأن تكون الزيارة نهاراً إن كانت المقبرة في البلد، وإلا وجب المَحْرم أو جمع من النساء.

ومن جميل الدعاء، ما دعت به **امرأة أعرابية** وقفت على قبر أبيها، وقد زارته، فقالت: يا أبت إنّ في الله عوضاً عن فقدك، وفي رسول الله r من مصيبتك أسوة، ثم قالت: اللهم نزَل عبدُك مفتقراً من الزاد، مُخْشَوْشِن المِهاد، غنياً عمَّا في أيدي العباد، فقيراً إلى ما في يديك يا جواد، وأنت أي رب، خير من نزل بك المرملون[2]، واستغنى بفضله المُقِلّون، وولج في سعة رحمته المذنبون، اللهم

(١) شرح السنة لابن قدامة جزء ٢، ص ٢٧٤ مرجع مذكور.

(٢) الذين نقص زادهم وباتوا محتاجين.

فليكن قِرَى ـ أي ضيافة ـ عبدك منك رحمتَك، ومهادُه جنتَك)، ثم انصرفت.[1] وفيه ما يؤكد قيام المسلمات بزيارة موتاهنّ.

❖ ❖ ❖

خصَّ بعض الشعراء زيارة الوالدين في قبريهما من الأبناء والبنات، بأبياتٍ قائلاً:

زرْ والديك، وقِفْ على قبريْهما ... فكأنّني بك قد نُقلْتَ إليهما
واقرأ من القرآن أنتَ بقدر ما ... تسطع وابعثْ ذاك منك إليهما
ما كان ذنبهما لديك؟ فطالما ... منحاكَ صفو الودّ من قلبيهما
بُشْراك إن قدّمْتَ فِعلاً صالحاً ... وقَضَيْتَ بعضَ الحقِّ من حقيهما

وهكذا تغدو زيارة القبور ذات صلة عميقة[2] بين الميت وبين زائره، تكتمل بالدعاء، وتتكلل بالراحة النفسية عند الزائر، وبنور يشع في قبر المزُور. وهو تواصل مرغوب وتجدد محبوب؛ فليس لأمل بالتلاقي في الدنيا أكثر من زيارة فيها القلب يشدو، والروح بها تسمو.

وليس بين داري الدنيا والبرزخ من تواصل، إلا عبر نوافذ فتحها الميت حال حياته، أو أنشأها أهله وأصدقاؤه وإخوانه بأعمال على نيته، أو بدعاء وصدَقَة، وقرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار. ولعل شاعرنا قد أنصف في أبياته التي أثبتناها آنفاً، عندما رغَّب وحثَّ الولد على زيارة والديه في قبريهما، وأن يقدم بين يديهما بعض الحق من حقوقهما، وحسبه أنهما منحاه صفو الودّ، أليس عليه أن يردَّ الود بأجمل منه، عبر تواصل في زيارة أو دعاء أو عمل صالح وصدقة مُجزئة إن كان قادراً عليها ؟.

---

(١) سلوة الحزين في فقد البنين، مرجع مذكور، ص ٥٣.

(٢) لعل أغرب القصص ما أوردته وكالات الأنباء عن رجل يدعى لاوبان في الصين بقرية بانجياتون بداية تشرين الثاني ٢٠١١ توفي عن عمر ٦٨ عاماً ولم يتزوج قط، وقد ربّى كلباً كان صديقه الدائم. بعد وفاته قام جيرانه بتنظيف منزله فافتقدوا الكلب واعتقدوا أنّه هرب، لكنهم ذهلوا حين وجدوه بعد أسبوع يجلس قرب قبر صاحبه ويرفض المغادرة حتى بعد محاولة إجباره على ذلك، وهذه الواقعة تكشف عمق المشاعر عند حيوان اليف فكيف بين ولد ووالديه وبين أخ وأخيه فتأمل!!.

الفصل السابع عشر :

الموت والشِّعر

"إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمًا" **رواه الطبراني في معجمه الكبير عن أبي بَكَرة t** [1]، وقال أمير الشعراء في القرن العشرين أحمد شوقي:

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

ففي الشعر تتداخلُ الحقائق والمشاعر، وتهفو النفوس وتتوثب الأفئدة. فكيف إذا كان الشعر قصيدة في الحياة والموت، يصدر من إنسان أزفتْ آزفته واقتربت منيته، ثم تركته روحه جسداً بلا حراك، فغُسّل وكُفّن وصُلّي عليه، ثم حُمِل إلى آخرته القريبة، إلى برزخه، استعداداً ليوم الحساب الكبير؟!

ومن بحر قصائد الموت والرثاء، اخترت قصيدة لشاعر النبي **r حسان بن ثابت**[2]، وأبياتاً من قصائد أخرى رثى بها رسول الله **r** بعد وفاته، وقصيدتين وبضعاً من قصيدتين أخريين.

---

(١) **نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي**، مولى النبي **r** ، ومن فضلاء الصحابة وصالحيهم، ومن رواة الحديث وأصحاب الفُتْيا منهم. رُوِي عنه فيما ذكر ابن حزم مئة واثنان وثلاثون حديثاً.

أسلم يوم الطائف سنة ثمان للهجرة، وتدلى من حصن الطائف على بكرة حين نادى منادي النبي **r** : «أيما حرّ نزل إلينا فهو آمن، وأيما عبد نزل إلينا فهو حر» فسمي أبو بكرة. وكان عبداً حبشياً أعتقه النبي **r** ، ومن نزل معه من الرقيق، وكان فيهم أخوه نافع. ودُفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَمُوْنُهُ ويحمله، فدُفع أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص. حاولت قبيلة ثقيف استرجاعه من رسول الله **r** فأبى وأجابهم: هو طليق الله، وطليق رسوله. وجاء البصرة وكان يقال له البحراني نسبة إلى البحرين حيث سكنها مع العلاء بن الحَضْرمي. وحين قُتل طلحة بن عبيد الله التيمي يوم الجمل سنة ٣٦ وأرادوا دفنه اشتروا داراً من دور أبي بكرة فدفنوه فيها، وكان أبو بكرة معتزلاً الفريقين حينذاك. وكان يقول: «أنا مولى رسول الله، فإنْ أبى الناس إلا أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح». توفي أبو بكرة في أرجح الأقوال في خلافة معاوية وولاية زياد (...-٥٢هـ./...-٦٧٢م). وكان قد أوصى أن يصلي عليه أبو بَرْزَةَ الأسلمي. وكان النبي **r** قد آخى بينهما.

(٢) هو **أبو الوليد حسان بن ثابت** من الخزرج، ولد في المدينة قبل مولد الرسول **r** بنحو ثماني سنين، فعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى.وهو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله **r** .أسلم حسان وأخذ يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة، ويدافع عن محمد والإسلام، ويهجو خصومهما وكان النبي يثني على شعر حسان، ويدعو

أما أولاهن فمنسوبة إلى التابعي زين العابدين **علي بن الحسين y**، والأخرى **للإمام الغزالي** في العصر الإسلامي الوسيط، والثالثة للأستاذ **عمر بهاء الأميري**، والرابعة للأخ الأستاذ **كرامي شلق** حفظه الله، وكلاهما - الأميري وشلق - من المُحْدَثين. وكل بيت من هاتيك القصائد يرتجف له القلب، وتصطفق به المشاعر. فإذا أنت تواجه الموت، وجهاً لوجه[1]، فلا تملك روحك إلا أن تدعو الله سبحانه دعاء عميقاً شجياً أن يوفقك في الإعداد الجيد لتلك اللحظة الرهيبة، وأن تُحْسِن بناء دارك بعد دنياك الحاضرة، وأن يغفر لك ولجميع عباده المؤمنين، وأن يرفعهم إلى أعلى الجنان في حياة الخلود الأبدي.

❖ ❖ ❖

له: "اللهم أيده بروح القدس"، وكان حسان بن ثابت لا يقوى قلبُه على الحرب، ولم ينصر رسول الله بسيفه، ولم يشهد معركةً معه ولا غزوةً بل بالشعر والبيان.أجلّه الخلفاء الراشدون.وفرضوا له في العطاء في الوقت نفسه، وحضه رسول الله على هجاء قريش فقال: "اهجُ قريشاً، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل".فسمعت عائشة رسول الله **r** يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت رضي الله عنها: سمعت رسول الله يقول: "هجاهم حسان، فشفى واشتفى" توفي في المدينة المنورة سنة (٥٤هـ= ٦٧٣/٦٧٤م) في عهد معاوية بن أبي سفيان عن عمر قد ناهز المائة والعشرين عامًا.

(١) روى الامام الغزالي عن يزيد الرقاشي فقال: (بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال له: من أنت ومن أدخلك داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد. قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له: أنت إذن ملك الموت! قال: أنا هو، قال: فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً؟ قال هيهات ! انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل! قال فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته، قال: فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتاً حسناً، قال: فإلى لظى نزّاعة للشوى، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله، فمن بين صارخ وباك. قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر) (من كتاب الإحياء للغزالي ج٢ مرجع مذكور، ص ٥٦٦).

حسَّان يرثي النبي ﷺ

بِطَيْبَـــةَ رَســـمٌ للرَّسُـــولِ ومَعْهَـــد ... مُـــنيرٌ وقـــد تعفُوالرسُـــوم وتَهْمُـــدُ
ولا تتمحـــي الآيـــات مـــن دار حرمـــةٍ ... بهـا منـبر الهـادي الـذي كـان يَـصْعَدُ
وواضـــح آثـــارٍ وبـــاقي معـــالمٍ ... ورَبْـــعٌ لـــه فيـــه مُـــصَلَّى ومـــسجدُ
بهـا حجـراتٌ كـان ينـزل وسْطَهـا ... مـــن اللّه نـــور يُستـــضـاء ويُوقَـــدُ
عرفـتُ بهـا رسـمَ الرسـول وعَهـدَه ... وقـبراً بهـا واراهُ في التُّـرْبِ مُلْحِـدُ
ظللـتُ بُهـا أبكـي الرسـولَ فأَسـعدَتْ ... عيـونٌ ومثلاهـا مـن الجفـن تـسعد
يُذَكِّـــرْنَ آلاءَ الرَّسُـــول ومـــا أرى ... لها مُحْصياً نفسـي فنفسـي تَبَلّـَدُ
مُفَجَّعَـةً قـد شفَّـها فقـدُ أحمـد ... فظلـــَّت لآلاءِ الرَّسُـــول تُعـــدِّدُ
ومـا بلغـت مـن كـلِّ أمـر عَـشِيـرَهُ ... ولكـن لنفسـي بَعْـدُ مـا قـد توجَّـدُ
أطالـت وقوفـا تـذرفُ العـين جهـدها ... علـى طـللِ القبر الـذي فيـه أحمـد
فبوركـتَ يا قبـرَ الرَّسُـول وبوركـتْ ... بـلادٌ ثـوى فيـها الرشيـدُ المسـدَّدُ
وبـورك لحـدٌ منـك ضُمِّـنَ طيِّـباً ... عليـه بنـاءٌ مـن صفيـحٍ مُنَـضَّدُ
تهيـلُ عليـه التربَ أيـدٍ وأعيـنٌ ... عليـه وقـد غـارت بـذلك أسعـدُ
لقـد غيَّبـوا حِلمْـاً وعلمـاً ورحمـة ... عـشيـةَ عَلَّـوْهُ الثـرى لا يوسّـَدُ
وراحوا بحـزنٍ ليـس فيهـم نبيُّهـم ... وقـد وهنـت منهـم ظهـورٌ وأعضدُ
يبكون من تبـكي السمـاوات يومـه ... ومـن قـد بكتـْه الأرضُ فالنـاس
وهـل عـدلت يومـا رزيـةُ هالـكٍ ... رزيّـةَ يـومٍ مـات فيـه محمـدُ
تقطَّـع فيـه منـزلُ الوحـي عنهـم ... وقـد كـان ذا نـورٍ يغـورُ ويُنْجـدُ
يدلّ على الرحمـن من يقتـدي بـه ... وينقـذ من هـولِ الخـزايا ويُرشـدُ
إمـامٌ لهـم يهديهـم الحـقَّ جـاهـداً ... معلّـِمُ صـدقٍ إن يُطيعـوه يَسعـَدوا
عفـوّ عـن الـزلات يقبـَلُ عـُذْرَهـم ... وإن يحسنـوا فـالله بالخيـر أجـودُ
وإن نـاب أمـرٌ لـم يقومـوا بحمـلِه ... فمـن عنـده تيسيـرُ مـا يتشـدَّدُ
عزيـز عليـه أن يجـوروا عـن الهـدى ... حـريص علـى أن يـستقيموا ويهتـدوا

عطـــوف علـــيهم لا يُثنّـــى جناحُـــه ... إلى كَنَـــف يحنـــو علـــيهم ويَمْـــهدُ
فبينـــا هـــمُ في ذلـــك النـــور إذ غـــدا ... إلى نـــورهم ســـهمٌ مـــن المـــوت مُقـــصِدُ
فأصـــبح محمـــودًا إلى الله راجعـــا ... يُبكّيـــه حـــق المرســـلات ويُحمـــد
وأمـست بـلاد الحُـرمِ وحْـشا بقاعُهـا ... لغيبـة مـا كانـت مـن الـوحي تعهـد
قفـارًا سـوى معمـورة اللحـد ضـافها ... فقـــيدٌ يبكّـــيه بـــلاط وغـــرقد
ومـــسجده فالموحـــشات لفقـــده ... خـــلاء لـــه فيـــه مقـــامٌ ومقعـــد
فبكّـــي رســـولَ الله يـــا عـــينُ عـــبرةً ... ولا أعرفنْـــك الـــدهر دمعـــك يجمـــدُ
ومـــا لـــك لا تَـــبكِين ذا النعمـــة الـــتي ... علـــى النـــاس منهـــا ســـابغٌ يتغمـــد
فجـــودي عليـــه بالـــدموع وأعـــولي ... لفقـــد الـــذي لا مثلُـــه الـــدهر يُوجـــد
ومـــا فَقَـــدَ الماضـــون مثـــلَ محمـــدٍ ... ولا مثلُـــه حتـــى القـــيامة يُفقـــد
أقـــول ولا يُلقَـــى لقـــوليَ عائـــبٌ ... مـــن النـــاس إلا عـــازبُ العقـــلِ مبعَـــد
ولـــيس هـــوايَ نازعـــاً عـــن ثنائـــه ... لعلـــي بـــه في جـــنةِ الخلـــد أُخلـــد
مـــع المـــصطفى أرجـــو بـــذاك جِـــوارَه ... وفي نيـــل ذاك اليـــوم أســـعى وأَجهَـــدُ

وفي قصيدة أخرى يرثي للمساكين حالهم، إذ فارقهم الخير بوفاة النبي r فقال:

نبِّ [نبئ] المساكين أن الخير فارقهم ... مـــع الـــنبي تـــولّى عـــنهم سَـــحَرا
كـــان الـــضياءَ وكـــان النـــورَ نتبعُـــه ... بعـــد الإلـــه وكـــان الـــسمعَ والبـــصرا
فليتنـــا يـــوم واروه بمُلْحَـــدِه ... وغيَّبـــوه وألقَـــوْا فوقـــه المـــدَرَا
لم يـــتركِ اللّه منّـــا بعـــدَه أحـــداً ... ولم يعـــشْ بعـــدَه أنثـــى ولا ذكـــرا

وقال في قصيدة أخرى **يبكي رسول الله r** :

تـــاللّه مـــا حملـــت أنثـــى ولا وضـــعت ... مثـــلَ الرســـولِ نـــبي الأمـــةِ الهـــادي
ولا بَـــرَا اللّهُ خلقـــاً مـــن بريّتـــه ... أوفـــى بذمّـــةِ جـــارٍ أو بميعـــادِ
مـــن الـــذي كـــان فينـــا يُستـــضاء بـــه ... مبـــارَكُ الأمـــرِ ذا عـــدلٍ وإرشـــاد
يـــا أفـــضل النـــاس إنـــي كنـــت في نهـــر ... أصبحت منـه كمثل المفرد الصادي

❖ ❖ ❖

ولعل من أبلغ وأرق القصائد، تلك المنسوبة إلى **زين العابدين علي بن الحسين**[1] بن علي **y**، وعُرفت بمطلعها:

لَيْسَ الغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّأمِ واليَمَنِ

لَيْسَ الغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّأمِ واليَمَنِ ... إنَّ الغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحدِ والكَفَنِ
إنَّ الغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِهِ ... على الْمُقيمينَ في الأَوطانِ والسَّكَنِ
سَفَري بَعيدٌ وَزادي لَنْ يُبَلِّغَني ... وَقُوَّتي ضَعُفَتْ والموتُ يَطلُبُني
وَلي بَقايا ذُنوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُها ... اللهُ يَعْلَمُها في السِّرِ والعَلَنِ
مَا أَحْلَمَ اللهَ عَني حَيْثُ أَمْهَلَني ... قَدْ تَمادَيْتُ في ذَنْبي ويَسْتُرُني
تَمُرُّ ساعاتُ أَيّامي بِلا نَدَمٍ ... ولا بُكاءٍ وَلاخَوْفٍ ولا حَزَنِ
أَنَا الَّذي أُغْلِقُ الأَبْوابَ مُجْتَهِداً ... عَلى المعاصِي وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُني

---

(١) هُوَ **عَلِيُّ (زَيْنُ الْعَابِدِينَ)** بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبِ بْنِ عبد المطلب بْنِ هَاشِمٍ . وَأُمِهِ أُمُّ وَلَدٍ سِنْدِيَّةٌ تُسَمَّى سلافة. وَيُعَدُّ مِنَ تابعي أَهْلِ الْمَدِينَةِ . ولَدَ سَنَةَ ٣٨ هـ . ، توفي **t** في ٢٥ محرم سنة ٩٥ للهجرة توفي الإمام السجّاد وله من العمر ٥٧ سنة ودفن في البقيع إلى جانب قبر عمّه الحسن بن علي بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. **ومن أولاده:** محمد الباقر وعمر، والحسين الأصغر، ومحمد الأصغر قَالَ شُعَيْبُ بْنِ أبي حَمْزَةَ ، عَنْ الزُّهْرِيُّ] كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنَ أَفْضَلُ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَحْسَنُهُمْ طَاعَةٍ ، وَقَالَ مَعْمَرُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: لَمْ أَدْرَكَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ . وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: لَمْ يَكُنِ فِي أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ **r** مِثْلَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، وَهُوَ ابْنُ أَمَةً. وقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَكُنِ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَقَّبَ إِلَّا مِنِ ابْنِهِ عَلِيَّ، وَ لَمْ يَكُنْ لِعَلِيٍّ وَلَدُ إِلَّا مِنْ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتُ الْحَسَنِ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ جُوَيْرِيَةَ بْنِ أَسْمَاءُ: مَا أَكَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ **r** دِرْهَماً قَطُّ. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَعِيشُونَ لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ كَانَ مَعَاشِهِمْ، فَلَمَّا مَاتَ **t** فَقَدُوا ما كانُوا يُؤْتُونَ بِهِ بِاللَّيْلِ .وَاشْتَهَرَ "عَلِيُّ بْنِ الْحُسَيْنُ" زَيْنُ الْعَابِدِينَ بِالْوَرَعِ وَالطَّاعَةَ وَالتَّقْوَى وَكَانَ عَابِداً زَاهِداً. وقيل فيه إنه أحسن الناس وجها وأطيبهم رائحة. قال الفرزدق في مدحه:

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
هَذَا الذي أحمد المخْتَارُ وَالِدُهُ ... صَلَّى عَلَيهِ إِلَهِي مَا جَرَى القَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَي كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ ... أو قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الارْضِ قِيلَ: هُمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللَهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّـةَ ذَا ... فَالدِّينُ مِن بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ
بُيُوتُهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ يُسْتَضَاءُ بِهَا ... فِي النَّائِبَاتِ وَعِنْدَ الحُكْمِ إِنْ حَكَمُوا
فَجَدُّهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي أُرُومَتِهَا ... مُحَمَّدٌ وَعليّ بَعْدَهُ عَلَمُ

يَـا زَلَّـةً كُتِبَـتْ فِي غَفْلَـةٍ ذَهَبَـتْ ... يَـا حَسْرَةً بَقِيَـتْ فِي القَلْـبِ تُحْـرِقُني

دَعْـني أَنُـوحُ عَلَـى نَفْـسي وَأَنْدِبُهـا ... وَأَقْطَـعُ الـدَّهْرَ بِالتَّذْكِيـرِ وَالحَـزَنِ

كَـأَنَّني بَـينَ تلـك الأَهـلِ مُنطَرِحـاً ... عَلَـى الفِـراشِ وَأَيْـديهِمْ تُقَلِّبُنـي

وَقـد أَتَـوْا بِطَبيـبٍ كَـيْ يُعالِجَنـي ... وَلَـمْ أَرَ الطِّـبَّ هـذا اليـومَ يَـنْفَعُني

واشْـتد نَزْعِـي وَصَـار المَـوتُ يَجْذِبُـها ... مِـن كُـلِّ عِـرْقٍ بِـلا رِفـقٍ ولا هَـوَنِ

واسـتَخْرَجَ الـرُّوحَ مِـني فِي تَغَرْغُرِهـا ... وصـارَ رِيقـي مَريـراً حِـينَ غَرْغَرَنـي

وَغَمَّـضُوني وَراحَ الكُـلُّ وانْـصَرَفوا ... بَعْـدَ الإِيـاسِ وَجَـدُّوا فِي شِـرَا الكَفَـنِ

وَقـامَ مَـنْ كـانَ حِـبَّ النّـاسِ فِي عَجَـلٍ ... نَحْـوَ المُغَـسِّلِ يَأْتينـي يُغَـسِّلُني

وَقـالَ يـا قَـوْمِ نَبْغِـي غاسِـلاً حَـذِقاً ... حُـراً أَرِيبـاً لَبيبـاً عَارِفـاً فَطِـنِ

فَجـاءَني رَجُـلٌ مِـنْهُمْ فَجَرَّدَنـي ... مِـنَ الثِّيـابِ وَأَعْرَانـي وأَفْرَدَنـي

وَأَوْدَعـوني عَلَـى الأَلْـواحِ مُنْطَرِحـاً ... وَصـارَ فَـوْقي خَرِيـرُ المـاءِ يَـنْظِفُني

وَأَسْـكَبَ المـاءَ مِـنْ فَـوقي وَغَـسَّلَني ... غُـسْلاً ثَلاثـاً وَنَـادَى القَـوْمَ بِـالكَفَنِ

وَأَلْبَـسُوني ثِيابـاً لا كِمـامَ لهـا ... وَصـارَ زَادي حَنُـوطِي حيـنَ حَـنَّطَني

وأَخْرَجـوني مِـنَ الدُّنيـا فَـوا أَسَـفاً ... عَلَـى رَحِيـلٍ بِـلا زادٍ يُبَلِّغُنـي

وَحَمَّلـوني علـى الأَكتـافِ أَربَعَـةٌ ... مِـنَ الرِّجـالِ وَخَلْفِـي مَـنْ يُـشَيِّعُني

وَقَـدَّموني إلى المحـرابِ وانـصَرَفوا ... خَلْـفَ الإمـام فَـصَلَّى ثـمّ وَدَّعَـني

صَـلَّوْا عَلَـيَّ صَـلاةً لا رُكُـوعَ لهـا ... ولا سُجُـودَ لَعَـلَّ اللـهَ يَـرْحَمُني

وَأَنْزَلـوني إلى قَـبري علـى مَهَـلٍ ... وَقَـدَّمُوا واحِـداً مِنهـم يُلَحِّدُنـي

وَكَـشَّفَ الثَّـوْبَ عَـن وَجْهِـي لِيَنْظُرَنـي ... وَأَسْـكَبَ الـدَّمْعَ مِـنْ عَيْنيـهِ أَغْـرَقَني

فَقـامَ مُحتَرِمـاً بِـالعَزمِ مُـشْتَمِلاً ... وَصَـفَّفَ اللَّـبِنَ مِـنْ فَـوْقِي وفـارَقَني

وقَـالَ هُلُّـوا عليـه التُّـرْبَ واغْتَنِمـوا ... حُـسْنَ الثَّـوابِ مِـنَ الـرَّحمنِ ذِي المِـنَنِ

فِي ظُلْمَـةِ القَـبرِ لا أم هنـاك ولا ... أَبٌ شَفِـيقٌ ولا أَخٌ يُؤَنِّـسُني

فَريـدٌ وَحِيـدُ القَـبرِ، يـا أَسَفـاً ... عَلَـى الفِـراقِ بِـلا عَمَـلٍ يُزَوِّدُنـي

وَهـالَني صـورةٌ فِي العـينِ إِذْ نَظَـرَتْ ... مِـنْ هَـوْلِ مَطْلَـعِ مـا قَـدْ كـان أَدهَشَني

مِـنْ مَنكَـرٍ ونكـيرٍ مـا أَقـولُ لهـم ... قَـدْ هـالَني أَمْـرُهُمْ جِـداً فَـأَفْزَعَني

وَأَقْعَـــدوني وَجَـــدُّوا فِي سُؤالِهِـــمُ ... مَـــالِي سِـــوَاكَ إِلهِـــي مَـــنْ يُخَلِّـــصُنِي

فَـــامْنُنْ عَلَـــيَّ بِعَفْـــوٍ مِنـــك يـــا أَمَلـــي ... فَـــإِنَّني مُوثَـــقٌ بِالـــذَّنْبِ مُرْتَهَـــنِ

فَـــلا تَغُرَّنَّـــكَ الدُّنْيـــا وَزِينَتُهـــا ... وانْظُـرْ إلى فِعْلِهـا فِي الأَهْـلِ والـوَطَنِ

وانْظُرْ إلى مَـنْ حَـوَى الـدُّنْيا بِأَجْمَعِها ... هَلْ رَاحَ مِنْها بِغَيْـرِ الحَنْطِ والكَفَـنِ

خُـذِ القَنَـاعَةَ مِـنْ دُنْيَـاك وارْضَ بِهـا ... لَـوْ لم يَكُـنْ لَـكَ إلا رَاحَـةُ البَـدَنِ

يَـا زَارِعَ الخَيْـرِ تحـصُدْ بَعْـدَهُ ثَمَـراً ... يَـا زَارِعَ الـشَّرِّ مَوْقُـوفٌ عَلَـى الـوَهَنِ

يَـا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيانِ واكْتَسِبِي ... فِعْـلاً جمـيلاً لَعَـلَّ اللّهَ يَـرحَمُني

يَـا نَفْسُ وَيْحَكِ تُوبي واعمَلِي حَسَناً ... عَـسى تُجـازَيْنَ بَعْـدَ المـوتِ بِالحَـسَنِ

ثـمَّ الـصلاةُ علـى الْمُختـارِ سَيِّدِنـا ... مَـا وَصّـا البَـرْقَ فِي شَـامٍ وفِي يَمَـنِ

والحمـــدُ للّه مُمْـــسِينَا وَمُـــصْبِحِنَا ... بِـالخَيْرِ والعَفْـو والإِحْـسانِ وَالمِـنَنِ

قلْ لإخوانٍ رأوني ميتاً...

قال شقيق **الإمام الغزالي** الشيخ أحمد: إنّ أخاه الإمام لما حضرته الوفاة، قال: هاتوا لي كفني لأتجهز للدخول على الملك، فأخذه وصعد إلى غرفة بأعلى واغتسل ولبس كفنه، وصعدنا بعده فوجدناه قد لحق بربه. وإذا بهذه الرقعة بجوار رأسه، وقد كتب فيها هذه الأبيات [منها]:

قُـــلْ لإخـــوانٍ رَأَونـــي مَيِّتـــا ... فَبَكَـــوْني وَرَثَـــوْني حُزْنـــا

أتظنـــون بـــأني ميـــتكم ... لـــيس هـــذا الميـــتُ، واللّه؛ أنـــا

أنـــا فِي الـــصور، وهـــذا جـــسدي ... كـــان لباســـي وقميـــصي زمنـــا

أنـــا درٌّ قـــد حـــواني صَـــدَفٌ ... طـــرتُ عنـــه، وبقـــى مُرْتَهَنـــا

أنـــا عـــصفورٌ، وهـــذا قفـــصي ... كـــان ســـجني، فتركـــتُ الـــسجنا

أشـــكرُ اللّهَ الـــذي خلـــصني ... وبنـــى لـــي فِي المعـــالي وطنـــا

كنتُ قبلَ اليوم ميتاً بينكُمُ ... فحييتُ، وخلعتُ الكفنا
قد ترحلت وخلفتُكُم ... لست أرضى داركم لي وطنا
وأنا اليوم أناجي ملكا ... وأرى الحقَّ جهارا علنا
عاكفاً في اللوح أقرأ وأرى ... كل ما كان ويأتي أو دنا
وطعامي وشرابي واحدٌ ... وهو رمز فافهموه حسنا
لا تظنوا الموت موتاً، إنه ... لحياةٌ، وهو غاياتُ المنى
لا تُرعْكُم هجمةُ الموت، فما ... هو إلا إنتقال من هنا
اخلعوا الأجسادَ من أنفسكم ... تُبصروا الحقَّ عِياناً بيِّنا
وخذوا في الزادِ جهداً لا تنوا ... ليس بالعاقل هنا من ونا
أحسِنوا الظن برب راحم ... تشكُروا السعي وتأتوا أمنا
ما أرى نفسي إلا أنتم ... واعتقادي أنكم أنتم أنا
عنصر الأنفاس منا واحد ... وكذا الأجسام جسم عمّنا
فارحموني وارحموا أنفسكم ... واعلموا أنكم في إثرنا
أسألُ اللّه لنفسي رحمةً ... رحم اللّهُ صديقاً أمّنا
وعليكم مني سلامٌ طيبٌ ... وسلامُ اللّه برٌّ وثنا

❖ ❖ ❖

ومن روائع الشعر، تلك القصيدة الربانية "مع اللّه" للأستاذ **عمر بهاء الأميري**[1] ـ رحمه اللّه ـ، نقتطف منها أبياتاً فيها بعض مواقف مراحل الموت

(١) وُلد **عمر بهاء الأميري** فى حلب /سوريا سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٥م) ،درس في حلب، وأتم دراسته في الآداب والفلسفة. ثم درس الأدب وفقه اللغة في جامعة السوربون في باريس، والحقوق في الجامعة السورية في دمشق . عمل في التعليم، فتولى إدارة المعهد العربي الإسلامي في دمشق. أسهم في انطلاقة العمل الإسلامي المعاصر، واتصل بكثير من مراكزه، وتولى بعض مسئولياته .شارك في الدفاع عن القدس مع جيش الإنقاذ، خلال حرب فلسطين عام ١٣٧٩هـ (١٩٤٨م). مثَّل سوريا وزيرًا، وسفيرًا في باكستان والسعودية. هو من مؤسسي جمعية

والحياة، أضاف عليها الشاعر لمسات الطمأنينة التي يوحي بها قولُـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ **الفجر** قال:

مع الله... عند سُكنى الحُفَر

مـــعَ اللّه في سَبَحـات الفِكَـرْ ... مـع اللّه فـي لمحـات البَـصَرْ
مـــعَ اللّه في أمـسيَ المُنْقـضِي ... مع اللّه فـــي غـديَ المنتظَـر
مـــعَ اللّه في عُنـفـوان الـصِّبا ... مع اللّه في الضَّعْف عند الكِبَر
مـــعَ اللّه في الجسم، والروح،والـ ... شُعورِ وخفْق الـرؤى والفِكَـر
مـــعَ اللّه قبـل حياتـي،وفيهـا، ... وما بعدها، عند سُكنَى الحُفر
مـعَ اللّه في النشر، والحشر،والـ ... حسابِ على العمل المدَّخر
مـــع اللّه في فِردوسِـــهِ ... مع اللّه في عَوْذنا من سقر[1]

❖ ❖ ❖

"دار الأرقم الإسلامية" في حلب، كما أسهم في تأسيس حركة (سورية الحرة)، وكان رئيس الجانب السياسي فيها، عام (١٣٨٤هـ) - (١٩٥٢م .(كان عضوًا في المجمع العلمي العراقي، وعضوًا في المجمع الملكي للبحوث الإسلامية في الأردن .اهتم بقضايا الثقافة والسياسة والجهاد في أوطان العروبة والإسلام، دُعِيَ إلى المغرب عام ١٣٨٦هـ أستاذًا لكرسي "الإسلام والتيارات المعاصرة"، في دار الحديث الحسنية بالرباط، واستمر في العمل خمسة عشر عامًا، كما درّس الحضارة الإسلامية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس.دُعِيَ أستاذًا زائرًا ومحاضرًا في جامعات مختلفة في العالم العربي والإسلامي، واشتد عليه المرض، وفاضت روحه إلى بارئها في مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

(١) عوذْنا من سقر أي أن يعيذنا الله من نار جهنم فسقر النار لقوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ **المدثر**.

يا واقفون على القبور تأملوا...

للأخ الشاعر **الأستاذ كرامي شلق**[1]:

أبـــتي الحبيـــب رحلـــتَ قبـــل أوانِ ... وتركْتَنـــا في غمـــرةِ الأحـــزانِ
وهجـرتَ أحبابـاً وغبـتَ عـن الحمـى ... فالنـــأي شـــفّ جـــوارحي وبرانـــي
مـــا كنـــتُ أعلـمُ أن فقـدَك يـا أبـي ... ســـيُؤججُ الـــنيرانَ في الأبـــدانِ
حتـــى نعـــى النـــاعي فكـــان نعيُّـــه ... لأشـــدَّ وقعـــاً مـــن لظـــىً وَسِـــنَانِ
فعرفـــتُ أنّ هنـــاك رِزْءاً حـــلّ بـــي ... يـــا بـــئس مـــا قـــد عمَّـــني ودهـــاني
يـــا مـــوتُ كـــم فرقـــتَ بـــين أحبـــةٍ ... وقطفـــتَ أعمـــاراً بـــلا إيـــذانِ
ونـــسجتَ مـــن أفـــراحِهم أكفـــانَهم ... يـــا هـــولَ مـــا أعـــددتَ مـــن أكفـــانِ!!
نبكيـك يـا أبتـاه شـعرا مفعمـاً ... بالحـــبِّ والتقـــديرِ والعرفـــانِ
ناحـتْ عليـك الـضاد في محرابهـا ... وبكـت بنـاتُ الـشعر في الـديوانِ
حزنـــتْ عليـــك عقولُنـــا وقلوبُنـــا ... وبكـــت.. وحـــزنُ العقـــل أمـــرٌ ثـــانِ
فالقلـــب يُنـــسيه الغيـــابُ أليفَـــه ... والعقـــلُ لا ينـــسيه طـــولُ زَمـــانِ
فـلإن نأيت إلى البعيـد ـ فيـا أبـي ـ ... قـــسماً فأنـــتَ وإن نأيـــتَ لـــداني
يـــا واقفـــون علـــى القبـــورِ تـــأملوا ... وتـــزودوا بـــالبر والإحْـــسانِ
فـــأديمُ هـــذي الأرض مـــن أجـــسادنا ... وترابُهـــا عَبَـــقٌ مـــن الأبْـــدانِ
والمـــوتُ مرحلـــةٌ ولـــيس نهايـــةً ... فحياتنـــا الأخـــرى مـــدى الأزْمـــانِ
والمـــوتُ آتٍ لا مجـــالَ لدفعِـــهِ ... بالـــسحر... بالترياق... بالرّنـــانِ
أعمارنـــا تمـــضي ونعـــدو خلفهـــا ... ومـــصيرُنا المحتـــومُ في الحُـــسْبانِ
آجالُنـــا مرهونـــة لأوانهـــا ... وتجرنـــا قـــسراً بـــلا أشـــطانِ
أيـن الألى ملكـوا وسـادوا في الـدنى ... وبنـــوا وشـــادوا أصـــرحاً ومبـــانِ
زالـوا وهـذي الأرض مـا زالـت هنـا ... وكـــذاك تبقـــى حاضـــنَ الإنـــسانِ
هـــذا الـــترابُ وكلُّنـــا طعْـــمٌ لـــه ... وجميـــعُ مَـــنْ في ذي الحيـــاةِ لفـــانِ
وإليـكَ يـا أبـتي الحبيـب دعاءنـا ... مـــا نـــاح عـــصفور علـــى الأفنـــان

---

(١) من مواليد كفريا/الكورة ١٩٤٤ وسكان طرابلس، محام بالاستئناف منذ ١٩٨٠ رئيس اتحاد الحقوقيين المسلمين في لبنان، ورئيس جمعية النهضة الإنسانية، عضو الهيئة العليا لبيت الزكاة والخيرات، وعضو الأمانة العامة للإنقاذ الإسلامية اللبنانية، صدر له خمسة دواوين، منها: أغانٍ وأشعار في المصطفى المختار، والأبيات أعلاه مختارة من قصيدة رثى فيها نفسه على لسان ولده، نشرها في جريدة التمدن الطرابلسية، ندعو له بطول العمر.

الفصل الثامن عشر:

الصدقات والخيرات
تفاعل بين الحيّ والميت سراً وعلانية

من جميل التواصل بين الأحياء والأموات، أعمال البر يجريها المرء لنفسه قبل وفاته، من صدقة أو ولد صالح يدعو له، أو وصية ينشئها قبل وفاته لتنفّذ بعد موته، في عمل بر وخير تنفع الأحياء، ويعود ثوابها لصاحبها وهو في البرزخ، ثم في عالم الآخرة الأبدية . ولعل هذا من أفضل الذكر الطيِّب لإنسان عاش في الدنيا لسنوات، ثم عَبَر منها، تاركاً آثاره الطيّبة، يصله مددها إلى ما شاء الله.

فقد روى أبو هريرة t عن النبي r "إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أو مَسْجِدًا بَنَاهُ أو بَيْتًا لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أو نَهْرًا أَجْرَاهُ أو صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ" رواه ابن ماجه في سننه.

وروى البيهقي عن أنس t عن النبي r : "سبع يجري على العبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: مَنْ عَلّمَ عِلْماً، أو أكرى نهراً، أو حفرَ بئراً، أو غرسَ نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورَّث مصحفاً، أو تركَ ولداً صالحاً يستغفرُ له بعد موته".

لرحلة الحياة نهاية مؤكدة عند كل فرد. فهو من يوم مولده يبدأ تناقص أيامه حتى يصل إلى النهاية المحتومة. لكنّ السؤال: إذا ما كانت الحياة الدنيا استمراراً، وجيلاً يخلف الآخر، كما هو مشاهد ومعاش، فهل بإمكان الميت أن يتواصل مع الأحياء في الدنيا؟ أو أنّ للأحياء في الدنيا تواصلاً ما مع أمواتهم في عالم البرزخ العجيب؟ ثم هل من تواصل، في الثواب والأجر، كما الإثم والغرور، بين الميت وأهله الذين لا زالوا في الدار الدنيا؟ وهو تساؤل طبيعي

ومشروع ينشأ في النفس، ويلمسُ جوابه الفعلي أولئك الذين غدوا في الدار الثانية،دار البرزخ العجيب! وهي الدار المختلفة شكلاً وأساساً عن دار الدنيا؛ فلكلٍ منهما معالمه وأصوله وأنواره أو ظلامه، ونعيمه أو عذاباته. غير أنّ ما ندركه، أنّ الثواب يصل إلى من كانت النيّة قد عقدت له أو من أجله، ولا نعرف كيف تصل، ولا كيف تكون آثار تلك الأعمال والفضائل، إلا أننا ندرك يقيناً أنها تصل إلى الميت، طالما زانها الإخلاص لله، وأدّت غرضها في هذه الدنيا بالإحسان إلى الخلق. فـ "الخلقُ كلُّهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله". فقد روى ابْنُ عُمَرَ t ،أَنَّ رَجُلا جَاءَ إلى إلى رَسُولِ اللَّهِ r ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ r : أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ،وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ،أو تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أو تَقْضِي عَنْهُ دِينًا،أو تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا).المعجم الكبير للطبراني.

وعن **أبي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ**[1] t : قَالَ : "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ r إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِيفَاءٌ بِعُهُودِهِمَا مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمَا ، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا" **رواه ابن ماجه في سننه وقال بصحته الحاكم في المستدرك.**

وروى النسائي في سننه الكبرى عن أبي هريرة t أن رسول الله r قال: (سبق درهم مائة ألف درهم) قالوا: وكيف؟ قال: (كان لرجل درهمان فتصدق أجودهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها).

---

(١) **مالك بن ربيعة الأنصاري**، مشهور بكنيته أبو أسيد، شهد بدرًا وأُحُدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله r ، وكانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح. وعَمِيَ قبل أَن يُقتَل عثمان، مات t بالمدينة عام الجماعة سنة ستّين، وقيل: تُوفِّي أبو أُسيد في العام الذي مات فيه معاوية، وقيل: ابن خمس وسبعين سنة، قد ذهب بصَرُه، وهو آخر مَنْ مات من البدريين.

يقول ابن قيم الجوزية: (وتنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء كما ينتفع الميت به في حياته). وينقل عن الإمام أحمد وجمهور السلف القول: إنّ ثواب الإنفاق يصل إلى الموتى، وهذا التأكيد أورده في كتابه "الروح" فقال: (قيل لأبي عبد الله ـ أي الإمام أحمد ـ الرجلُ يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو ـ أي قبوله ووصوله للميت ـ وقال: (الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها)، وقال ناصحاً: (اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، و"قل هو الله أحد، و"قل: اللهمَّ إن فضله ـ أي فضل الخير المنفَّذ ـ لأهل المقابر). يعني أنّني أهديت ثوابه للموتى، فذلك مما يصل إليهم بفضل الله إن شاء.

ومن جميل ما ذكره ابن القيم في تعليقه على **وصول ثواب الصدقات وسواها إلى الميت**: (أنّ الله سبحانه نفى أن يظلم [أحداً] بأن يزاد عليه في سيئاته أو يُنقص من حسناته، أو يُعاقب بعمل غيره). ويقول: إن الله سبحانه : (لم ينف أنْ ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء، فإن انتفاعه بما يُهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو **صدقة تصدق الله بها عليه، وتفضل بها عليه من غير سعيٍ منه**؛ بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء).

وأقول: إنّ مثل ذلك ما ورد في الحديث من رواية للإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة t عن النبي r قال: (قَالَ اللَّهُ U : "إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ r قَالَتْ الْمَلائِكَةُ، رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ". وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ r :"إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ".

فتلك منّة في الحالين: السيئة بمثلها، والحسنة بعشر، أو سبعمائة ضعف، فإن كان المرء قد عمل خيراً للميت يقبله الله سبحانه، وهو خير يسوقه الحي للميت، وهو تواصل مشرق يمنح الحياة، في داريها الدنيوية والبرزخية، معنى سامياً، **وهاتان الداران متجاورتان، فدار البرزخ التي تضم الموتى من الناس عبر الزمان والمكان، هي موجودة الآن مع دار الدنيا، وبينهما خطوط تواصل**، منها ما ذُكر من صدقة وصيام وصلاة وتلاوة قرآن ودعاء واستغفار، وأعمال صالحة نافعة تصل من أهل الدنيا، كبناء مسجد، وإقامة سبيل ماء، أو إجراء نهر، أو بناء بيت لابن السبيل، أو غرس نخل وسواه، أو تبرع بثمار، أو ببعضها، أو علم ينشر أو مصحف يورَّث، فكل هذا وغيره خيرات يتمتع بها الأحياء في الدنيا، ويُنقل ثوابها أو مثلُ ثوابها إلى أمواتهم في دار البرزخ، إن أجراها مُجروها عن نيّة موتاهم أو بسببهم، وذلك توفيق من الله للأحياء والأموات بآن معاً، وهو فضل من الله يصيب به من يشاء من عباده.

وأكثر من ذلك، فإنّ للمتصدق أنْ يجعلَ صدقة التطوع التي يخرجها بالنية لأحد والديه أو ولده أو أحدٍ من إخوانه أو لجميعهم، فيكون لهؤلاء مثلُ أجره دون أنْ يُنقص من أجره شيء، لما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة t عن النبي r: "**إِنَّ اللَّهَ U لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ فَيَقُولُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**".

أما تواصل الأموات ـ الأحياء في عالم البرزخ ـ **بالأحياء في عالم الدنيا**، فهو ما أشرنا إليه في صفحات سابقة من هذا الكتاب "...وَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذَا فَضْلُكَ وَرَحْمَتُكَ، فَأَتْمِمْ نِعْمَتَكَ عَلَيْهِ، وَأَمِتْهُ عَلَيْهَا. وَيُعْرَضُ عَلَيْهِمْ عَمَلُ الْمُسِيءِ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُ عَمَلا صَالِحًا تَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وتُقَرِّبُهُ إِلَيْكَ".

غير أن اللافت في الحالين، أن الحي لا يدرك تأثير صدقاته أو استغفاره أو دعائه لمن خصهم بذلك وهم في دار البرزخ، وكذلك لا يتلمس آثار دعائهم - أي الأموات - واستغفارهم واستبشارهم بأعماله الصالحة، بمقاييسه وقدراته الجسدية المحدودة، لكن الروح قد ترى ذلك وتلمسه وتعيشه. وهذا بلا ريب تواصل مشرق، يكشف صورة أنيسة نقية من صور العالمين المتجاورين.

ومن ذلك رغبة الابن مثلا في تنفيذ وصايا والده الذي مات، فيسعد الولد إذا ما عمل بما طلبه أبوه منه حال حياته، كما أنه يتألم إذا ما عمل عكس إرادة أبيه، وقد يُوبخه أهله مثلاً أو خلاّن والده، وقد يقولون له بأنّ والده في قبره سيكون كئيباً من أجله أو غاضباً منه أو ما شابه.

وفي كلتا الحالتين، نجد المعنيّ بالأمر يتصوّر والده الميت والسعادة تغمره، أو الغضب آخذ منه كل مأخذ، وتلك صورة، وإن كانت لا تسمح لروحه القاصرة وهي في الدنيا أن ترى عالم البرزخ، إلا أنها تبدو عنده كأقرب ما قد تكون، وإن غابت فيها الألوان المختلفة وثلاثية الأبعاد، كما يقال، إلا أنها تبقى حية سوية.

وما ذلك إلا قبس من رحمة الله، خصّ الروح به وجعله من ميزاتها.

❖ ❖ ❖

الصدقات بين الإعلان والإخفاء

قد تكون الصدقة خفية، سواء كانت عن المتصدق نفسه أو بنية ميت، فلا تعلم شمالُ المتصدق ما أنفقته يمينُه، ولعل هذا الإخفاء أطيب إلى نفس المتصدق، أو هكذا يجب أن يكون. لكن قد تأتي ظروف وأيام وسنون يكون إعلان الصدقة فيها خيراً من إخفائها، خاصةً إن لم تكن الغاية من الإعلان المباهاة، وهو ما يحبط الأجر؛ فالإعلان عنها، دون المباهاة، نعمة وقربى إلى الله سبحانه، وصدق الله القائل: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ البقرة. وقال ﷺ: "....وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ

الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعلانِيَةِ تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا" سنن ابن ماجه.

جاء في **الموسوعة الفقهية**:

(العلانية في اللّغة: الإعلان وهو إظهار الشّيء، والعلانية ضدّ السّرّ، وأعلنت الأمر أي أظهرته، ومنه قوله تعالى: «أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً » أي سرّاً وعلانيةً. و«في الطّاعات والعبادات» قال العلماء: إنّ الطّاعات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: **القسم الأوّل: ما شرعت فيه العلانية** كالأذان، وتشييع الجنائز، وتعليم النّاس دينهم، والعلوم النّافعة، فهذا من شأنه العلانية، **كما جَرْحُ الشّهود والأمناء على الصّدقات والأوقاف والأيتام وأمثالهم**، ولا يحلّ السّتر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليّتهم؛ وليس هذا من باب الغيبة المحرّمة، بل هو من النّصيحة الواجبة بإجماع العلماء .

(**والقسم الثّاني: ما يكون إسرارُه خيراً من إعلانه**، كإسرار القراءة في الصّلاة غير الجهريّة.

والقسم الثّالث: ما يخفى تارةً ويظهر تارةً أخرى كالصّدقات، فإن كانت فريضةً كالزّكاة، أو كان [المزكي] ممّن يُقتدى به أو يريد إظهار السّنّة **وأمن على نفسه الرّياء، كانت العلانية أفضل له من السّرّيّة**، لما في ذلك من إبعاد التّهمة عن نفسه بالنّسبة للفرائض والواجبات، ولما فيه من سدّ خلّة الفقراء مع مصلحة الاقتداء، فيكون قد نفع الفقراء بصدقته وبتسبّبه إلى تصدّق الأغنياء عليهم، وقد نفع الأغنياء بتسبّبه إلى اقتدائهم به في نفع الفقراء؛ **ولأنّ الفرائض لا يدخلها الرّياء**، .وإن كانت العبادة نافلةً كصدقة التّطوّع وغيرها من النّوافل، وخاف على نفسه الرّياء أو عُرف من عادته الرّياء، أو كان ممّن لا يُقتدى به، أو خاف من احتقار النّاس للمتصدّق عليه، **كان إخفاؤها أفضل** من علانيتها لقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ ﴿٢٧١﴾﴾[1] .

---

(١) الموسوعة الفقهية مصدر مذكور، (ج ٣٠ / ص ٢٨١).

وفي تفسيره لآية (إن تبدوا الصدقات) يقول الإمام الرازي[1]: (إن **إعطاء الصدقة حال الإخفاء خير من الخيرات**، وطاعة من جملة الطاعات، فيكون المراد منه بيان كونه في نفسه [أي الإخفاء] خيراً وطاعة، وأن المقصود منه بيان الترجيح.. فأما إذا حصل في الإبداء أمر آخر [كأن يترتب بسببه خير ما مثلا][•] لم يبعد ترجيح الإبداء على الإخفاء... وأنّ **الإظهار في إعطاء الزكاة الواجبة أفضل**. أما الآن فلما حصلت التهمة [بعدم أداء الزكاة عند كثير من المسلمين] كان الإظهار أولى بسبب حصول التهمة. وقد شرط تعالى في **كون الإخفاء أفضل أن تؤتوها الفقراء**، لأن، عند الإخفاء، الأقربَ أن يعدل بالزكاة عن الفقراء إلى الأحباب والأصدقاء، الذين [قد] لا يكونون مستحقين للزكاة، **ولذلك شرط في الإخفاء أن يحصل معه إيتاء الفقراء**، والمقصود بعث المتصدق على أن يتحرى موضع الصدقة، فيصير عالماً بالفقراء، فيميزهم عن غيرهم، فإذا تقدم منه هذا الاستظهار ثم أخفاها حصلت الفضيلة)[2].

ونضيف، (إنّ ذلك كان في زمن لم تكن فيه مؤسسات تختص بفعل الخير وإحصاء المحتاجين والفقراء ومعرفة أحوالهم، وتنظيم مد يد العون لهم. فبإعطاء الزكاة أو الصدقات لمثل هذه المؤسسات بهدف توزيعها على مستحقيها، يكون قد تحقق الأمران معاً: الإخفاء والإبداء. غير أن إعطاء الصدقة فردياً وسراً لفقير بعينه، معروفٍ عند صاحب الصدقة، يبقى أفضل، لقوله **r** في خبر السّبعة الّذين يظلّهم اللّه تحت ظلّ عرشه: "وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ" عن أبي هريرة **t** متفق عليه ولقول ابن عبّاس رضي اللّه عنهما: (جعل اللّه صدقة السّرّ في التّطوّع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها بخمسة وعشرين ضعفاً)[3].

---

(١) تفسير الرازي، ج ٧، ص ٦٥و٦٦.

(•) المعترضات من عندنا وليست من الرازي.

(٢) تفسير الرازي (ج ٧ / ص ٦٥و٦٦).

(٣) الموسوعة الفقهية، مصدر مذكور، ج ٣٥،ص ٢٨١.

ووضعت الموسوعة الفقهية دواءً لمن خاف على نفسه من الرياء في حالة الإعلان، أنّ عليه أن يعي أنّ الرياء أمر خطير، ولكي ينجو منه يحتاج إلى مغالبة النفس ومجاهدتها على الإخلاص، فتقول الموسوعة: (إن خاف فاعله الرّياء [أي فاعل العلانية في كل مرة تكون أفضل من السر] جاهد نفسه في دفعها إلى أن تحضره نيّة إخلاصه، فيأتي بهذه الأعمال مخلصاً كما شرعت، فيحصل على أجر ذلك الفعل و على أجر المجاهرة، لما في ذلك من المصلحة المتعدّية إلى الغير).

ويقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ البقرة. (أخبر الله تعالى أنّ الصدقة إنْ أبداها المتصدِّق، فهي خير، وإنْ أخفاها وسلَّمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء بالنسبة للفقير إحسان آخر، وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وفاعله يكون أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)، ثم قال: (**إذا صرفت - أي الصدقة - في مشروع خيري، لم يكن في الآية دليل على فضيلة إخفائها، بل هناك قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة. فقد يكون الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والاقتداء**[1]**، وتنشيط النفوس على أعمال الخير**). و(**ذهب جمهور المفسرين إلى أنّ هذه الآية في صدقة التطوُّع، لان الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات، الإخفاء أفضل في**

---

(١) قال محمد بن عيسى الحكيم الترمذي: الإنسان إذا أتى بعمل وهو يخفيه عن الخلق وفي نفسه شهوة أن يرى الخلق منه ذلك وهو يدفع تلك الشهوة فههنا الشيطان يورد عليه ذكر رؤية الخلق، والقلب ينكر ذلك ويدفعه، فهذا الإنسان [مجتهد] في محاربة الشيطان، فضوعف العمل سبعين ضعفاً على العلانية، ثم إن لله عباداً راضوا أنفسهم حتى منَّ الله عليهم بأنواع هدايته فتراكمت على قلوبهم أنوار المعرفة، وذهبت عنهم وساوس النفس، لأن الشهوات قد ماتت منهم ووقعت قلوبهم في بحار عظمة الله تعالى؛ فإذا عمل عملاً علانية لم يحتج أن يجاهد، لأن شهوة النفس قد بطلت، ومنازعة النفس قد اضمحلت، فإذا أعلن به فإنما يريد به أن يقتدي به غيره فهذا عبد كملت ذاته فسعى في تكميل غيره ليكون تاماً وفوق التمام، ألا ترى أن الله تعالى أثنى على قوم في تنزيله وسماهم عباد الرحمن، وأوجب لهم أعلى الدرجات في الجنة ، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ ثم ذكر من الخصال التي طلبوها بالدعاء أن قالوا ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ **الفرقان**. منقول عن تفسير الرازي، ج٧، ص ٦٥.

تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات. قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل)[1] .

وملخص القول: إنه في كل مرة يكون إعلان الصدقة خيراً من إخفائها تكون نِعِمَّ ونِعْمَة... ففي أيام المسغبة والشدائد وامتناع الناس عن التصدُّق تصبح العلانية مفضلة بخمس وعشرين مرة كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما تكون مفيدة ودعوةً غير مباشرة للناس المُمْتَنعِين، أن يكفوا عن امتناعهم، وأن يُخرجوا الخيرات، تلك التي يحتاجها الناس في يوم ذي مسغبة، وفي يوم يحتاج الناس فيه لجميع تلك الصدقات وما هو أكثر... فالناس، يميلون عادة إلى المحاكاة، وتقليد من يعرفونهم أو يسمعون بهم، فإنْ رأَوْهُم خيِّرين تعلّموا منهم الخير وتابعوهم، وإن كانوا أشحّةً اقتبسوا منهم الشّح وتطبَّعوا به مثلهم .

وفي حالة كون الفقير متعففاً لا يسأل الناس إلحافاً، إلا أنه معروفٌ حالُه ومتحققٌ فقرُه لدى المتصدق، وكان المتصدق قادراً أن يعطيه الصدقة دون أن يخدش حياءه ودون أن يسيء إليه، فلا شك أنّ صدقة السر عندئذ أفضل، وقد تعدل سبعين من صدقة العلن، كما ورد أيضاً عن ابن عباس.

وفي عصرنا الحاضر أنشئت - كما ذكرنا - المؤسسات الخيرية الموثوقة والوازنة لتُحقق الحُسنييْن في صدقَتَيْ السر والعلانية، بقبض الصدقات الواجبة كالزكاة والخيرات النوافل، وتنظم صرفها، مما يجعل المتصدق في التطوع والمتصدق في الواجب حائزيْن على أجر الإبداء والإخفاء بآن واحد، ويصدق في المعلنين والمسرّين، قول النبي المصطفى **r** : "مَنْ سَنَّ فِي الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ" **الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله**[2] **t**

---

(١) ذكره الشيخ عليش متولي بدوي البني في موسوعة عجائب الصدقات، ج ١، الصفحات ١٣٦و١٣٨و١٣٩ .

(٢) **جرير بن عبد الله** صحابي جليل، أسلم قبل وفاة رسول الله بأربعين يوماً، قال **t** : أتيت النبي **r** وهو يبايع فقلت: يارسول الله أبسط يدك حتى أبايعك واشترطْ علي فإنك أعلم، قال **r** :" أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة،

وهكذا فإنّ أعمال البر والعبادات مما يرتجى وصول ثوابها إلى من أهديت له من الموتى، دون أن يُنتقص من أجر فاعلها شيء بإذن الله، لازمُها أن تسبقها النية أو تصاحبها. كما يصل إلى الميت ما عمله أثناء حياته الدنيوية من خير وبر وفلاح.

من ذلك:

١ ـ **الدعاء والاستغفار له**، لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ الحشر. وقوله r : "إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ" **رواه الإمام أبو داوود في سننه عن أبي هريرة** t .

٢ ـ **الصدقة**: وقد حكى النووي الإجماع على أنها تقع عن الميت، ويصله ثوابها سواء كانت من ولد أو غيره، لما رواه **أحمد ومسلم عن أبي هريرة** t (أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ r : إِنَّ أبي مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً وَلَمْ يُوصِ، فَهَلْ يُكَفِّرُ عَنْهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ؟) قَالَ: (نَعَمْ).

قال ابن القيم: قيل الأفضل [من أنواع الصدقات] **ما كان أنفعَ في نفسه**، أي ما كان فيه نفع لمن يحتاجه.

٣ ـ **الصلاة: لما رواه الدارقطني عن ابن عباس** t أن رجلاً قال: (يا رسول الله، إنه كان لي أبوان أبرّهما في حال حياتهما فكيف لي ببرهما بعد موتهما؟) فقال r : "إنّ من البر بعد الموت أن تصلي لهما مع صلاتك، وأن تصوم لهما مع صيامك". وقد فسر بعضهم الصلاة هنا بالدعاء!!

وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين". وكان حسن الصورة؛ قال عمر بن الخطاب t : جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيد قومه، وقال النبي r لما دخل عليه جرير فأكرمه وقال: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه". كما وصفه رسول الله r :(إن على وجهه مسحة مَلَكٍ) أرسله الرسول r لهدم صنم ذي الخلصة، وقاد بعض قومه في حروب الردة التي كلف بها، وفي سنة ١٣ للهجرة أرسله أبوبكر الصديق عاملاً على نجران. وجمع بطون قومه المتفرقة لما أراد عمر بن الخطاب أن يرسله لمساعدة جيش المثنى بن حارثة في حربه مع الأعاجم لفتح بلاد العراق وفارس. وتوفي في سنة ٥١ هـ (ويقال سنة ٥٤ هـ) في بلدة قديد قرب مكة المكرمة، وكان له في الحروب بالعراق: القادسية وغيرها.

٤ ـ **الصوم: لما رواه البخاري عن ابن عباس t** قال: جاء رجل إلى النبي **r** فقال: (يا رسول الله إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟) قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: "فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى".

وفي الصحيحين أن النبي **r** قال: "من مات وعليه صيام، صام عنه وليُّه"، وعند **الإمام أحمد في مسنده** ذكرُ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام لقوله **r** : "مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامُ شَهْرٍ فَلْيُطْعَمْ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينٌ". **الترمذي وابن ماجه.**

٥ ـ **الحج: لما رواه مسلم عن ابن عباس t** : أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إلى النَّبِيِّ **r** فَقَالَتْ: (إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟) قَالَ: "نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ" قَالَتْ نَعَمْ فَقَالَ: "اقْضُوا اللَّهَ الَّذِي لَهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ".

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **t** أيضاً، قَالَ رَجُلٌ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أبي مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَهُ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ") **رواه النَّسائي في سننه.**

واشترط النبي **r** على من يحج عن آخر أنْ يكون هو قد حجَّ حجة الإسلام، لحديث شُبْرُمَة أَنَّ النَّبِيَّ **r** سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ، قَالَ: "مَنْ شُبْرُمَةُ؟ قَالَ: أَخٌ لِي، أو قَرِيبٌ لِي. قَالَ: حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟ قَالَ: لا. قَالَ: حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ" **رواه أبو داود في سننه وابن ماجه في مسنده، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ t ، وفي شرح مسلم للنووي أنّ جواز الحج عن الميت مذهب جمهور الأئمة.**

وقد تكون **الأضحية** بالنية عن الميت ولروحه مقبولة بإذن الله، لما أورد مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **r** أَمَرَ بِكَبْشٍ أَقْرَنَ يَطَأُ فِي سَوَادٍ، وَيَبْرُكُ فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ، فَأُتِيَ بِهِ لِيُضَحِّيَ بِهِ. فَقَالَ لَهَا: "يَا عَائِشَةُ هَلُمِّي الْمُدْيَةَ، ثُمَّ قَالَ: اشْحَذِيهَا بِحَجَرٍ. فَفَعَلَت، ثُمَّ أَخَذَهَا وَأَخَذَ

الْكَبْشَ، فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ، ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ثُمَّ ضَحَّى بِهِ".وآل محمد منهم الأحياء والأموات، وقال العلامة ابن عثيمين: (ومما يصل إلى الميت من الأجر إشراك قريب له بالأضحية عند ذبحها!!)[1] .

وقد ورد في الدُّرَر السنّية في الأجوبة النجدية (لا بأس أن تذبح الذبائح صدقة للميت عند موته، أو في وقت الأضحية في أيام عيد الأضحى [فذاك] حسن، فإن كانوا يذبحون بقصد إعطاء الذبيحة للمساكين تقرباً إلى الله، وقصدهم أن الله يجعل ثواب الصدقة للميت فهذا لا بأس به). وأما إذا كانوا يدعون [إلى الذبيحة] كوليمة العرس فهذا من أنكر المنكرات).

٦ ـ **قراءة القرآن:** وهذا رأي جمهور أهل السنة.

<u>وللقراءة شرطان</u>: أولهما أن تكون النية للميت قبل بدء القراءة، وثانيهما أن يقرأ القارئ حسبةً لوجه الله لا يتقاضى عليها أجراً مادياً.

ذكر ابن قدامة في المغني أنّ الإمام أحمد بن حنبل **t** قال: (الميت يصل إليه كل شيء من الحي)، والقراءة خير مطلق، فهي كلام الله يهدي القارئ ثوابه إلى الميت،والقرآن تسبيح وحمد واستغفار ووفاء. وفي كل حرف منه حسنة، لا نقول (ألم) حرف، وإنما ألف حرف واللام حرف والميم حرف كما ورد عنه **r** ، وهو أجر طيب يناله القارئ ويهب مثله إلى الميت، فيفوز الاثنان. ولكنّ الأجر هذا يحتاج إلى نية. والنية يجب أن تكون واضحة في نفس القارئ، وإلا لفاز هو بالأجر دون الميت. ذلك أن جميع العبادات والأعمال في الإسلام تدور حول النية (وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)، فبالنية يفوز الميت بمثل ثواب تلاوة القارئ، دون أن يخسر القارئ شيئاً من ذلك الثواب، ولا ريب أن هذا

---

(١) أحكام الجنائز، مرجع مذكور، ص ٨٩.

الترابط يؤكد التواصل بين الحي والميت، وهو تواصل يريح الحي ويسعد الميت. ولعمري تلك ميزة يدركها المؤمن في الدنيا، يعيشها بجسده وروحه، وكأنه يعيش مع ميته الأثير، الذي يهديه مثل ثواب قراءته وصدقاته واستغفاره ودعائه. وهو إذ يفعل ذلك، يأمل أن يكون له أيضاً عندما يأوي إلى جَدَثِه، منْ أهل الدنيا مَنْ يهبه صدقات ودعاءً وصلاة وصياماً وطوافاً وعمرة وحجاً، وسوى ذلك من أعمال البر والخير وتلاوة القرآن... وذلك كله مرتبط بتحقق الشرط الثاني، وهو أن لا يأخذ القارئ بنية نفع الميت أيَّ أجر مادي من أهل الميت أو إخوانه أو أصحابه، فإن أخذ حُرم من أجر التلاوة، وحرم الميت من ثوابها، كما حَرُمت الأجرة على المعطي والآخذ بآن معاً، أي إنّ القراءة بأجر مادي خلَّفت إثماً على أهل الميت وعلى من قرأ !!! فقد روى الإمام أحمد والطبراني عن **عبد الرحمن بن شبل**[1] أن النبي **r** قال: "اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلا تَغْلُوا فِيهِ، وَلا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ".

وذلك وسواه صدقات مباركة تُوهب للموتى رجاء أن يقبلها ربنا، وهو المأمول بالإجابة والقبول.

(١) **عبد الرحمن بن شِبْل بن عوف**، الأَنصاري الأَوسي أحد نقباء الأنصار، قال البُخَارِيُّ: له صحبة. وهو ممن نزل حِمْص من الصحابة، كما نزل الشام وطلب منه معاوية بن أبي سفيان أن يعظ الناس فيها إلى أن مات.

الفصل التاسع عشر :

ومضات من سورة التكاثر [1].

وفي ختام هذا الباب المحزن ـ المفرح، وجدت من المفيد أن أختمه بومضات نورانية تشع من سورة (التكاثر)، وهي سورة لحظت أنّ الحياة الدنيا، ينتهي مَنْ فيها، مهما كانوا وبلغوا، إلى القبور، **وعبّرت عن الموت المحتوم بزيارة القبور لأن الزائر غير مقيم**، فهو لا يلبث في قبره إلا قدراً من الزمان، حسب تقدير الله سبحانه، ثم يبعث الله الموتى أحياءً من جديد وصولاً إلى الدار الآخرة، دار الخلود نعيماً أو عذاباً.

في مفردات السورة إيقاعات وومضات، تلخص الحياة، وتبيِّن درجات العلم والمعرفة، والتكاثرَ المذموم والممدوح، والنعمَ وأسلوب التعامل معها شكراً أو نُكراً، وأثر ذلك على الحياة والإنسان،

أقول والله المستعان:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: اللَّهو بمعنى فعل الشيء غير السوي. وهنا خطاب للناس أنكم شُغلتم باللهو عن غاية وجودكم، وهي الغاية التي أوضحها الله بقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات. فكل ما تقومون به خلاف ذلك، فهو لهوٌ، وحرفٌ للوجود عن غاياته.

---

(١) كتبتُ دراسة موسّعة حول سورة التكاثر وهي لا تزال مخطوطة. وسننشرها، إن شاء الله، لوحدها أو مع سور أخرى ضمن تأملات في كتاب الله.

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ تحمل من جهة، تقريراً عن الخلل الطارئ على الحياة الإنسانية، كما الإنذار الشديد لعبادة المنحرفين اللاهين. وقد جاءت الكلمة بصيغة عتبٍ، رجاءَ الانتباه والعودة الجادة إلى الطريق المستقيم. كما أن ورود الفعل ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ بصيغة الماضي والخبر دلالة على أنّ اللهو عن الآخرة، واستغلالَ النعم لغير ما وردت له، قد يَختم حياة هؤلاء بما هم عليه، فيدركهم الموت وهم على ذلك. فإن ندموا فلا ينفعهم الندم.

﴿أَلتَّكَاثُرُ﴾: عادة يكون في النعم، والنعم قسمان: نِعَم روحية دينية، ونعم مادية. وكل النعم يسّرها الله لعباده لاستخدامها ضمن الحاجة، ودون إسراف ولا مغالاة، وبخاصة في النعم المادية التي هي للجميع، ولا يجوز احتكارها لفئة دون الآخرين. وفي حال كان استخدام النعم خلاف هذا الشرط، يصبح التكاثر تفاخراً وتكبُّراً ورياءً. وقد جاء التكاثر في السورة، بإطلاق، ليشمل كل ما يمكن أن يتحول إلى الفخر والتعاظم على الآخرين والاستعلاء. ضمن تطور الزمان وحيثيات المكان، وبذلك يخرج عن دائرة الذم كلُّ تكاثرٍ بالخير والمعروف. فقد جاء الأمر من الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ المؤمنون .فالحياة وما فيها من نعيم هبة من الخالق المبدع. ثم هو سبحانه يكافئ الموهوب له، وهو الإنسان، على حسن التعامل مع هبة الرحمن، وبالتالي: أليس من العدل أيضاً أن يعاقب من أساء؟ إنّ العاقل من يشكر المنْعِم، ولا ينكره، ولا يجحده؛ ولا يفعل ذلك إلا من فقد صفات العقل والرشد.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: أي، إنّ اللهو والبعد عن الله امتد زمن حياتكم حتى أدركم الموت، فسكنتم القبور بعد القصور، إلا أنه، في كليهما، سَكَنٌ غير دائم، عبّر عنه هنا في السورة بالزيارة. فالزائر منصرف، لا محالة، والعبور، بعد القبور، لا يكون إلا إلى عالم الأبدية المطلق. فهناك حساب ولا عمل، بخلاف الدنيا التي هي عمل ولا حساب أو سؤال. ومن المؤسف أن الإنسان اللاهي المكاثر في الدنيا يرى ذلك الحساب الدقيق الشديد بعيداً، بينما هو قريب قريب.

﴿كَلَّا﴾: للزجر والنهي والاستعلام، أنّ الحياة ليست كما يعيشها المكاثرون المعتدون على نعم الله. فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني، بينما نعم الله للجميع، يعلم حاجتهم منها، فوفّرها لهم، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ الحجر.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: هؤلاء المبطرون المكاثرون، وقد ضلوا الطريق، سيعلمون في لحظة من لحظات الدهر، في الدنيا أو عندما يؤولون إلى القبور، ثم في دار الآخرة الأبدية، أنّ الحياة الدنيا لم تكن عبثاً، فلها نظامها وقواعدها، وللإنسانية غاية وجود، غير أن الناس لم يحققوها، كما أنّ الإسلام هو دين الله الواحد المقبول، وقد رفضوه إذ جاءهم، أو انحرفوا عنه.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ثم حرف عطف للمغايرة والتراخي، يعني أنّ هؤلاء المكثرين اللاهين وأمثالهم، وإن لم يعلموا، حالَ حياتهم، الحقَّ المبين علمَ اليقين، وهو العلم بدين الله ومنهجه وسنة نبيه المصطفى r، فإنه سيأتي اليوم الذي يرونه يقيناً، وقد يكون ذلك في

قبورهم عندما يأتيهم الحساب الأول والسؤال الأكبر عن ربهم ورسولهم ودينهم، وعما فعلوا بنعم الله، ثم يرون مقاعدهم في النار، ومقاعدهم في الجنة، لو كانوا قد أقاموا في الدنيا على أمر الله[1]...

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: لو كنتم علمتم علم اليقين الذي أرسله الله إليكم، ولم ترفضوه، لأدركتم معرفةً أرّقتكم أو أفادتكم.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾: جحيم الدنيا الذي عشتم فيه، وكنتم تحسبونه نعيماً. فقد كان سبيلَ جحيمِ الآخرة، تلك التي تَستَعِرُ استعداداً لاستقبال من طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، فمن الجزاء أن تكون الجحيم هي المأوى.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: إنّ هؤلاء سوف يستقبلون الحقيقة كاملة، واقعاً أليماً برؤية عذاباتها وملامسة شدائدها، جزاءً وفاقاً لما قدموه في دنياهم، رغم الإنذار والإعلام وتنزيل كتاب الله، وقد عبّرت، عن ذلك كله، بعين اليقين، وهي عينُ مشاهدة واقعية لا مراء فيها ولا تخيل. على أنّ اليقين درجات: علم اليقين وعين اليقين، وقد اقتصرت عليهما السورة، وحقُّ اليقين، وهو الدرجة العليا في المعرفة، وقد أشارت إليه الآية ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥﴾ حيث يعيش معه المرء حقيقة اليقين الذي سمع به، ثم شاهده بالعين، ثم هو أخيراً يعيشه بالفعل جنة أو ناراً.

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: في ذلك الوقت المعلوم وبعد البعث من القبور والنشور، يكون جميع الخلائق في ساحات الحساب لإقامة العدل

---

(١) انظر حديث النبي r ذلك في ص ١٦٤ من هذا الكتاب.

بينهم، وللسؤال عما فعلوه وقدموه، وعن نعم الله الكبيرة التي لا تحصى، وهي لا تحصى لكثرتها، لكنّ الله سبحانه أحصاها. وسيُسأل العبد عن كل نعمةٍ أنعمها ربه عليه في جسده وعقله، ونفسه، وماله، وموجوداته، وأولاده وكل جاهه ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ القمر.

بكلمة، سورة التكاثر كشفت الهوَّة العميقة التي تتخبط، في دركاتها، البشرية منذ فجر التاريخ، ولا تزال، عبر الأزمنة والأمكنة، ضمن ما تعارفت عليه الألسن بمسمى (الحضارة) المادية، فملكت مقاييس واحدة في المواصفات والغايات والأهداف، وإلى حد ما، الوسائل. فتجد تلك (الحضارة) في نفسها تمرداً على غاية الوجود الإنساني، تمرداً على نعم الله في كونه، وطغياناً في امتلاك النعم واحتكارها وحرمان الآخرين منها، وإذلالهم، والاستبداد بهم. والسورة، بشكل عام، إنذار شديد لهذا الإنسان المتمرد. فهل يعي هذا الإنذار أو يستمر في اللهو والتشاغل عن أمر الله؟ تلك هي المسألة؟

❖ ❖ ❖

فهرس التراجم

الاسم	الصفحة
الأشعث بن قيس	١٦٨
الأصمعي	٢٤
الألوسي	١١٢
ابن أبي الدنيا	١٣٢
ابن حجر العسقلاني	٩٤
ابن عابدين	٩١
ابن قدامة	١٢٩
أبو أسيد	٢٠٤
أبو أمامة الباهلي	٩٢
أبو أيوب الأنصاري	٩٧
أبو بكرة	١٩٤
أبو حازم الأعرج	٦٨
أبو سعيد الخدري	٤١
أبو سلمة	١٠٨
أبو عباس القرطبي	٩٣
أبو مسلم الخولاني	١٨٨
أبو نعيم الاصفهاني	٨٧
أبو هريرة	٣٥
أبو اليسر	٧٦
أبي سلمى	١٨٧
أحمد بن خضرويه	٧١
أشعث بن أسلم	٤٩
أم حبيبة	١٠٨
أم الدرداء	١٥٧
أوس بن أوس	١٦١
أويس القرني	١١٤
البراء بن عازب	١١٥
برهان الدين البقاعي	١٣٩
البزار	١٠٦
بلال بن رباح	٦٧
البلوطي	٥٤
ثوبان	١٣١
الجريري	٦٩
جرير بن عبد الله	٢١١
الجنيد	٦٩
حسان بن ثابت	١٩٤
الحسن بن علي بن أبي طالب	٦٣
الخطابي	٧٤
الرازي	٧٥
زيدبن أرقم	١٣٠
الزيلعي	٩٢

الاسم	الصفحة
زينب بنت أبي سلمة	١٠٨
السبكي	١١٣
سعد بن معاذ	١٥٩
سعيد بن المسيب القرشي	٥٥
سفيان التمار	١٤١
سهل بن سعد الساعدي	٤٧
الشافعي	٧٠
شهر بن حوشب	١٨٦
الشوكاني	٩٤
صهيب	٥٢
الطحاوي	١٣٦
عُبَادَة بنُ الصّامِت	٤٠
عبد الرحمن بنَ أبَان	٧٦
عبد الرحمن بن شبل	٢١٤
عبد الله بن أبي بكر	٧٨
عبد الله بن أبي مليكة	١٩١
عبد الله بن كعب بن مالك	٥٨
عبد الله بن المبارك	١٦٨
العراقي	٦٠
عطاء بن يسار	٧٠
العلاء بن اللجلاج	٩٥
علي بن الحسين	١٩٧
عمارة بن غزية	٧٨
عمر بن عبد العزيز	٤٨
عمر بهاء الأميري	٢٠١
عمرو بن الأسود	١٢٤
عمرو بن العاص	٦٥
الغزالي	٦٤
الامام القرطبي	٤٨
مالك بن هبيرة	١٢٦
مجاهد بن جبر	٥٦
محمد بن صالح العثيمين	١٢٢
محمود بن الحسن الوراق	٥٠
المرداوي	٩٣
معاذ بن جبل	٦٧
المعتصم بالله	٧٢
النعمان بن بشير	١٨٠
هارون الرشيد	٦٩
هزّان	١٥٨
واثلة بن الأسقع	٨٧

الفهرس العام

الإهداء ٥

مقدمة ٦

وصية راقد تحت التراب ٧

توطئة لماذا (وظن أنه الفراق) اسم للكتاب؟ ١٢

من معاني الموت..... ٢٠

- **الفصل الأول: الموت مخلوق مكروه أو وافد مرغوب؟!!** ٢١
  - من يُخلق يمت ٢١
  - الموت قبل الحياة!!!..... ٢٣
- **الفصل الثاني: لولا الموت كيف تكون الحياة؟ وإبليس تمناها لنفسه بلا موت!!** . ٢٥
  - إبليس رغب بحياة دون الموت..... ٢٩
  - على أرضنا لا حياة بدون موت..... ٣١
  - في عالم آخر حياة بلا موت ٣٢
- **الفصل الثالث: العمر المؤقت ومراحل الحياة** ٣٥
  - مراحل في الحياة الدنيا..... ٣٧
  - لو يعمر ألف سنة!! ٣٩
  - الموت دعوة للحياة..... ٤٠
  - ومن نعمره ننكسه في الخلق..... ٤٢
  - تجهيل زمن الموت ميزة له ٤٣
  - حياة بلا توازن ٤٥
- **الفصل الرابع : هاذم اللذات**..... ٤٨
- **الفصل الخامس: سكرات الموت** ٥٦
  - من معاني السكرات..... ٥٧
  - موت أبي بكر **t** ٥٨
  - مشاهد من سكرات الموت عند النبي **r** وبعض الصحابة وآخرين.... ٦٠

- موت رسول الله r ٦٢
- موت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب t ٦٣
- موت عثمان بن عفان t ٦٤
- موت علي بن أبي طالب والحسن بن علي y ٦٥
- موت معاوية t ٦٦
- موت عبد الملك بن مروان ٦٧
- عمرو بن العاص t ٦٨
- موت عمر بن عبد العزيز t ٦٩
- موت بلال بن رباح t ومعاذ بن جبل t ٧٠
- موت أبو حازم الأعرج ٧١
- موت الجنيد وهارون الرشيد ٧٢
- موت عطاء بن يسار والإمام الشافعي ٧٣
- موت أحمد بن خضرويه ٧٤
- موت المعتصم بالله والواثق بالله هارون..... ٧٥

- **الفصل السادس: في مرحلة ما قبل الموت المحتضر أمام خبط الشيطان!!** ٧٨
  - شرح الخطابي، وشرح الإمام الرازي والإمام القرطبي في مواجهة ٧٩
  - مراوغة الشيطان لقادة معركة مؤتة..... ٨٢
  - حتى تنظروا بما يختم له! وقصة الإمام أحمد بن حنبل..... ٨٥
  - حديث النفس بغير الحق..... ٨٧
- **الفصل السابع: تلقين المحتضر**..... ٩٠
- **الفصل الثامن: التلقين بعد الدفن** ٩٥
  - لعالم البرزخ طبيعة خاصة ١٠٠
- **الفصل التاسع: موت الفجأة ودموع الحزانى**..... ١٠٥
  - الفجأة راحة للمؤمن نعم... ولكن!! ١٠٧
  - التأكد من تحقق وفاة الفجأة..... ١٠٨
  - دموع الحزانى..... ١٠٩
- **الفصل العاشر: الروح المخلوق العجيب** ١١٤

- انسلاخ الروح ١١٩
- مستقر الروح ١٢١
- الروح أكبر من مداركنا..... ١٢٣

● **الفصل الحادي عشر: في حقوق الميت وقبره** ١٢٥

- حقوق أساسية للميت..... ١٢٥
- غسل الميت وكفنه..... ١٢٧
- الصلاة على الميت فرض وحق ١٢٩
- الجنازة ١٣٣
- القبر ١٣٦
- النعيم والعذاب في البرزخ على الجسد أو على الروح أو على كليهما؟! ١٣٨
- للغيب ضوابط ومعطيات خاصة ١٤٠
- عودة إلى الحديث عن القبر كما في سورة عبس ١٤٣
- القبر بين الشق واللحد ١٤٤
- القبر بين التسنيم والتجصيص والكتابة عليه ١٤٦
- القبر يعلّم بغير الحجر ١٤٨
- القبر بين رخاوة التربة وإقبار اكثر من واحد..... ١٤٩
- لكل إنسان قبر ...نعم ولكن!!..... ١٥٠
- من فضائل الشهيد والميت في سبيل الله ١٥١
- المدافن العامة..... ١٥٣
- الجريدة والآس على القبر!!..... ١٥٥

● **. الفصل الثاني عشر: نوافذ مفتوحة على عالم البرزخ** ١٥٨

- نافذة من عالم البرزخ على أهل الدنيا..... ١٦٠
- ضمة القبر والسؤال فيه ١٦٤
- محاماة في القبر عند السؤال ١٦٧
- مليارات اليرقات يأكلن الجسد!! ١٦٩
- استثناءان من التحلل: الأنبياء والشهداء ١٧٠
- عُزَيْر وأصحاب الكهف يؤكدان الاستثناء ١٧٢

– الجراثيم في الجسد تعينه على الحياة وتأكله عند الممات ١٧٢
• **الفصل الثالث عشر: التعزية سنّة ومشاركة** ١٧٤
• **الفصل الرابع عشر: الصبر عند مصيبة الموت** ١٨١
• **الفصل الخامس عشر: في ذكر الجنة والنار** ١٨٧
– تقريب أحوال الآخرة بمقاييس دنيوية ١٨٧
– أما عما في الجنة فنقول اختصاراً ١٨٨
– أما عذاب النار فغرام ١٨٩
– للإيمان بالله، في الآخرة، ميزة كبرى ١٩٣
• **الفصل السادس عشر: تذكر مصيبة الموت وفقد الولد** ١٩٦
– تذكر الموتى ٢٠٠
– زيارة القبور وزيارة النساء لها ٢٠٠
• **الفصل السابع عشر: الموت والشعر** ٢٠٥
– قصيدة حسان بن ثابت ٢٠٧
– قصيدة زين العابدين(ليس الغريب غريب الشأم واليمن) ٢٠٩
– قصيدة الإمام الغزالي (قل لإخوان رأوني ميتاً) ٢١١
– قصيدة عمر بهاء الأميري (مع الله... عند سكنى الحُفر) ٢١٣
– قصيدة كرامي شلق (يا واقفون على القبور تأملوا..) ٢١٤
• **الفصل الثامن عشر: الصدقات والخيرات تفاعل بين الحي والميت سرا وعلانية.** ٢١٥
– الصدقات بين الإعلان والإخفاء ٢١٩
– الدعاء والاستغفار له، والصدقة، والصلاة ٢٢٤
– الصوم والحج والأضحية ٢٢٥
– قراءة القرآن ٢٢٦
• **الفصل التاسع عشر: ومضات من سورة التكاثر** ٢٢٧
فهرس التراجم ٢٣٣
الفهرس العام ٢٣٤
كتب المؤلف ٢٣٨

كتب للمؤلف

١. **.عمر بن عبد العزيز في الحكم والمال والقضاء** الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ./ ١٩٦٦م. الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ./١٩٧٤م.،الطبعة.الثالثة ١٤٢٥هـ./ ٢٠٠٤م.

٢. **الطريق إلى حكم إسلامي**: يعالج مفهوم الإسلام للحكم ونشأة الدولة الأولى وإلغاء الخلافة والسيطرة الاستعمارية والفكرية على الشرق المسلم وحركات المواجهة والتصدي وصولاً إلى كيفية إقامة حكم الإسلام من جديد الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ./١٩٧٠م وأعيدت طباعته تصويراً في عدد من الدول العربية عدة مرات. وقد طبع قسم منه في القاهرة تحت عنوان **كبرى الحركات الإسلامية** كما طبع في بيروت القسم الأول من الكتاب بعنوان **المفهوم والتجربة**.

٣. **المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا**: يعالج قضية المسلمين والوطن في لبنان قبل حرب ١٩٧٥ ط. ١ ١٣٩٣هـ./ ١٩٧٣م. وأعيد طبعه في أكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٧٤ م.

٤. **. تحت الأسوار** (مسرحية) انطلاقاً من أحداث جرت للقائد محمد بن القاسم أثناء فتح السند والهند طبعة. ثانية ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م.(ترجمت إلى الإنكليزية في الهند)

٥. **. تفسير جزء عم معان وموضوعات** ط.١ ١٣٩٩هـ./١٩٧٩م. ط.٣ ١٤١٧هـ./١٩٦٦م.

٦. **سجل التمارين القرآنية** (خاص بجزء عم) أسئلة وحوار مع القارئ ط ١ ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م،ط. ٢ أضيف السجل إلى "كتاب جزء عم ومعانيه" ١٤٠٣هـ./١٩٨٣م.

٧. **مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية** رؤية جديدة لمفهوم الحضارة عموماً والحضارة الإسلامية خصوصاً ط ١ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.،ط. ٢ عام ١٤٠٣هـ /١٩٨٣ م.

٨. **قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة** دراسة تحليلية ونقدية للتاريخ من الفتح الإسلامي ونشأة المارونية حتى عام ١٨٤٠. الطبعة الأولى عام ١٤٠٥هـ./ ١٩٨٥ م.

٩. **. سلسلة القصص النبوي**: قصص رويت عن النبي r ثم كتبت بخيال قصصي دون خلل بأحداث القصة النبوية أو غاياتها. أ ـ **نار وإيمان** ط أولى ١٩٧٠م (مترجمة إلى الإنكليزية في أوستراليا باسم استعلاء الإيمان)، طبعة ٥، ١٤٢٢هـ./٢٠٠١م ب ـ **غار الإخلاص**، ط٣، ١٤١٩ هـ./١٩٩٨. ج ـ **ألف لا تضيع** ط.٢، ١٤٠٥ هـ./١٩٨٥م.

١٠.**جزء عم ومفرداته** ط. أولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.وأعيدت طباعته عدة مرات.

١١.**الزواج الإسلامي أمام التحديات** ط.ثالثة ١٤٠٧هـ./١٩٨٦م. في جزأين: **الأول**: فلسفة الزواج في الأديان والفلسفات المعاصرة. **الثاني**: تهافت دعوى الزواج المدني في لبنان والعالم الإسلامي.

١٢.**جزء تبارك ومفرداته** الطبعة الأولى ١٤١٠هـ./١٩٩٠م. طبع عدة مرات.

١٣.**الأقليات الإسلامية في العالم** دراسة حول الأقليات المسلمة والجاليات ١٤١٣ه./١٩٩٢م

١٤. (أكرم عويضة) أو "**معالم مدينة** " **في القرن العشرين**، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ./ ١٩٩٦م.، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ./ ٢٠٠٤م.

١٥.**دور الجمعيات الخيرية في تطبيق الزكاة** الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م.

١٦.**تجربة الزكاة في لبنان** (دراسة مقارنة مع تجربة بنك ناصر الاجتماعي في مصر والعمل الخيري المسيحي اللبناني) ١٤١٩هـ./١٩٩٨م.

١٧..**مجالس التفسير** تفسير بالحوار بين أفراد عائلة، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ./٢٠٠٥م.

١٨.**يس قلب القرآن معانٍ وصور** ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م طبع عدة مرات.

١٩.**رجال... رثيتهم**... الطبعة الأولى ١٤٢١هـ./ ٢٠٠٠م.

٢٠.. **عُمرة الشفاء ومشاهد أخرى من الحياة** الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ./ ٢٠٠١م.

٢١.**الصيام آفاق وأحكام** الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ./ ٢٠٠٢م.

٢٢.. **الزكاة وقضايا معاصرة** ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ./٢٠٠٣م.

٢٣.**عودة الذاكرة إلى تاريخ طرابلس والمنطقة**، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ./٢٠٠٤م.

٢٤.**الفاتحة أم القرآن** سورة الثناء والشفاء، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ./٢٠٠٦م.

٢٥.**قراءة في دستور الطائف**، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ./ ٢٠٠٧م.

٢٦. **الزينة والتجميل والجمال الأصالة والحداثة**، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ./٢٠٠٧.

٢٧.**النبتة القاتلة** الطبعة الأولى ١٤٣١/٢٠١٠ ، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ./ ٢٠١١م.

٢٨. **رسالة إلى الفاتيكان : تعالوا نقرأ معا** ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ./ ٢٠٠٩م.

٢٩. **يقين اللقاء**، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢م.

٣٠. **حروف الوفاء في فقد الأبناء**، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢م.

- **كتيبات:**

٣١. **التذكرة في أحكام المولود** ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.طبع عدة مرات.

٣٢. **القضية الكشميرية تاريخ وأبعاد** ط. أولى ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

٣٣. **العولمة ومصير حقوق الإنسان** ط. أولى ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م

٣٤. **العودة إلى الله**، حوارية في فصل واحد ط. أولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

٣٥. **طرابلس الفيحاء بين الحرمان والإنماء** ١٤٢٣هـ./٢٠٠٢م.

٣٦. **وصايا إلى العروسين** رجب الخير ١٤٢٣هـ./٢٠٠٣م.

٣٧. **وصايا إلى الأخوة الأحباب متطوعين وموظفين** المجموعة الأولى، جمادى ٢ ١٤٢٥هـ./آب ٢٠٠٤م.

٣٨. **مدرسة رمضان الرائدة** غني يعطي.. وفقير يتمرد.. ط.١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٩. **رمضان أيضا شهر الجهاد** الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م.

- **كُتب قيد الانجاز**

أ **وجوه من الحياة: الصحة والمرض والشفاء**

ب. **الفقر والجوع من منظور إسلامي.**

ج. **سلمان رشدي**: المحاكمة والحكم (نص حواري في فصلين)

د. التكاثر سورة اليقين

- **قيد الإعداد والإنجاز**

أ. (**وهزم الأحزاب**) مسلسل تلفزيوني في السيرة عامة وغزوة الأحزاب خاصة.

ب. **روابط بين فواتح سور القرآن وخواتيمها .**

ج. **تأملات ولمعات.**

د. **الخير فقه ومسيرة**

هـ. **تجربتي في العمل الاسلامي الدعوي والسياسي والخيري**

[a] **وللمؤلف العديد من الأبحاث والمقالات الحركية والسياسية والخيرية والإجتماعية والحقوقية والقصصية في الدوريات اللبنانية والعربية والإسلامية، ويمكن أن تراجع بعض هذه المؤلفات والكتب والمواقف في موقع المؤلف (الكلمة الطيبة) على الشبكة العنكبوتية** *www.kalimatayiba.org*.